نمو الحضارة

تأليف

و . ج . بري

ترجمة

لويس إسكندر

مراجعة

على أدهم

الكتاب: نمو الحضارة

الكاتب: و . ج . بري

ترجمة: لويس إسكندر

مراجعة: على أدهم

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بري ، و . ج

نمو الحضارة / و . ج . بري ، ترجمة: لويس إسكندر ، مراجعة: على أدهم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

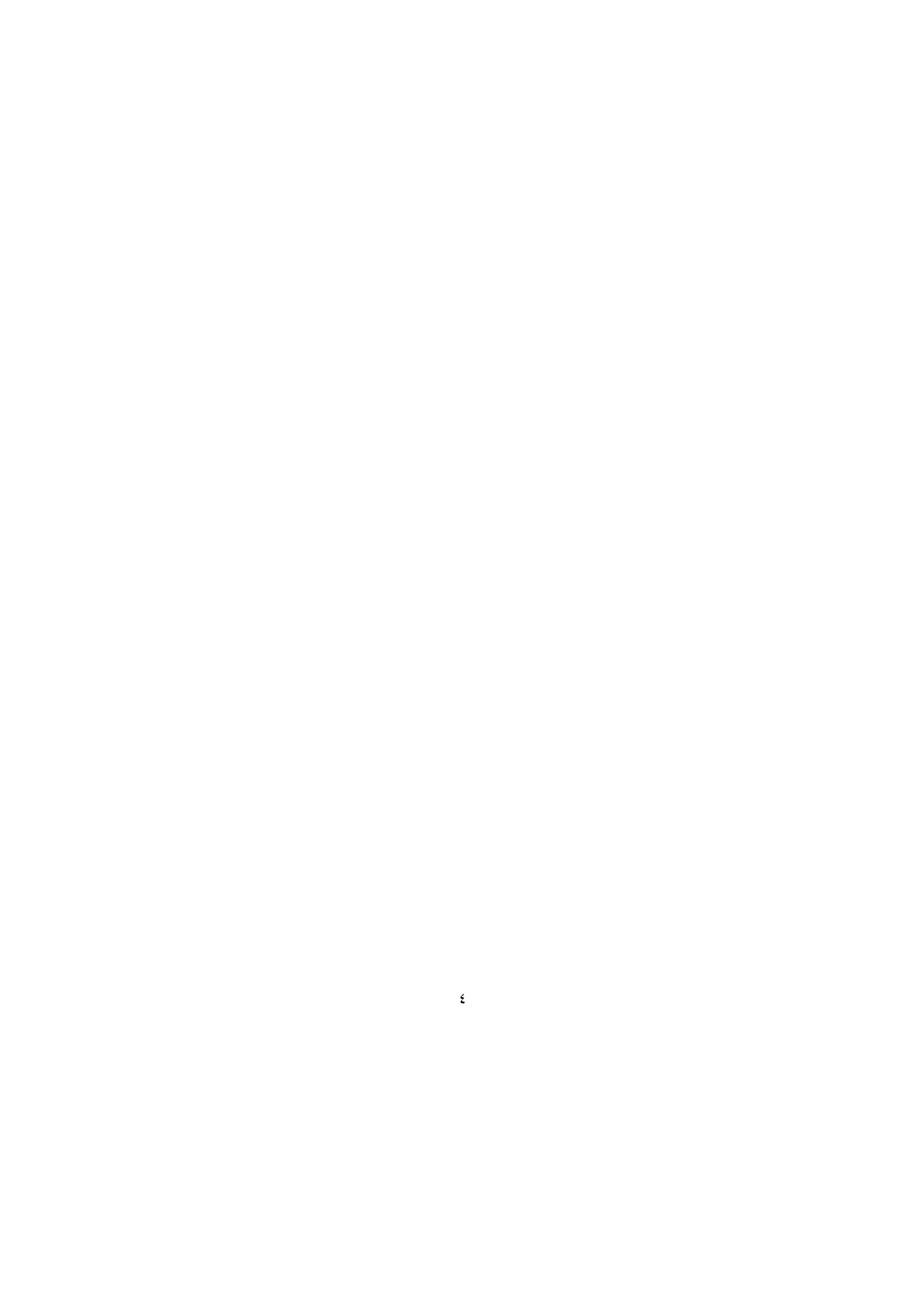
٢٢٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٣ – ٥٣٣ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١١٤٥٩ / ٢٠٢٢

نمو الحضارة





الفصل الأول

مقدمة المؤلف

إن فكرة النشوء التلقائي "Spontaneous Generation" قد عفى عليها الزمن وطرحها علماء البيولوجيا جانبا منذ أمد بعيد – ومع أن هؤلاء العلماء يقرون أن كائنات معينة قد تتحور لأسباب مجهولة وتبعث إلى الوجود بفصائل جديدة، إلا أنهم مقتنعون اقتناعا عميقا بأن كل الكائنات الحية تشترك في وحدة جوهرية، وحتى حينما يعجزون عن إثبات فكرة الاستمرار "Continuity" فإنهم يسلمون بصحتها – وأصبح من المتفق عليه الآن بصورة اجتماعية أن كل كائن حي يتصل في النهاية بكل كائن آخر.

ومن الأمور التي كان مسلما بها ضمنا أو صراحة خلال السنوات الطويلة السابقة أن العقل البشري يعمل بصور مختلفة، وأن في مقدوره أن يوجد ثقافة شاملة باستجابته إلى فعل البيئة تلقائيا بدلا من التدرج في خطوات بطيئة شاقة من مرحلة إلى أخرى، ولطالما قيل أن الحضارات الكبرى نتاج مستقل لتطور منعزل – فترانا نتحدث مثلا عن حضارة المكسيك أو الصين أو الهند ونحن نعني غالبا أن هذه الحضارة أو تلك إنما هي حضارة تخص ذلك البلد بالذات دون غيره.

أما مبدأ النشوء التلقائي للثقافة فسوف نرى أنه مبدأ خاطئ مضلل، ومن الخطأ أن نعتقد أن الارتقاء قد حدث بصورة تلقائية في كل أنحاء العالم

– بل إن كل ما نعرفه عن نمو الثقافات وانتشارها إنما يبين أن أغلب مجتمعات العالم التي تخطت مرحلة جمع القوت ومارست أي فن من الفنون أو أية حرفة من الحرف الأساسية إنما تدين بالفضل في رأسمالها الثقافي لجماعة أخرى، وهذا يعني كما هو الحال في الحياة المنظمة بوجه عام إن كل جماعة بلغت في حضارتها مرحلة إنتاج الطعام إنما تتصل في النهاية بكل جماعة أخرى لأنها تملك نصيبا من الحضارة التي شاد الإنسان صرحها بجده وعمله، وليس القصد من هذا أنه ليس في مقدور جماعة من الجماعات أن تبتكر شيئا جديدا – بل القصد منه أن وصول جماعتين كل منهما بمعزل عن الأخرى إلى ثقافة مكنتها مثلا من النسج والفلاحة وصنع الأواني الفخارية هو أمر عسير الاحتمال إلى درجة كبيرة بحيث نستطيع أن نقرر في ثقة أن شيئا من هذا لم يحدث بتاتا.

وفي كل يوم يزداد اعتقاد الدارسين أن مبدأ الاستمرار هو المبدأ الصحيح حتى ولو تعذر إثباته، وهم في ذلك لا يشذون عن علماء البيولوجيا، فكل جماعة يعود الفضل في ثقافتها إلى جماعة أخرى مع استثناء جماعة واحدة هي البادئة – وإذا نحن اقتفينا الأثر إلى بعد كاف فسوف نجد خيوطا تتجه من أنحاء العالم كافة نحو مركز واحد هو مصدر الحضارة ومنبعها، هذه هي النتيجة التي ينتهي إليها الجدل بعد دراسة شاملة للحقائق.

والموضوع الأساسي لهذا الكتاب هو أن الحضارة شيء قائم بذاته له

أسلوبه الخاص في الارتقاء، ولا بد من أن يتسع أفق نظرنا إلى أبعد حد ممكن لكي نتفهم كيفية قيام الحضارة ونهضم فكرة نموها، وحتى يستطيع القارئ أن يستوعب هذه الفكرة فعليه أن يرجع إلى الخريطة رقم (٧) فهي تبرز كل مراحل ارتقاء الثقافة، وتعبر بطريقة بيانية عن التطور التاريخي في مجمله.

ولا يمكن أن تتسم الحضارة بالاستقرار والثبات بل هي تتعرض بين آونة وأخرى إلى اضطرابات كتلك التي اعترتنا أخيرا[١]. ومن أشق المهام أمام من يدرس المجتمع أن يحدد الأسباب التي تؤدي إلى تلم الاضطرابات، ولطالما اندثرت مجتمعات كبرى في العصور الماضية وكانت هذه الأحداث على نطاق بلغ من الاتساع مدى دعا إلى التسليم بأن هناك قانونا للنمو والفناء تخضع له كل الكائنات الاجتماعية.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أنقض هذا الرأي، فإذا نحن درسنا الحرب دراسة علمية كأي نظام آخر وضح لنا أن الجماعة البشرية في مراحلها الأولى كانت تعيش في سلام.

ثم تعلم الجنس البشري سلوك العنف المنظم وتطورت الحروب كالأورام السرطانية التي تجئ بمحض الصدفة ونمت كما تنمو الطفيليات حتى أصبحت الآن تنذر العالم بالفناء كما تخنق الطفيليات ما تعيش عليها من جذوع الأشجار.

---

[١] يشير الكاتب بذلك إلى الحرب العالمية الأولى

ولو أني وفقت في هذا الكتاب إلى توجيه عقول القوم إلى دراسة هذا الموضوع دراسة جدية لكان في ذلك لي خير الجزاء.

المؤلف

الفصل الثاني

مرحلة جمع الطعام

تقطن العالم شعوب على درجات مختلفة من الثقافة، فعند الطرف الأول من السلم جماعات كتلك التي ننتمي إليها تمتلك كل مواد المدنية ولها من الوسائل التي تربو على الحصر ما يمكنها من غزو الفضاء والزمان ومن أن تعيش عيشة معقدة تعقيدا لا حد له – وعند الطرف الآخر من السلم تعيش أقوام لم تصب أي تقدم في الفنون أو الحرف، أقوام لا تزال ترتحل هنا وهناك بحثا وراء طعامها حيثما تستطيع الحصول عليه كما هي الحال الآن في الجهات النائية المتطرفة من الأرض كغابات جنوب الهند وقفار أمريكا وفي جنوب أفريقيا وإلى غير ذلك من الأماكن، وبين هذين الطرفين جماعات كبيرة العدد تتدرج ثقافتها صعودا أو نزولا حتى تندمج في هذا الطرف أو ذاك، ومن الأمور الحتمية في أية محاولة لتفهم طبيعة الحضارة أن يشمل بحثنا كل مراحل الارتقاء.

والمشكلة الأساسية التي تواجه كل من يدرس نمو الحضارة هي أن يجد تفسيرا لحقيقتين، فمن الواضح أولا أنه لم يكن في العالم بأسره في غابر الزمان سوى أقوام تنتمي ثقافتها إلى مرحلة جمع الطعام حين لم تكن بدأت زراعة ما تحصل منه على قوتها أو استئناس الحيوان الذي تأكل لحمه أو تستغل ألبانه.

وقد حدث أنه بعد زمن مجهول عاشته تلك الأقوام في تلك المرحلة

من الثقافة – زمن لا بد أنه امتد عدة آلاف من السنين – اكتشف الإنسان طريقه زراعة النباتات الغذائية وتربية الحيوانات الغذائية وبذلك بلغ من الثقافة مرحلة إنتاج الطعام، ولا بد لنا أن نعرف الوسيلة التي تمكن بها الإنسان من بلوغ هذا الطور والسبب الذي من أجله حدث ذلك.

هذه هي المسألة الأولى، أما المسألة الثانية فهي معرفة الأسباب التي أدت إلى عجز جماعات معينة عن اتخاذ هذه الخطوة حتى الآن.

ولا ينبغي لنا أن نتجاهل أمثال تلك الأقوام الجامعة للطعام عند دراسة أي نهج للتطور البشري، فهي بمثابة الأصول الدائمة لمسرحية الحضارة يرجع إليها عند تقدير الطريقة التي اتبعها الإنسان في اختراع الحرف والفنون وفي تطوير أنظمته المختلفة.

فإن فهمنا لعجز بعض الشعوب عن بلوغ الطعام لا يقل أهمية عن إدراكنا للأسباب التي مكنت جماعات أخرى من الوصول إلى تلك المرحلة لأن كلا من المشكلتين يعتبر مكملا للآخر.

ومن الطبيعي أن نتساءل على الفور عن العلاقة بين الأقوام التي تعيش الآن في مرحلة جمع الطعام وتلك التي عاشت في العصر السابق لمرحلة إنتاج الطعام وهل من الممكن أن تجد في ثقافة هؤلاء الأقوام المتأخرين ما يلقي ضوء على الأساليب الأولى في الترقي نحو الحضارة.

وليس بمستطاع أن نقوم بعمل هذه المقارنة إلا على أساس الفنون والحرف المادية إذ من الطبيعي أننا لا نعرف شيئا عن النواحي الأخرى

لحياة السكان الأوائل لأوروبا مثلا إلا بطريق الاستنتاج، فإذا حاولنا المقارنة بين جامعي الطعام الذين يعيشون على الأرض في عصرنا هذا وبين أولئك الذين اندثروا منذ أمد بعيد فلن نجد أمامنا إلا القليل من الشواهد إذ مما يدعو إلى العجب أن الفئة الوحيدة من جامعي الطعام الذين تركوا من المخلفات ما يمكنا من دراسة ارتقاء ثقافتهم هم أولئك الذين كانوا يعيشون حول البحر الأبيض المتوسط منذ آلاف السنين، أما جامعوا الطعام في الأنحاء الأخرى من العالم عدا الشاذ الذي سوف نعرض له بعد قليل فإنهم لم يخلفوا وراءهم أي أثر يدل على تاريخهم.

وطبيعي أننا نجهل مدى الزمن الذي عاشه جامعوا الطعام من السكان الحاليين لقارة آسيا والقارات الأخرى في موطنهم الحالي غير أن هناك من الأسباب القوية ما يبعث على الاعتقاد بأن هؤلاء الأقوام يمثلون أقدم من سكن هذه البلاد من الجنس البشري.

وإلى القارئ قائمة بأهم الشعوب الجامعة للطعام في القارات المختلفة:

أفريقيا

الأقزام (نجريتو) Negrito

البشمن Bushmen

الفيدا في سيلان Veddas

القبائل السابقة للدرافيديين Pre – Dravidian في جنوب الهند

السيمانج والساكاي في شبه جزيرة الملايو Semang and Sakai

الأندمانيون (سكان جزر الأندمان في المحيط الهندي)

الكوبو بسومطرة

الينان في بورنيو

قبيلة في جزيرة آرو

النجريتو في جزائر الفلبين

أمريكا

الأسكيمو

الدنبه في حوض ماكنزي Dene

البيوثك Beothuk في نيوفوندلاند (انقرضت)

البايوت في ولاية يوتا Paiute of Utah

قبائل في كاليفورنيا

قبائل جزيرة أرض النار Tierra del Fuego

الافيانوسية

الأستراليون الأصليون

الطسمانيون (انقرضوا)

وفي سيبيريا بعض القبائل كالساموىد والأستياك Samoyedes and Ostiak تعيش على رعي وعول الرنة وهي تشبه في ثقافتها القبائل سالفة الذكر إلى حد نستطيع معه أن نضمها إليها.

وبعض هذه الجماعات الإنسانية متخلفة من الناحية الجسمانية .. فالنجريتو في أفريقيا والسمانج في شبه جزيرة الملايو والأندمانيون والنيجريتو في الفلبين، كل هؤلاء من أقزام الجنس الزنجي ولا شك أنهم أقدم الأجناس البشرية في البلاد التي يعيشون فيها، أما الأستراليون فهم يمثلون سلالة أكثر بدائية من هؤلاء – وعلى هذا ففي وسعنا أن نقرر بحق أن هناك سلالة للإنسان العاقل Homo Sapiens سابقة لسائر السلالات وأكثر بدائية منها لا تزال تعيش على الأرض.

وإذا استثنينا جماعة أو جماعتين فليس هناك أثر لتقدم في الفنون أو الحرف بين الأقوام المذكورة، ومن الطبيعي أن هذه الجماعات قد تأثرت في بعض الحالات بمن جاورها من قبائل منتجة للطعام، غير أننا إذا تجاوزنا عن هذه المؤثرات المعروفة فإننا نصل إلى نتيجة واحدة تعززها الحقائق وهي أن هؤلاء الأقوام قد أصابهم ركود ثقافي خلال آلاف من السنين لا يمكن حصرها .. أما الارتقاء الثقافي بين تلك الجماعات التي تشتغل بجمع الطعام فإنه لم يحدث إلا في المناطق المجاورة للبحر المتوسط وهذه حقيقة هامة لأن كل الظواهر تدل على أن الحضارة بأسرها قد وصل إليها الإنسان في هذا

الإقليم كما سيتضح في الفصل التالي، ومن هذا يتركز الجدل حول نشأة الحضارة في بقعة معينة من الأرض، فإذا فكرنا في تطور الحضارة منذ نشأتها الأولى فعلينا أن نحصر تفكيرنا في إقليم واحد من الدنيا ولا داعي لأن نجوب الآفاق بحثا وراء الحقائق.

أما الشذوذ عن القاعدة بأن المشتغلين بجمع الطعام في وقتنا هذا لا تربطهم بالماضي صلة ثقافية فإنه ينحصر في جماعتين تفصل بينهما مسافات شاسعة وهما جماعة البشمن في أفريقيا والأسكيمو في شمال أمريكا وجرين لاند، ولقد قرر الأستاذ سولاس Prof. Sollas في مؤلفه Ancient Hunters and their modern Representatives

أن هناك عناصر مشتركة في الثقافة بين هذه القبائل وبين سكان أوروبا الأوائل – أما فيما عدا ذلك فلا يوجد من الآثار في الجهات النائية من العالم ما يدل على ارتقاء يماثل الارتقاء الذي أصابته الجماعات المشتغلة بالجمع في حوض البحر الأبيض المتوسط في أزمنة ما قبل التاريخ.

ومن الممكن أن ندرس وجوه النشاط لدى جامعي الطعام في أوروبا، إذا كانت لهم صناعة حجرية متقدمة وخاصة في حجر الصوان الذي كانوا يشكلون منه أدوات منوعة، وبدراسة الطبقات الجيولوجية المختلفة التي وجدت فيها هذه المخلفات الحجرية وعظام الحيوانات التي عثر عليها مع هذه الأدوات نستطيع أن نعرف الكثير عن أسلوب حياة هذا الإنسان القديم، ولقد كانت هذه الجماعات الإنسانية تعيش في أوروبا وخاصة في

فرنسا وإسبانيا والنمسا، وفي شمال أفريقيا ومصر وبلاد العرب وسوريا وفينيقيا، وفي بعض المراحل التاريخية امتدت صناعتهم إلى جنوب أفريقيا وآسيا.

ويمكن تقسيم هذا "العصر الحجري: إلى حقبتين تقابل كل حقبة منها نوع الإنسان الذي عاش فيها – ففي الحقبة الأولى التي يسميها الأستاذ اليوت سمث Elliot Smith حقبة الإنسان القديم Paloeaoanthropic لم يكن النوع الإنساني الحديث قد ظهر بعد وهذا النوع لم يعتل مسرح الحياة إلا في الحقبة التالية وهي التي يسميها الأستاذ "اليوت سمث" "حقبة الإنسان الحديث". Neoanthropic وهاتان الحقبتان يمكن التمييز بينهما بتسميتهما العصر الحجري القديم الأسفل والعصر الحجري القديم الأعلى. Lower and Upper Paleolithic لأن كلمة Paleolithic معناها "الحجري القديم" وقد حدث بين الآونة والأخرى أن اكتشف علماء الآثار وخاصة في فرنسا أماكن صنع فيها إنسان العصر الحجري القديم بعض الأدوات أو خلفها وراءه لسبب من الأسباب، ولقد أدى هذا الكشف في بعض الحالات إلى رفع النقاب عن نوع جديد من الصناعة الحجرية لم يسبق له وجود وجرت العادة أن يطلق على كل مرحلة من الثقافة تكتشف بهذه الطريقة اسم المكان الذي وجدت فيه لأول مرة نماذج مميزة لهذه الصناعة، وعلى هذا قسمت الحقبة السفلى أو السابقة من العصر الحجري القديم إلى أزمنة مختلفة هي ما قبل الشيلي والشيلي والأشيلي والموستيري. Prechellean Chellean,

Acheulean and Mousterian وكل هذه الأسماء فيما عدا الأول اشتق من الأماكن التي وجدت فيها النامذج الحجرية سالفة الذكر في فرنسا.

وبالمثل قسمت الحقبة العليا أو اللاحقة من العصر الحجري القديم إلى أزمنة مختلفة هي الأورينيشي والسوليوتيري والمجدليني "Aurignacian, Solutrean and Magdalenian" ثم جاءت بعد هذه الأزمنة مرحلة أخرى تسمى الأزيلي Azilian تعتبر مرحلة انتقال إلى طور جديد من الثقافة هو طور إنتاج الطعام، وفي شمال أوروبا تطورت هذه المرحلة الأخيرة إلى مرحلة الماجليموزي ثم التاردينويزي Maglemosian and Tardenoizia وربما كان أكثر صوابا أن نقول إن مرحلتي الأزيلي والماجليموزي تمثلان في جنوب أوروبا وشمالها مرحلة من الثقافة ليست بالأصيلة بل أخذت عن غيرها، وفي نهاية هذه المرحلة نجد أوروبا وقد سكنتها أقوام بلغت مرحلة إنتاج الطعام على الوجه الأكمل.

ولقد سبق لنا أن أوضحنا أن الارتقاء الكبير في ثقافة العصر الحجري القديم انحصر في جزء محدد نسبيا من سطح الكرة الأرضية كما أن المراحل المختلفة من الثقافة لم تشمل نفس المناطق من الأرض في كل حالة، فهناك أدوات من طراز المرحلة الشيلية والأشيلية – وهما مرحلتان متقدمتان من حقبة العصر الحجري القديم الأسفل – منتشرة في إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا وروسيا وألمانيا وكذلك في أفريقيا والهند، على حين أن حيز الانتشار يضيق في المرحلة الموستيرية فيقتصر أساسا على أوروبا وشمال

أفريقيا وغرب آسيا، ولست أعلم لهذه الأدوات وجودا في أي مكان من العالم فيما عدا سيبيريا – أما في الحقبة العليا من العصر الحجري القديم وهي التي يسميها اليوت سمث حقبة الإنسان الحديث Neoanthropic فإن الحيز الضيق يضيق بصورة أكبر إذ ينحصر ما اكتشف من مخلفات ثقافة هذا العصر في إقليم غرب أوروبا باستثناء الحالات التي تحدث عنها الأستاذ سولاس (البشمن في أفريقيا والأسكيمو في أمريكا الشمالية) وفي بعض بقاع أخرى كجنوب سيبيريا وغرب الصين اكتشفت بعض المواقع حديثا، وليس من المحتمل أن يكتشف الكثير من المواقع المماثلة في المستقبل.

ونذكر على سبيل المثال أن سكان الهند القدامى مع أنهم توصلوا إلى صنع أدوات من الأنماط القديمة فإنهم لم يفلحوا في صنع شيء من الأدوات التي ظهرت بعدها وإن كانوا قد صنعوا بعض أدوات ضئيلة الحجم من الصوان في أزمنة تالية.

وهناك مشكلة هامة فيما يختص بمرحلة الثقافة السوليوترية Solutrean Phase فهي تتميز بفن معين هو فن شطف الأحجار بطريق الضغط Pressure – Flaking وقد استمر هذا الفن في الأزمنة التي اشتغل فيها الإنسان بإنتاج الطعام وربما كان ذلك في مصر ثم انتقل منها إلى العالم الخارجي متسعا في مداه حتى أمريكا ولكن ليس هناك من الأدلة ما يثبت وجود مرحلة الثقافة السوليوترية الأصيلة في مصر.

ومصنوعات الإنسان في العصر الحجري القديم من الأمور الجديرة بالملاحظة وأول شيء من هذا أن أهم مادة استخدمت هي الصوان وفي بعض الحالات عندما كان يتعذر على الإنسان الحصول عليه كما حدث في الهند كان يستخدم أنواعا من حجر الكوارتز، ولا يزال اختيار الإنسان لهذا الحجر بالذات دون غيره من الأمور الغامضة – ومع أن هذا النوع من الأحجار له بعض المزايا الواضحة كقابليته للشطف إلى شرائح مسطحة تصلح جيدا للقطع إلا أنه ليس بالحجر الوحيد الذي يتمتع بهذه الميزة، فحجر الأبسيد Obsidian مثلا ويوجد بكثرة في بعض أنحاء العالم كان من الممكن استخدامه لنفس الأغراض ولكنه لم يستعمل بوجه عام إلا بعد أن سارت المدنية شوطا بعيدا، واختيار الصوان في الصناعة من الأمور الهامة إذا ما تذكرنا أن المرحلة التالية من الثقافة، وهي التي يطلق عليها اسم مرحلة العصر الحجري الجديد كثر فيها استخدام صخور نارية صلبة في صناعة الأدوات وذلك بنحت الحجر حتى يصبح له حد قاطع دقيق، والسؤال هنا هو عن السبب في أن الإنسان ظل آلاف السنين دون أن يفكر في استخدام هذا النوع الآخر من الأدوات – لا شك أن هذا يدل على افتقار الإنسان إلى القدرة الابتكارية وعلى أنه إذا ما توصل إلى صناعة معينة فإن هذه الصناعة تظل باقية حتى يحل محلها شيء جديد.

أما بدء صناعة الصوان في المرحلة الشيلية والسابقة لها فإنها كانت عبارة عن شطف أجزاء من كتلة معينة من هذا الحجر بحيث يبقى الجزء

الأبيض الأصلي من الحجر على شكل مقبض ويصبح طرف الكتلة الحجرية قاطعا وهي تشبه أداة تستعمل في الحياة اليومية كتلك التي يصنعها الآن عنود السري في كاليفورنيا Seri Indians بحيث تستخدم في عزق الجذور وقطه الحبال ولب الأشجار وما شابه ذلك، كذلك كانت تصنع بهذه الطريقة في بدء قيام هذه الصناعة أنواع بدائية من المخاريز والسنارات ولم يقدر لهذا النوع من الصناعة بقاء طويل إذ تطورت إلى صورة أخرى هي أن تشطف شرائح من الكتلة الأصلية بحيث تستخدم هذه الشرائح في أغراض شتى – وقد أدى هذا إلى قيام صناعات الشطفات، وفي المرحلة التالية اختفت إلى الأبد تلك الأدوات التي كانت تصنع في المرحلة الشيلية والسابقة لها ومنذ ذلك الوقت أصبح لصناعة الشطفات المقام الأول في الصناعة الحجرية فكانت الشرائح تفصل من الحجر الأصلي أولا ثم ترقق حتى تصير قاطعة تؤدي أغراضا كثيرة ومنها صنعت القواطع والفارات والمسننات والمخاريز والأسطوانات والمدى، ومن الواضح إن كل هذه الأدوات تستخدم في صناعات منزلية.

وكانت الصناعة في الفترة الأولى من العصر الحجري القديم تتركز حول حجر من نوع معين وخاصة الصوان إذ أن الإنسان في ذلك العهد لم يستعمل العظام أو القرون استعمالا منظما في أي غرض من الأغراض وكان عقله يدور في فلك محدد لأن كل مرحلة من مراحل ارتقائه كانت مجرد تطوير للمرحلة السابقة ونتيجة لاكتشاف صغير كذلك الذي حدث

عندما استعمل الشطفات نفسها بدلا من الكتلة المشطوفة.

ولقد عرف إنسان العصر الحجري القديم النار منذ أزمنة سحيقة جدا ولكنه لم يعش عيشة منظمة في الكهوف أو تحت المأوي الصخرية حتى الزمن الموستيري، أما قبل ذلك فمن الواضح أنه كان يهيم في العراء لأن بقاياه لم توجد إلا في مجاري الأنهار والأماكن المشابهة ويظن أن المغارات الجيرية التي سكنها إنسان الزمن الموستيري وما بعده لم تكن بعد قد تكونت أو أنها لم تكن بعد صالحة للسكن لأن الأنهار التي كونتها لم تكن قد جفت إلى القدر الكافي، أما في الزمن الموستيري وما تلاه من أزمنة فالثابت أن الإنسان كان يعيش في كهوف وتحت المأوى الصخرية كما قدمنا.

وعندما قدم إلى أوروبا إنسان الفترة الأخيرة من العصر الحجري القديم وهو من نفس الفصيلة البشرية التي ننتمي إليها فإنه اصطحب معه الثقافة الأورينياشية Aurignacian وهي تفوق بكثير ثقافة أجداده، فكانت صناعته الحجرية من الصوان وكان يستعمل الشطفات دون غيرها، ولهذا فهو من هذه الناحية قد استفاد من الاكتشافات التي توصل إليها أسلافه، ولكنه كان قد بدأ يستعمل العظام في شتى الأغراض ويعبر بالفن عن حياته في يسر عجيب، ولقد اكتشفت أخيرا أمثلة كثيرة لهذه التعبيرات الفنية على جدران الكهوف في فرنسا وإسبانيا، ولسنا ندري أين توصل الإنسان إلى هذا النوع من الثقافة ولكن المعروف أنها بلغت ذروتها في فرنسا وإسبانيا، وصناعة

الصوان التي مارسها هؤلاء الأقوام تنم على نواح عدة من نشاطهم إذ زهرت أنماط كثيرة جديدة من هذه الصناعة تصلح جميعها للحفر والنحت، ومن الواضح أن تفكير هؤلاء الناس كان مرتبطا بالفن الذي مارسوه على جدران كهوفهم وبالنحت والحفر والتصوير ولذا اخترعوا الأدوات الصوانية الكثيرة التي تمكنهم من التعبير عن أفكارهم على جدران الكهوف التي كانوا يعيشون فيها وسقوفها، أما العظام فقد كانوا يستعملونها في صنع المخاريز وأسنة الرماح والجوارف، كما صنعوا منها أداة يحتمل أنهم استخدموها في تقويم أيدي الرماح والسهام، هذا إذا كان لديهم شيء من هذا، أما فن شطف الصوان فقد فاق بكثير ما كان سائدا في الزمن الموستيري السابق فلم يقتصر عملهم على كسر شطفات صغيرة شبه دائرية بل تعدى ذلك إلى الشطف بطريق الضغط وهو فن من المستحيل علينا أن نحاكيه الآن مما يقوم شاهدا على براعة هذا الإنسان القديم.

ولقد ركزوا فنهم حول الحيوان البري الذي كانوا يصيدونه للحصول على قوتهم، فعلى جدران الكهوف التي كانوا يعيشون فيها وسقوفها، لا في مداخلها بل في زواياها العميقة المظلمة ترى صورا للجاموس والخنزير البري وخنزير الكهوف والغزلان وكلها نقشت أولا ثم لونت ويبدو من المحتمل أن هذا الفن كان يتعلق بمورد طعامهم وأن رسمهم للحيوان الذي كانوا يشتهون أكله كان يمكنهم بطريقة ما من صيده.

ولا بد أننا سوف نصل في وقت قريب إلى معرفة سبب كهذا يفسر

وجود هذه الصور في أعماق تلك الكهوف، وإلى جانب هذا فقد مارس هؤلاء الناس فن النحت، فصوروا الخنازير والحيوانات الأخرى التي كانوا يطاردونها .. ولم يقتصر فيهم هذا على الحيوان بل أنهم كذلك نحتوا تماثيل لإناث الإنسان مغالبين جد المغالاة في إبراز معالم الأمومة من الجسم – كذلك كانوا يدفنون موتاهم باحتفالات معينة .. فيضعون الجثة في وضع جاثم ويحيطونها بنوع من الطين الأحمر ويزينونها بعقود من الأصداف وبقطع من العظام والحصى وأسنان الحيوان ومخالبة، وقد اتبعت هذه العادة ابتداء من الزمن الأورينيشي.

ولقد استمرت مرحلة الثقافة الأورينيشية في أوروبا زمنا طويلا وتلتها في أماكن كثيرة مدنية قائمة على إنتاج الطعام غير أنه في بعض أجزاء أوروبا وخاصة في فرنسا ووسط أوروبا جاءت مرحلة من الثقافة تسمى السولترية تكاد تخلو من الفنون ولكنها تميزت بصناعة رائعة في عمل الأدوات الصوانية، فكانوا يشطفون طبقات من سطح الحجر بطريق الضغط للحصول على أشكال كاملة الانتظام، وبهذه الوسيلة صنعوا أدوات تشبه في شكلها أوراق الغار والصفصال، ثم تلت هذه المرحلة في بعض أجزاء أوروبا وخاصة في فرنسا المرحلة المجدلينية وهي قريبة الشبه بالمرحلة الأورينيشية ولكنها تختلف عنها في وجود الخطاطيف المصنوعة من العظام وقد ظهرت في منتصف هذا العصر تقريبا، ويدل وجودها على شدة اهتمام الإنسان بصيد السمك، أما صناعة الصوان فإنها لم تصل إلى المرتبة

التي بلغها إنسان المرحلة الأورينيشية والسولترية، إذ أن الشطفات التي كان يصنعها ما هي إلا أجزاء كسرت من الكتل الصوانية الأصلية دون تهذيب ولم يحاول كثيرا أن يعيد شطفها لتصبح ذات حد دقيق.

وتبين الخريطتان رقم (١)، (٢) على وجه التقريب توزيع إنسان العصر الحجري القديم في بريطانيا وأوروبا، وقد يظن أن موارد الطعام هي التي كانت تحدد توزيع السكان القدامى وكثافتهم كما تتحكم فيها، غير أن هذا الظن لا ينطبق تماما على الحقيقة، فهناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الجماعات الإنسانية القديمة كانت تشتغل بالصناعة إلى حد ما وأنهم كانوا يميلون إلى الإقامة في بقاع محدودة معينة ويتجاهلون بقاعا أخرى غنية بموارد الطعام.

وليس هناك ما يجعلنا نعتقد أن الإنسان البدائي كان يتزايد بقدر ما تسمح به مصادر طعامه بل من الواضح أنه كان يخضع في ذلك لعوامل أخرى، ومثل هذا أن قبائل أقزام الشمس Bushmen القاطنين في الجزء الجنوبي من أفريقيا والذين جاءوا من الشمال الشرقي كانوا دائما قليلي العدد، مع أنه كان في مقدورهم دائما إذا لم يشغلهم شاغل أن يصيدوا الوفير من الحيوان، أما في أوروبا وآسيا فإن بقايا إنسان العصر الحجري القديم لم توجد مبعثرة هنا وهناك في طول البلاد وعرضها بل انحصرت في أماكن قليلة على نهر السوم في سان أشول St. Achenl وفد عليها إنسان العصر الحجري واتضح أن المكان الذي سكنته هذه الأجناس

البشرية المتعاقبة كان زاخرا بصناعة الصوان، ولا شك أن هذا هو السبب في هجرة الإنسان إليه بصفة مستمرة.

ومن خصائص العصر الحجري القديم أن المكان الواحد كان يتعاقب فيه سلالة من الناس وأن أمثال هذه البقاع كانت على الدوام مصادر للصوان وأنواع حجر الكوارتز أو أماكن تكثر فيها الكهوف الجيرية بنوع خاص وهي التي تصلح لسكن الإنسان، ويتضح من الخريطة رقم (١) أن الأماكن الواقعة حول براندن Brandon في إقليم صفوك Suffolk وحول دنستايل Dunstable وفي أجزاء أخرى من المنطقة الطباشيرية حيث يوجد حجر الصوان كانت آهلة بالسكان في تلك الأيام، كما يتضح من الخريطة رقم (٢) أن أجزاء معينة من فرنسا وإسبانيا كأدوية أنهار السوم والمارن والسين والدور دون وأماكن معينة أخرى في جبال البرانس Pyrenees وفي شمال إسبانيا كانت كلها من الأماكن المفضلة لدى الإنسان، ولهذا تحتوي كهوف "مادازيل" Masd' Azil في مقاطعة أريج Arriege على آثار تدل على تعاقب استيطان الإنسان فيها.

وخلاصة القول إن إنسان العصر الحجري القديم في أوروبا كان قد درج نحو الصناعة وكان لهذا الوضع أثره في اختياره للبقاع التي يسكنها، ومن الطبيعي أنه في مقدور أي إنسان أن يقول أننا ربما نعثر في المستقبل على أدوات كثيرة من مخلفات هذا العصر في مناطق بعيدة عن مصادر الصوان والكوارتز، غير أن الحقيقة الماثلة دائما هي أن شيئا من هذا لم

يحدث حتى الآن لا في أوروبا ولا في غيرها من الجهات – وحتى إذا حدث هذا فمن المحتمل أن تكون الأدوات الصوانية مثلا قد نقلت من منطقة الصوان إلى منطقة أخرى، كما حدث في إنجلترا حيث وجدت أدوات صوانية من الزمن الموستيري في منطقة من إقليم يوركشير يكثر بها حجر من نوع الكوارتز يسمى Chert ووجدت مع هذه الأدوات الصوانية أدوات أخرى مصنوعة من هذا الحجر الأخير.

وجدير بالذكر أن جامعي الطعام في أجزاء أخرى من الأرض كأولئك الذين يعيشون الآن في سيلان وشبه جزيرة الملايو وبورنيو لا يبدون ارتباطا بأية بقعة معينة شأنهم في ذلك شأن قبائل البشمن التي سبق ذكرها إلا في حدود تمسك كل جماعة من أسرة معينة بالأماكن التي تصيد فيها وعدم تعديهم على الأماكن التي يصيد فيها غيرهم، وهم يرتحلون هنا وهناك بمحض اختيارهم بحثا وراء الطعام – غير أن الأمر يختلف عن ذلك في المناطق التي كان الإنسان يقوم فيها بصنع أدواته ومعداته وأغلب الظن أن القاعدة العامة التي كان يتبعها في هذه الحالة هي أن يستقر في موطنه استقرار نسبيا، ففي إنجلترا مثلا توجد الأدوات الحجرية في أماكن تكثر فيها الحفر الطباشيرية التي يمكن الحصول فيها على الصوان كمنطقة براندن في إقليم صفوك Suffolk وفي دنستابل وفي سهل سالسبري وفي الطبقات الصلصالية من إقليم لندن وهكذا .. ولا وجود لمثل هذه الأدوات في التكوينات الجرانيتية أو في مناطق الحجر الرملي الأحمر القديم، ويقال أيضا

أن مواطن إنسان العصر الحجري القديم في فلسطين وفينيقيا كانت توجد دائما إلى جوار الأماكن التي كان يصنع فيها أدواته من الصوان كما لم توجد أدوات في أماكن أخرى، والمعروف أيضا أن مصر وهي من البلاد الهامة في العصر الحجري غنية بحجر الصوان، وفي الهند أيضا كما يقرر المرحوم مستر بروس فوت Bruce Foote لا توجد الأدوات التي خلفها هذا العصر إلا في تلك التكوينات الجيولوجية حيث يكثر الكوارتز والأحجار الأخرى التي كان يستعملها الإنسان في صنع معداته.

ويبدو من كل ذلك أن الحياة الاجتماعية في العصر الحجري القديم كانت تنتقل وراء مصادر المواد الخام، ولهذا فإن مشكلة تحديد الطريق الذي سلكته ثقافة هذا العصر في ارتقائها أصبحت في طبيعتها مشكلة محدودة نسبيا إذ أننا نستطيع إلى حد ما أن نحصل على ما نريد من معلومات وما علينا في هذا الصدد إلا أن نتتبع البقاع التي كان إنسان هذا العصر يحصل منها على المواد الخام اللازمة له.

وهناك علامات تدل على وجود اتصال ما بين شعوب ذلك العصر، ففي بعض المدافن التي عثر عليها في فرنسا وجدت أصداف لا بد أنها جلبت من أماكن بعيدة ومن المحتمل في بعض الحالات أنها جاءت من مكان آخر في نفس البلاد .. غير أن هناك حالة أكثر غرابة .. ففي كهف إلى جوار مدينة منثون Mentone وجدت أدوات مصنوعة ذات طابع تتميز به المرحلة الموستيرية من الثقافة ومعها أصداف مما يسمى كاسي روفا

Cassis Rufa ولا بد أنها جاءت من المحيط الهندي .. ووجود هذه الأصداف يعتبر شاهدا قويا على وجود ارتباط من نوع ما في تلك الأيام الغابرة بين أجزاء متباعدة من الأرض، ولقد بين اليوت سمث في كتابه "تطور التنين" "The Evolution of the Dragon" السبب في أن الأصداف كانت لها قيمتها الكبرى في تلك العصور الغابرة وأغلب الظن أن إنسان ذلك العصر كان يعتقد أنها تبعث فيه الحياة .. ويروقنا أن نفكر في رجال هذه العصور الغابرة، حاملين الأصداف مثل هذه المسافة الشاسعة، ولهذا فمن المؤكد أن الإنسان كان يعلق عليها من الأهمية الكبرى ما جعله يتجشم تلك الصعاب في سبيل الحصول عليها.

كذلك ترتبط فرنسا بالشرق من ناحية أخرى، فقارة أوروبا كانت على ما يبدو المسرح الرئيسي للحوادث في تلك المرحلة من الثقافة التي نطلق عليها اسم العصر الحجري القديم وكانت فرنسا وإسبانيا البلدين الرئيسيين في هذه القارة مع احتمال أن تزهر اكتشافات مستقبلة امتداد أكثر لصناعة هذا العصر، وهناك بلد وحيد آخر شهد أعظم نشاط في تلك الأزمنة وبذلك ينال من الشرف مثلما تنال فرنسا، ذلك البلد هو مصر .. فمن الزمن الشيلي إلى الزمن المجدليني كانت الصناعات في كل من فرنسا ومصر تسير في خطوط متوازية ويمكن أن تشمل هذه المقارنة مرحلة الثقافة السولترية أيضا، وقد شوهد ذلك في بلدة حفصة من أعمال تونس، ومن المرجح أن الحالة نفسها كانت قائمة في مصر، وذلك لأن المصريين

كان لهم ما كان لسكان أوروبا في المرحلة السولتيرية، ويوجد هذا الفن في بلدة البداري وهي في عرف الأستاذ بتري Petrie أقدم مدينة مصرية، ومع أن هناك اختلافا بين الحضارتين من حيث الإنتاج إذ قامت في مصر صناعة رءوس السهام، بينما لم يحدث هذا في أوروبا إلا أن الخطوط العامة للحضارتين السولتيرية في أوروبا والبداري في مصر متشابهة – وبالمثل توجد علاقات شائقة بين الثقافة المصرية وثقافة فرنسا في المرحلة المجدلنية .. فهنام ظاهرة مشتركة بين الثقافتين هي استعمال الخطاطيف العظيمة، ومع أن استعمال هذه الأداة يعتبر أمرا طبيعيا في مجتمع يعيش على ضفاف النيل إلا أنه لا يبدو كذلك في فرنسا وعلى جبال البرانس، واقتران هذه الحقائق باستعمال الكاسي روفا Cassis Rufa في فرنسا من أصداف جيء بها من المحيط الهندي هو من الأمور التي تستلزم تفكيرا جديا عندما ندرس مشكلة تطور الصناعة في العصر الحجري القديم.

وبما أنه لم يكتشف في أي بلد من بلاد العالم على قدر ما نعلم في الوقت الحاضر صناعة صوانيه تماثل في رقيها تلك التي قامت في مصر وفرنسا وإسبانيا، فلا بد أن واحدة من هذه البقاع أو هذه البقاع كلها هي التي كانت مسرحا للصناعات المختلفة التي ابتكرها الإنسان في العصر الحجري القديم، وليس أمامنا عدا ذلك إلا آسيا الصغرى وشمال أفريقيا وبلاد العرب حيث يحتمل أن تكتشف مصادر أخرى لتطور صناعي مماثل، وليس هناك من الحقائق ما يشير إلى أن بلدا من هذه البلاد يمكن أن نجد

فيه قدرا من الأدوات والمعدات كذلك القدر الذي وجد في مصر، وبما أنه من الأمور المعقولة أن مصر كانت وطنا للإنسان على مر الزمان، فمن الجائز أن الاختراعات المتنوعة اهتدى إليها الإنسان في تلك البلاد ثم نقلت إلى أوروبا ومعها أصداف البحر الأحمر التي وجدت في بلدة منتون في فرنسا، وهذا يفسر على الفور التدفق المتوالي للثقافات الأورينيشية والمجدلينية وغيرها من الثقافات وخاصة الخطاطيف المصنوعة من العظام في العصر المجدليني، غير أن كل هذا لا يعدو أن يكون مجرد افتراض في الوقت الحاضر.

الفصل الثالث

أصل الحضارة

من الثابت أنه عندما كانت الصناعة الحجرية في طور ارتقائها العظيم في قارة أوروبا كانت الشعوب الأخرى في أنحاء العالم تعيش كما تعيش الأن جماعات الفيدا Veddas في سيلان والبيونان Punan في بورنيو فيما عدا ما اكتسبته هذه الجماعات نتيجة احتكاكها بشعوب أكثر رقيا، ولم تكن تلك الشعوب قد أصابت أي تقدم نحو أصول الحضارة إذ لم تكن لديهم قدرات ابتكارية كأولئك الذين أنتجوا ثقافات العصر الحجري القديم في أوروبا كما أنهم كانوا بمنأى عن مركز الرقي في الصناعة الحجرية ولذا لم يكن في مقدورهم أن يستفيدوا من الاختراعات المتتالية التي وصل إليها الإنسان هناك، فليس من المعقول والحالة هذه أن نتجه بأبصارنا إلى أستراليا أو أمريكا أو إندونيسيا أو ما شابهها من الأماكن ببحث عن علامات تدل على بدء قيام حضارة إنتاج الطعام.

والحق أنه ليس هناك من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن سكان تلك المناطق المتطرفة كان في مقدورهم دون مؤثر خارجي أن يكتشفوا الزراعة أو تربية الحيوان.

والمعروف عن الشعوب المتأخرة الثقافة أنهم محافظون على القديم ولا يدبرون للمستقبل شيئا، فإذا أتيحت لهم بسطة في العيش أسرفوا إلى حد التخمة، وإذا نضب معينهم هلكوا جوعا، وأكثر من هذا أن القبائل

الجامعة للطعام كما نشاهدها الآن في بورنيو تتعلم الزراعة من القبائل المنتجة للطعام وهناك أسباب وفيرة تدعو إلى الاعتقاد أن الأمر سار على هذا المنوال في العالم أجمع، كما أنه في مقدورنا أن نثبت أن أقدم أنواع الزراعة كان قائما على الري وأن الزراعة الجافة ظهرت بعد ذلك.

وإذا أردنا أن نبحث عن الجهة التي بدأ فيها إنتاج الطعام، فيجب أن نذكر أن شواطئ البحر الأبيض المتوسط كانت هي مسرح الارتقاء الأساسي للثقافة في العصر الحجري القديم وأن أعظم الحضارات القديمة وأسبقها نشأت في تلك المنطقة، ويجب ألا ننسى أيضا أنه ليس هناك ما يدل على أن مرحلة إنتاج الطعام في أمريكا ترجع إلى زمن أسبق بكثير من بدء عصرنا هذا كما أن مدنية الصين والهند يحتمل أن تكون أحدث بكثير من مدنيات الشرق القديم .. وواقع الأمر أن شرق البحر الأبيض هو البقعة الوحيدة التي لها تاريخ يسبق ألفي سنة قبل الميلاد ونستطيع أن نتحدث عنه في ثقة، ورب قائل يقول أن الأبحاث المقبلة قد تظهر أن إنتاج الطعام بدأ في بعض الجهات المتطرفة من العالم في زمن أسبق من ذلك الذي نتحدث عنه، غير أننا لا نستطيع أن نقيم وزنا كبيرا لهذا النوع من المحاجة السلبية، وخاصة منذ بداية هذا القرن .. فإننا الآن قد ذرعنا الأرض جيدا وأصبحت المواطن الممكنة للحضارات القديمة معروفة لدينا في شيء كبير من الثقة ..

ولهذا فإن التذرع بالجهل في الوقت الحاضر قد أصبح حجة تافهة

القيمة، إذ لدينا الآن من الحقائق الوفيرة ما يصلح أساسا قويا للبناء كما أننا قد وصلنا إلى نتيجة لا تزيدها الأيام إلا قوة ورسوخا – وهي أن الشرق القديم – ويضم مصر وكريت وبابل وعيلام وسوريا – هو مهد المدنية.

والمعروف أن أقدم الشعوب المنتجة للطعام كانت شعوب مصر وأرخبيل ايجه وكريت وسومر وعيلام وسوريا وأسيا الصغرى والهند والصين وتركستان وبلوخستان ووادي الدانوب والبلقان واليونان وإيطاليا والإقليم الأوسط لوادي دجلة والفرات، وفي هذه المنطقة مجتمعات إنسانية متفرقة، ولكنها تتشابه في ثقافتها إلى حد أنها إذا أخذت كمجموعة شكلت وحدة متميزة من الثقافة هي أقدم حضارة عرفها العالم، فقد اشتغلوا جميعا بالزراعة وفي بعض الأحيان كانوا يستأنسون الحيوان وكانوا جميعا يصنعون المناجل من الصوان كما أنهم كانوا أصحاب حرف كثيرة كصناعة الأواني الفخارية والغزل والنسج، والعجيب أن طريقتهم في زخرفة الأواني كانت متشابهة وذات طابع خاص، وفي بعض الحالات كانوا يصنعون أدوات من النحاس ذات أشكال متماثلة كما أن منازلهم كانت من اللبن – كذلك صنعوا أدوات من الصوان أو من الأحجار الصلبة – وفي هذه الحالة الأخيرة كانوا لا يقتصرون على أخذ شطف من الحجر بل كانوا ينحتون الحجر نفسه وكثيرا ما كانوا يعملون آنية الزينة من الأحجار الصلبة.

وقد كانت هذه المدنية القديمة تشمل مساحة متصلة ولا تمر سنة إلا

ونكتشف مواقع جديدة كل واحد منها يحمل طابع المواقع السابقة في جوهره فليس من المنتظر والحالة هذه أن نجد في هذه المنطقة شيئا يشذ كثيرا عن القاعدة ومثال ذلك أن بعثة بمبلي The Pumpllie Expedition اكتشفت في أناو Anau بتركستان إلى جوار مدينة أسكاباد على الخط الحديدي إلى مدينة مرو Merv بعض تلال دل الحفر فيها على أنها مواطن قديمة للإنسان، ولقد وجد في الطبقة السفلى من هذه التلال مصنوعات لونتها يد الإنسان وعليها رسوم هندسية تشبه ما وجد في سومر وعيلام وغيرها من الأماكن، كما وجد قمح وشعير ومنازل مستطيلة من الأجر المجفف في الشمس وكذلك أدوات من الصوان استعملت في صنعها طريقة الشطف بالضغط ورؤوس عصى من الحجر ومخاريز من العظم وحبات من الزبرجد ورحى لطحن الحبوب ورصاص ونحاس ومغازل حلزونية.

وليس في هذه البقعة آثار محلية تدل على تطور سابق الصناعة أدى إلى هذه النتائج بل إن كل الشواهد تشير إلى أن هذا المكان أقام فيه مهاجرون لسبب من الأسباب، ومن الواضح أن تلك الجماعات كانت من الذين يروون الأرض إذ وجدت إلى جوار مساكنهم قنوات ري قديمة يغلب على الظن أنهم قاموا بحفرها ومن الأكيد أن الجماعات التي جاءت في أعقابهم مباشرة كانوا في ثقافتهم مماثلين لهم تقريبا واستعملوا هذه القنوات نفسها، ويبدو أن هذا المواطن النئى كان مقاما لأناس قدموا من الغرب أو

من الجنوب إذ أن رءوسهم كانت مستطيلة مخالفة في ذلك رءوس السكان المحليين العريضة وتشبه تمام الشبه رءوس جنس البحر المتوسط حسب تقسيم الأستاذ سرجي، وهناك مثل آخر نأخذه من الموطن الأول الذي اكتشف في سوسا عاصمة عيلام أولا ثم عاصمة فارس في الأزمنة التالية – وهو الموقع الذي كشفه م. دي مورجان M. de Morgan وزملاؤه، ففي أقدم طبقات هذا الموقع وجدت مناجل صوانيه هي صورة مطابقة لتلك الأشكال الخاصة المميزة التي صنعت في مصر في العصر السابق للأسرات (Pre – dynastic) كما وجدت أساسات لمنازل من الطوب اللبن المجفف في الشمس وأدوات حجرية مصقولة وآنية فخارية ملونة من صنع يد الإنسان عليها رسوم شبيهة بالرسوم الظاهرة على الأواني الفخارية الملونة التي وجدت في مصر في العصر السابق للأسرات، كذلك عثر على أدوات صوانيه صنعت بطريقة الشطف بالضغط ومعدات من النحاس كلها مماثلة تماما لما كان لدى المصريين في عصر ما قبل الأسرات، كما أن أساليبهم في الدفن لم تختلف عن الأساليب المصرية في ذلك العهد.

كل هذه الأشياء ظهرت فجأة في تلك المنطقة دون أن يسبقها تطور يؤدي إليها، وشعب عيلام هذا كان يزاول الري شأنه في ذلك شأن سكان آناو الذين سبق ذكرهم، ودليل ذلك أنهم حفروا قنوات للري إلى جوار مساكنهم.

وسواء فحصنا المواطن القديمة للإنسان في سوسا أو آناو أو سومر

أو الصين أو الهند فإن النتيجة واحدة في كل الحالات فهي جميعا تتشابه في أسس ثقافتها وكلها تشبه بالتبعية الثقافة المصرية في الجزء الأخير من عصر ما قبل الأسرات، والجزء الأول من عصور الأسرات.

وهناك حقيقة أخرى يجدر ذكرها وهي أن هذه المواطن القديمة تحمل في ثقافتها آثارا واضحة تبين اتصالها بمثيلاتها في العصر الحجري القديم، فإن أقدم الشعوب المنتجة للطعام في الشرق القديم كانوا يصنعون أدوات حجرية مستعملين في ذلك الفن الصناعي الذي توفر لأجدادهم من جامعي الطعام.

فقد كانوا يعدون قطعا من الصوان يحصلون منها على شفرات يصنعون منها أحيانا منوعة من الأدوات وكثيرا ما كانوا يستعملون الشطف بطريقة الضغط، وثمة حلقة اتصال أخرى تربط المجتمعات الأولى المنتجة للطعام بأسلافهم من شعوب العصر الحجري القديم ألا وهي وجود تماثيل الأم الكبرى The Great Mother في كل مكان شمله هذا النوع من المدنية، ففي كل أنحاء الرقعة من الأرض الموضحة في الخريطة رقم (٣) وجدت هذه التماثيل التي تظهر في وضوح مدى ارتباطها بمثيلاتها في العصر الحجري القديم، فإذا تذكرنا أن هذه الصور لم يعثر عليها في كل مكان من العالم بل اختصت بها هذه المنطقة بصفة مستمرة فإن هذا يعد دليلا نهائيا على أن المدنية الأولى التي قامت على إنتاج الطعام تعتبر استمرار لمدنية العصر الحجري القديم.

ولقد سبق أن ذكرنا أننا لم نستدل في سومر وعيلام وغيرهما من

الأماكن على وجود مدنية سبقت أقدم المدنيات التي كشفت فيها بل الواضح أن تلك المدنيات ظهرت فجأة وافدة من أماكن أخرى.

وبما أن هناك من العلائم البينة ما يدل على وجود اتصال بين مدنية العصر الحجري القديم وما جاء بعدها من مدنيات، فإننا إذا أردنا البحث عن البقعة التي بدأت فيها مرحلة الثقافة القائمة على إنتاج الطعام فلا بد أن يتوافر في تلك البقعة دليل على أنها كانت قبل ذلك موطنا لقوم في مرحلة من الثقافة أسبق من هذه المرحلة.

ولمقياس الاستمرار قيمة عظمى في دراسة تطور الثقافة وانتشارها فخلال العصر الحجري القديم كله، كان لكل زمن من أزمنته أشياء انحدرت إليه من زمن سابق وهو بدوره أورث الزمن الذي تلاه أشياء أخرى، وهناك آثار تدل على وجود هذا الاستمرار بين العصر الحجري القديم والمدنية الأولى التي قامت على إنتاج الطعام، ولهذا ففي مقدورنا أن نعتبر أن أول مدنية من هذا النوع بدأت بإضافة عنصر من عناصر الثقافة إلى ما كان متوفرا لدى سكان العصر الحجري القديم، وبما أن هؤلاء الأقوام كانت تعيش في العصر الحجري القديم فلا بد أنها كانت تقطن بقاعا يتوافر فيها حجر الصوان.

وكثيرا ما يقال أن المدنية الأولى لسومر وعيلام لا بد أنها وفدت من وسط أسيا، واحتمال الصواب في هذا ضئيل جدا إذ ليس في هذه المنطقة على قدر ما أعلم أي دليل يبين أنها كانت مرحلة انتقال بين جمع الطعام

وإنتاج الطعام. والأقرب إلى الصواب أن تتجه أبصارنا إلى رقعة أخرى تقع داخل منطقة النشاط الأعظم خلال العصر الحجري القديم وهي منطقة البحر الأبيض، فهناك نستطيع الحصول على شواهد لهذا الانتقال.

ولما كانت المجتمعات الأولى التي اشتغلت بإنتاج الطعام قد مارست الري فلا بد أن يكون البلد الذي بدأ فيه هذا الإنتاج بلدا نستطيع أن نجد فيه تفسيرا طبيعيا لمنشأ هذه الحرفة.

وليس هناك أمل في أن نحاول إيجاد سبب يبرر اتخاذ سكان وسط آسيا لهذه الخطوة أكثر من سكان أي منطقة مماثلة، وأهم من هذا أنه لا يوجد أي دليل يشير إلى أنهم فعلوا ذلك بالمرة، وبينما نفتقر كل الافتقار إلى معلومات تعزز ما يذهب إليه البعض من أن مدنية سومر قد اشتقت من وسط أسيا، فإن كل ما أمكن الحصول عليه من معلومات يدل على أن مصر هي مهبط الوحي.

فمصر هي البلد الذي تتوافر فيه كل الشروط .. لأن المصريين في عصر ما قبل الأسرات كان لهم باع في صناعة الشطف بالضغط وهي الصناعة التي يمتاز بها الزمن السوليتري وقد برزوا بقية العالم في هذا المضمار، كما توفرت لديهم الصناعة المجدلنية فصنعوا الخطاطيف والشطفات الصوانيه من الطراز المجدليني وتماثيل للأم الكبرى واشتغلوا بالعاج شأنهم في ذلك شأن أقوام العصر الحجري القديم كما أن في بلادهم كميات عظيمة من الصوان.

وإلى جانب ذلك فمصر تفوق أي مكان آخر في العالم يحتمل أن

يكون الإنسان قد اكتشف الري فيه لأن نهر النيل كان يلقن الناس هذا الدرس على ضفتيه عاما بعد عام حتى فطن أحدهم إليه فوعاه واستخدمه في الوصول إلى مأربه.

ويرجع الفضل في اكتشاف أهمية نهر النيل بالنسبة لتاريخ الزراعة إلى الأستاذ تشري Prof. Cherry الذي أعلن نتائج أبحاثه أمام جمعية مانشستر للأدب والفلسفة في سنة ١٩٢١ .. والأستاذ تشري الذي كان قبل ذلك أستاذا لعلم الزراعة في جامعة ملبورن أقام في فلسطين ومصر خلال الحرب العالمية الأولى، وقي مكنه هذا من أن يوجه نظره نحو مشكلات المدينة المصرية، وفي أثناء إقامته هذه توصل إلى ذلك الاكتشاف العظيم الذي وضع دراسة نشأة المدنية على أساس ثابت بصفة نهائية – ولقد تبين هذا الرجل أن لفيضان النيل من هذه الناحية أهمية أساسية نظرا لأنه يحدث بطريقة منظمة سنة وراء سنة، فيعلو في منتصف شهر يوليه تقريبا ويبلغ ذروته تدريجيا حوالي منتصف شهر سبتمبر ثم ينخفض بعد ذلك حتى يعود إلى مستواه العادي في شهر نوفمبر – ومن دراسة عادات الجماعات المشتغلة بالجمع في أجزاء أخرى من العالم نستطيع الحزم بأن المصريين القدماء كانوا يجمعون حب الشعير والدخن الذي كان ينمو كل سنة في الطمي الذي خلفه الفيضان، كما أنهم كانوا على اتصال دائم بالنهر يصيدون منه الأسماك بدليل وجود الخطاطيف الخاصة بالزمن المجدليني .. وليست مصر بالبلد المطير أو أن المطر هناك من القلة بحيث

لا يؤثر في عادات القوم وعلى ذلك فلا بد أن المصريين القدماء كانوا يعتمدون على النيل في زراعة أي نبات غذائي لديهم، والصيف في مصر حار جاف فإذا ما جاء الفيضان في نهاية هذا الفصل فإن حبوب الشعير والدخن التي تخلت عنها الطيور كانت تغور في طمي النهر حتى ينخفض الفيضان في الخريف فتنبت وتنمو سريعا في شتاء مصر الدافئ، ثم ينضج المحصول في نهاية الشتاء وتقع البذور على الرمال الجافة الساخنة وتبقى كذلك طوال الصيف لا ينتابها عفن أو فساد كما يحدث في البلاد المطيرة – فإذا ما عاد الفيضان سيرته الأولى في نهاية الصيف احتضنت المياه الحب فدبت فيه الحياة وازدهر محصول جديد – وعلى هذا المنوال كان نهر النيل الرقيق في دورة مكتملة النظام ينبت الدخن والشعير لسكان الوادي سنة وراء سنة، ولم يكن الأمر في حاجة إلى أكثر من عقل مبتكر يفكر في طريقة هينة تمكن المياه من أن تغمر رقعة أوسع من الأرض الزراعية كمية أكبر من الغذاء، ألا وهي حفر القنوات – ومتى بدأت سيطرة الإنسان على المياه زال كل عائق في سبيل إنشاء نظام كامل كذلك الذي وجد في مصر.

وإذا نحن نظرنا إلى أحواض أنهار أخرى يحتمل أن تكون مسرحا لحدث من هذا القبيل فسوف لا نجد ظروفا مماثلة في أي مكان آخر – هذا ما يقرره الأستاذ تشري .. فإن انفراد فيضان النيل بالمميزات السابق وصفها يرجع إلى أن النهر ينبع من أماكن بعيدة جدا بحيث يستغرق

الفيضان شهورا حتى يبلغ المصب، أما في حالة نهر الدجلة والفرات فإن الفيضان يجيء في بداية فصل الصيف وعندما ينحسر في منتصفه فإن النبت الصغير لا يكاد ينمو حتى تلفحه حرارة الشمس فيموت، ويتضح من هذا أن أول من اشتغل بري الأرض في وادي هذا النهر لا بد أنه كان على معرفة سابقة بما يريد – ومثل هذه المعرفة القائمة على الخبرة والتجارب لا يمكن أن يكون الإنسان قد حصل عليها في بلاد النهرين – ويتفق هذا مع حقيقة أخرى وهي أنه لا أثر لإنسان العصر الحجري القديم في تلك الأنحاء من العراق التي اكتشفت فيها المدنية لأن الإقليم حديث من الناحية الجيولوجية كما أنه خلو من حجر الصوان، ولذا فليس من المحتمل أن يكون قد حدث فيه انتقال من مرحلة جمع الطعام إلى مرحلة إنتاج الطعام، وأكثر من هذا أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن أول المجتمعات المتحضرة في العراق أسسها قوم وفدوا من مكان آخر إذا لم يعثر في هذه المنطقة على أثر لتطور الثقافة كما هي الحال في مصر ولهذا الأمر أهمية لأن المدنية ظهرت في وادي الدجلة في وقت ظهورها في مصر على وجه التقريب.

وليس من المحتمل أيضا أن يكون حوض نهر الكنج أو الهوانجو هو المكان الذي ابتدع فيه الإنسان حرفة الري إذ ليس هناك أي دليل على قيام مدنية في هذين المكانين يزيد عمرها كثيرا على ألفي سنة قبل الميلاد، بينما المدنية في مصر وسومر يرجع تاريخها إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة

قبل الميلاد، وعلى ذلك فإن كل الشواهد تشير إلى أن مصر هي البقعة التي تحول فيها الإنسان من جمع الطعام إلى إنتاجه، ومن اليسير أن ندلل على أن المصريين هم أول من اتخذ هذه الخطوة وبذلك أرسوا دعائم المدنية، وليس هذا فحسب، بل أنه لا يقل عن ذلك احتمالا أنهم ابتكروا الكثير من الفنون والحرف الأساسية أو على الأقل كانوا أول شعب عرفناه مارس تلك الفنون والحرف.

يقول الأستاذ اليوت سمث في الطبعة الثانية من كتابه "المصريون القدماء": "لقد فعل المصريون أكثر بكثير من مجرد ابتكار الزراعة وابتدع أقدم الديانات وفنون الحكم، فلم يقتصر عملهم على التفنن في الصناعات الخشبية والحجرية وفن البناء، بل يبدو أيضا أنهم عرفوا الكتان وحرفة النسج واستعملوا الذهب والنحاس وصنعوا أدوات ومعدات معدنية. وكانوا أول من حسب السنة الزمنية وابتكروا التقويم، ثم استبدلوا بالحساب التقريبي الذي يقوم على تاريخ الفيضان السنوي قياسا دقيقا يقوم على ملاحظة حركات الشمس. كذلك اخترعوا فن بناء السفن وشيدوا أول مراكب تجوب البحار – وتتجلى أصالة تلك المدنية المصرية في آلاف التفاصيل التي تتكون منها مدنيتنا نحن، فهناك فن الحلاقة واستعمال الشعر المستعار وارتداء القبعات والأخفاف وأنواع أخرى من الملبس، وهناك إلى جانب ذلك الكثير من الأدوات الموسيقية والمقاعد والأسرة والوسائد والمجوهرات والعلب التي توضع فيها مصابيح الإضاءة، كل هذا

قل من كثر من ذلك الميراث القديم الذي انحدر إلينا من وادي النيل.

ويبدو أن هناك مبدأ عاما يمكن وضعه عند تناول نشأة أي اختراع عظيم، ذلك أنه لم يحدث أن خطا إنسان في وقت واحد أكثر من خطوة صغيرة واحدة إلى الأمام في طريق المعرفة – وكل اكتشاف أو اختراع هام كان ثمرة عمل الكثيرين وأكثر هؤلاء فضلا هو ذلك الذي أضاف الحلقة الأخير في سلسلة العمل، ولقد أصبح هذا المبدأ من نافلة القول في الأزمنة الحديثة وما علينا إلا أن نفكر في اختراع الهاتف والبرق لكي نقتنع بصدقه.

ونحن في بحثنا عن نشأة أي فن أو حرفة يجب أن نحصر انتباهنا في الشئون المنزلية وفي الظروف التي كانت قائمة في المجتمع الذي نظن أنه كان موطن هذا الفن أو تلك الحرفة – ويظهر هذا جيدا في حالة اكتشاف استعمال النحاس.

فالمعروف أن المصريين في عصر ما قبل الأسرات كانوا يدهنون وجوههم بمسحوق أخضر اللون يحصلون عليه من تفتيت خام النحاس الأخضر وصحنه.

وفي هذا الصدد يقول مستر دونالد ماكنزي Mr. Donald Mackenzie أنهم كانوا يعتبرون اللون الأخضر لونا يبعث الحياة، فإذا ما دهنوا الخدود به كان ذلك لهم نوعا من الوقاية – والسبب في أنهم كانوا يرون في اللون الأخضر بعثا للحياة أنه بون مياه الفيضان عند بدء مجيئها في شهر يوليه حين تكون محملة بالمواد النباتية القادمة مع النهر من

السودان، وكانوا يعتقدون أن المياه الخضراء هي التي تكسب النبات لونه الأخضر وما كانوا يعلمون أن العكس هو الصحيح ... ولذا السبب كانوا يستعملون ذلك الدهان الأخضر لكي ينفث فيهم حيوية أكثر، وبمرور الوقت وجدوا أن ذلك الدهان الأخضر إذا ما صهر أنتج النحاس، ومن هذا المعدن صنعوا الخرز والشرائح المعدنية والدبابيس وأخيرا المدى والأزاميل Chisels واخترع الأزميل النحاسي بعد هذه السلسلة من الخطوات يعتبر من أهم الأحداث في تاريخ العالم فهو الذي أدى إلى ذلك التقدم الثقافي العظيم الذي حدث في بدء عهد الأسرة الأولى المصرية، وهناك نقطة هامة يجب ألا تغيب عن الذهن فيما يتعلق باستعمال النحاس في صنع الأزاميل وهي أنه لا يوجد في أي بلد آخر من بلاد العالم ما يماثل هذا الذي حدث في مصر – ومن السهل أن يقول قائل أن المستقبل قد يمدنا بأدلة على أن الإنسان قد توصل مستقلا في جهة أخرى من العالم إلى اكتشاف النحاس.

وردنا على هذا أنه حتى يجيء ذلك الدليل فمن الخير أن نرضى بهذا الفرض القائم علينا وهو أن المصريين هم الذين اكتشفوا استعمال النحاس.

ولقد أجمع الثقاة في مضوع بناء السفن على أن المصريين هم أول من بنى سفنا تجري في المحيط، وليس أبعد عن الصواب من أن يصف بعض الناس قدماء المصريين بأنهم شعب لم يبرح وادي النيل، فمنذ بدء الأسرة

الأولى على الأقل (٣٣٠٠ ق. م) كانوا يرسلون حملاتهم إلى البلدان الأخرى للحصول على مواد مختلفة يرغبونها، ولهذه الحقيقة علاقة هامة بموضوع نشأة الحضارة وانتشارها .. فالمصريون القدماء في عصر ما قبل الأسرات كانوا يرسمون على أوانيهم صورا تمثل السفن بما فيها من قمرات وحملة المقاديف ولا بد أن السفن التي عبروا عنها بهذه الرسوم كانت ذا حجم كبير.

وفي عهد الأسرات الأولى خطا المصريون خطوات كبرى في فن بناء السفن .. ذلك النوع من النشاط الذي لم نعثر في أي مكان آخر على أثر لقيام ما يماثله .. وإلى جانب ذلك فإن أقدم السفن البحرية التي وجدت لدى شعوب أخرى إنما بنيت على طراز السفن المصرية، وعلى هذا فإلى مصر وحدها يرجع الفضل في أنها كانت الرائد الأول في بناء السفن، ولها أن تنال هذا الشرف حتى يقوم الدليل على العكس.

ويحتمل أن يكون للمصريين فضل آخر على العالم القديم ألا وهو اختراع الأدوات الحجرية المصقولة – فالمعروف أن أقدم الشعوب المنتجة للطعام في أكثر بقاع الدنيا كانوا يستعملون أدوات مختلفة صنعت من الصخور الصلبة كالبازلت والديوريت والجرانيت والسينيت والهرنبلند وفي نفس الوقت كما رأينا ستعملون أدوات صوانيه يهذبونها أحيانا كثيرة بالشطف بطريق الضغط، وإلى جانب هذا فإن بعض هذه الشعوب القديمة كانوا يصنعون تماثيل صغيرة لأنثى الإنسان وهذا يدل على أن ثقافتهم

مشتقة من شعوب كانت تجمع الطعام في العصر الحجري القديم ويعتبر استمرار لهذه الثقافة ولكنها في نفس الوقت تختلف عنها اختلافا بينا .. فبينما اتجه أهل العصر الحجري القديم إلى الصوان والكوارتز وبنسبة أقل إلى صخور أخرى كصخر الأبسيد فإن اقدم الشعوب المنتجة للطعام رغم استعمالهم لهذه الأنواع نفسها من الصخر فإنهم أظهروا اهتماما فجائيا بالصخور النارية الصلبة سابقة الذكر، وليس من الممكن أن نبين السبب الحقيقي لهذا التطور الجديد إلا أن الشواهد تنبئ بأنه حدث في إقليم يجاور مصر حيث ظهر على نطاق واسع في تلك المواطن التي سكنتها الأقوام المثقفة السابقة للمصريين (انظر مؤلف الأستاذ ف . جوردون تشيلد V. Gordon Childe

New light on the Most Ancient East pp. صفحات ٥٢ – ٥٥ – ٥٩ – ٦١.

وهناك ابتكاران آخران يعود فضل السبق فيهما إلى المصريين وهما الحروف الأبجدية والتقويم الشمسي – وقد توصل المصريون إلى وضع الحروف الأبجدية في عهد الأسرة الأولى والمعروف أن كل الحروف الأبجدية الأخرى اشتقت من هذا المصدر الأصيل.

أما التحنيط فلا شك أنه كان من أهم ما ساهم به المصريون في ثقافة العالم إذ تتركز حوله طائفة كبيرة من المعتقدات والعادات ورد ذكرها في كتاب "نشأة السحر والدين" ويتصل به ما فعله المصريون من تطوير

فكراتهم عن الحياة بعد الموت وبهذا بدئوا سلسلة من الفكر ليس في الاستطاعة تقدير نتائجها الهائلة.

ولا يتسع المجال لمناقشة هذا الموضوع على نطاق أوسع، ولكن إذا درس القارئ جيدا مؤلفات مثل كتاب "الفن البدائي في مصر" للأستاذ كابارت Primitive Art in Egypt فسوف يقتنع بأن المصريين القدماء كانوا فرسانا في حلبة الاختراع ولهم في هذا الميدان جولات، وبأن مصر إذا قورنت بمجتمعات أخرى من مجتمعات العصور الغابرة مثل سومر وعيلام وكريت فإنها تقف منهم في موضع الصدارة وترتفع هامتها فوق رءوسهم، وكلما ازداد معين معرفتنا وعلمنا تأكد لنا في وضوح أكثر ما كان لهم من سبق وتفوق.

ومن المستحيل عمليا أن نبين أن أي عنصر من عناصر الثقافة قد أدخل على مصر من الخارج في تلك الأزمنة الغابرة التي نتناولها الآن بالبحث، وقد يبدو هذا القول جريئا، فإن رأي القارئ المتشكك ذلك فما عليه إلا الرجوع إلى مؤلفات مثل كتاب الأستاذ L. W. King "سومر وعقاد Sumer and Akkad " وكتابه الثاني الذي اشترك فيه مع مستر H. R. Hall "مصر وغرب آسيا Egypt and Western Asia" حيث يعترف الكاتبان اعترافا حاسما بعجزهما عن التثبت من وجود أي تأثير للثقافة البابلية في مصر، والعنصر الثقافي الوحيد الذي يمكن اعتباره دخيلا على مصر هو الخاتم الأسطواني Cylinder Seal الذي ثبت أنه ابتكر خارج هذه البلاد.

وفيما عدا ذلك وأشياء أخرى قليلة الأهمية فليس هناك إلا قلة من التوافه يمكن القول أنها دخلت مصر من أماكن أخرى قبل نهاية عصر بناة الأهرام.

وقد كشفت الحفائر التي تمت في أجزاء مختلفة من الشرق القديم بما في ذلك شمال الهند عن وجود مدنيات سابقة على مستوى عال من النظام في سومر على رأس الخليج الفارسي تقريبا وفي وادي السند .. وخاصة في موهنجو دارو Mohenjo – daro وهارابا Harappa – ورغم الحقائق الضخمة التي أمكن الحصول عليها من هذه المصادر فما زال من المستحيل علينا أن نعزز بالأدلة المادية ادعاء أولئك الذين ينتصرون للرأي القائل بأن آسيا لا مصر هي أهم مصدر للثقافة القديمة.

ولقد برز المصريون كل الشعوب القديمة الأخرى في السيطرة على استخدام مواد متباينة الأنواع، ولا يسعني للتدليل على هذه الحقائق إلا الاستشهاد بكلمات الأستاذ دي مورجان de Morgan مع أنه لا يمل القول بأن مصر تدين بالفضل في ثقافة عهد الأسرات القديم إلى مؤثرات آسيوية، يقول الأستاذ: "إن كمال الأسلوب الفني ليبدو في مصر في عصر مبكر جدا، فمنذ عهد أقدم الفراعنة يبدو المصري عاملا صبورا شديد العناية، في يده وتفكيره على السواء دقة لا مثيل لها، .. فإذا تناول مادة من المواد أصبحت طوع بنانه وسيطر عليها سيطرة لم يبزه فيها أحد في أي بلد آخر".

وعندما يتحدث الأستاذ نفسه عن أواني الزينة التي صنعها المصريون من الحجر الصلب، فإنه يقول: "لا شك أن مصر أخرجت أمهر عمال في فن صناعة الأواني من الحجر "م – ٤".

الصلب ولا يدانيها في هذا الميدان بلد آخر، فلقد عالجوا كل مادة سواء منها شديد المراس أو سهل الكسر وسيطروا عليها بصورة تحير الألباب، ويبدو أن هذه الصناعة بلغت ذروتها في عهد الفراعنة الأوائل ولو أن قطع الأحجار كان معروفا قبل ذلك، ففي عهد نقادة وأبيدوس كانت مقابر الملوك ومقابر بعض المعاصرين لهم حافلة بأشياء معجزة، غير أن النار حكمتها لسوء الحظ"، ولست أعلم إلا القليل من الحالات التي أستطيع أن أقرر فيها أن بلدا من البلاد قد ضارع مصر في فن من الفنون واحدى هذه الحالات هي زخرفة الأواني الملونة التي وجدت في الطبقة السفلى من الحفائر في سوسا، ومن المحتمل أن يكون هناك اتصال بين هذه الأواني وتلك التي صنعت في مصر في عصر ما قبل الأسرات لأن قوم سوسا كانوا يحاكون على أوانيهم رسوم طائر "أبو لهب Rows of Flamingo" في صفوف كتلك الرسوم التقليدية التي تشاهد بوضوح على الأواني المصرية.

كذلك كانوا يقلدون خصائص أخرى من الزخرفة المصرية على الأواني، غير أنه يقال أن فنهم في تنسيق الزخرفة كان يضارع الفن المصري إن لم يكن متفوقا عليه، ومع هذا فإنهم لم يحتفظوا بهذا الأسلوب الفني

الرفيع لأن آنية العصر التالي لم تبلغ ذلك المستوى قط بل انحدرت عنه كثيرا، ومن الممكن أن نقول في تفسير هذا المستوى الزخرفي الرفيع في أواني عيلام القديمة أنه يرجع إلى وجود ذلك النوع من الطين الجيد الذي يفوق الطين المصري بكثير، وهذا بدوره أوحى إلى صناع الأواني في تلك البلاد بأن يبتكرون مستحدثات في فنهم.

ويسوقنا هذا إلى نقطة بالغة الأهمية في نظرية ارتقاء الحضارة وانتشارها .. فقد اتضح أن مجتمعا واحدا من المجتمعات القديمة لم يبلغ ما بلغته مصر في تملكها ناصية الحرف والفنون في مجموعها، ومن الجائز، ولو أن هذا موضع شك أن كريت قد ضارعت مصر في بعض النواحي.

غير أن أحدا لم يستطع أن ينازع المصريين في تفوقهم الكلي الشامل، وينطبق هذا على كل ما صنعه المصريون، من المدى الصوانية إلى الحلي إلى الآنية الحجرية، حقا لقد كانوا سادة في كل شيء .. أفلا يكفي هذا دليلا يلقي ضوء على موضوع المكان الذي نشأت فيه هذه الفنون والحرف؟ ومن النادر أن يأخذ مجتمع من المجتمعات فنا أو حرفة ما عن مجتمع آخر ثم لا يستطيع أن يباري أستاذه أو يسبقه في ذلك الميدان .. فإذا جاءت مصر وظلت من عصر إلى عصر فارس الحلبة في فنونها وحرفها ولم يرتفع إلى مستواها أحد، أفلا يكون هذا التفوق شاهدا على أن المصريين هم أصحاب الابتكار؟ ألا يبين هذا أن المصريين لا بد أن يكونوا مبتدعي تلك الفنون والحرف التي نبغوا فيها وملكوا زمامها؟ إذا كان الأمر غير ذلك فإن

حالة مصر تكون حالة شذت شذوذا عجيبا عن قاعدة يسير عليها العالم في كل العصور، ولم ينحصر تفوق المصريين على شعوب عيلام وسومر وكريت وغيرها في الأسلوب الفني فحسب بل إن ثقافتهم كانت أغنى من ثقافة أي مجتمع آخر ينتمي إلى العنصر نفسه، ويتجلى هذا التفوق منذ أقدم العصور التي يمكن أن تعقد فيها مقارنة ويظل قائما خلال الأجيال آلافا من السنين حتى اضمحلت مصر اضمحلالها الأخير وانتقلت زعامة الحضارة إلى أيدي اليونانيين.

ومن الممكن القول بأن هذا التفوق الظاهر في الثروة الثقافية يرجع إلى أن ما عرف عن مصر في عصر ما قبل الأسرات يزيد كثيرا على ما عرف عن العصور القديمة في البلاد الأخرى نظرا لأن طبيعة البلاد الرملية تساعد على بقاء الآثار سليمة دون عطب .. غير أننا في ضوء ما عرف حتى الآن لا بد من أن نسلم بأن مصر في عصر ما قبل الأسرات كانت تتمتع بثراء ثقافي يفوق أي مجتمع آخر من المجتمعات التي قامت حضارتها على إنتاج الطعام في أقدم العصور .. فلسنا نجد في سوسا أو آناو أو سومر أو في أية بقعة أخرى مثيلا لتلك الثروة في أدوات الزينة أو أمشاط الشعر أو الملاعق العاجية أو المدى الصوانية أو الأدوات المطلية أو أدوات اللعب المنوعة، أو التماثيل المصنوعة من المعجون الدقيق والأواني الفخارية المتنوعة وآنية الزينة المصنوعة من الحجر إلى غير ذلك من الأشياء التي كانت لدى المصريين في أقدم الأزمان، وقد يكون ذلك من قبيل

الصدف ولكنها رغم ذلك حقيقة تتطلب منا تفسيرا، والتفسير الطبيعي لهذه الحقيقة هو أن المصريين كانوا أول من ابتكر العديد من عناصر الحضارة في وقت كانت المجتمعات الأخرى مفتقرة إلى الكثير منها.

ومن الأمور المسلم بها أن المصريين كانوا أول من اخترع السفن التي تجري في المحيط، والمقول أن غرضهم من بناء هذه السفن كان الوصول إلى بلاد أخرى يحصلون منها على الأشياء اللازمة لهم في الصناعة.

وإلى نشاطهم هذا يرجع الفضل الأول في قيام الحضارة في أماكن نائية عن مصر، وهناك دليل حاسم يثبت اتصال مصر بالعالم الخارجي في العصر السابق للأسرات وهو تلك القائمة من المواد التي كان يستعملها المصريون في ذلك العصر.

وتشمل المرجان والنحاس وحجر الصنفرة والرصاص الخام والحديد الخام وحجر اللازورد والميكا والحجر الزجاجي الأسود والقلقونية واللولي والفضة وأصداف السلحفاة والفيروز إذ أن الكثير من هذه المواد ليس معروفا في مصر ولا بد أن المصريين حصلوا عليها من الخارج.

وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر منها المرجان والحديد والصنفرة والرصاص والفضة، ومن المعقول أن تحقيق هذا الاتصال بالعالم الخارجي قد أدى إلى انتقال الحضارة المصرية إلى البلدان المجاورة.

فهل هناك ما هو أقرب إلى الطبيعي من أن المصريين بعد أن اكتشفوا استعمال النحاس في صنع الأزاميل ولمسوا حاجتهم إلى كميات ضخمة من

هذا المعدن تبعا لذلك، كان لا بد لهم من أن يرسلوا بعثات للتعدين والتجارة إلى تلك البلدان التي يتوفر فيها هذا المعدن؟

إن هذا يفسر في يسر ما وجد في سيناء وفي أماكن أخرى من آثار لمستعمرات مصرية – وهناك حالة أخرى تتعلق بمدينة سوسا التي يجاورها إقليم به خام النحاس – ففي هذا الإقليم ظهرت ثقافة شبيهة بثقافة مصر وكان ظهورها فجائيا على يد قوم بدأوا يحفرون قنوات للري ويستقرون في الإقليم.

وكانوا يستعملون النحاس، أليس من الطبيعي إذن أن نسلم بأن هذا الاستيطان كان نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لاختراع المصريين للأزميل النحاسي مما دفعهم إلى البحث عن هذا المعدن؟

ويقرر الأستاذ اليوت سمث أن الاكتشاف الذي دفع المصريين القدماء أكثر من أي اكتشاف آخر إلى القيام بمغامراتهم الأولى إلى العالم المجهول هو اكتشافهم للأزميل النحاسي، وقد حدث هذا الاكتشاف حينما كان العصر السابق للأسرات وشيك الانتهاء وتبعه انطلاق ضخم في النشاط المصري، إذ أن امتلاك أداة من هذا الصنف كما يقول الأستاذ اليوت سمث في كتابه "المصريون القدماء" "The Ancient Egyptians" كفيل بأن يبعث القوة في حرفة النجار وصانع الأدوات الحجرية وغيرهما، ومما هو جدير بالذكر فيما يختص بهذا القول أن المستعمرات الأولى التي قامت في سوسا وعتلام وغيرهما من بلدان آسيا الغربية كانت مستعمرات أسسها قوم كانوا يستعملون الأزميل

النحاسي، ولا شك أن الحضارة في تلك الأيام كانت متبادلة على نطاق واسع بين هذه البقاع سواء جاءت مؤثراتها من هذا الجانب أو من ذاك.

وتلخيصا للموقف نقول أن من الدارسين من يدعي أن مصر كانت موطن الحضارة وأن أعظم الفنون والحرف نشأت هناك، وهم يبنون هذا الادعاء على انه لم يقم دليل حتى الآن يبين لنا كيف نشأ أي عنصر من هذه العناصر الثقافية في بلدان أخرى ويستندون أيضا إلى حقيقة أخرى وهي أن سومر وعيلام وهما البلدان اللذان يقال عنهما دائما أنهما كانا العامل القوي الذي أثر في الثقافة المصرية، هذان البلدان لم يوجد بهما من العلائم ما يدل على نقطة بدء ثقافي بل على النقيض من ذلك تشير الأدلة على أن ثقافتهم استحدثت من جهات أخرى، إن أحد لا ينكر ذلك.

ومن ناحية أخرى هناك من يقرر أنه قبل قيام الأسرة الأولى المصرية حوالي سنة ٣٣٠٠ ق. م وفد على مصر من الشرق مؤثر ثقافي حمل إليها الكتابة واستعمال الأزميل النحاسي وصناعة الطوب وكذلك الأختام الأسطوانية.

ويقول أنصار هذا الرأي أن هذا المؤثر جاء من سومر وعيلام، ومن المحتمل أن الساميين هم الذين نقلوا هذه الثقافة عندما فتحوا مصر وأسسوا المملكة المتحدة على حد قول البعض.

ولما كان من الثابت أن ثقافة سومر وعيلام وهي التي يقال أنها أثرت في مصر قد وفدت عليهما من جهة أخرى فالسؤال هنا هو ما هي تلك

الجهة الأخرى؟ والجواب المألوف على ذلك أنها جاءت من المنطقة الجبلية في وسط آسيا، ولكن نظرا لأننا نفتقر كل الافتقار إلى دليل مباشر يشير إلى النقطة التي بدأت منها تلك الثقافة، وبما أننا نملك دليلا قاطعا على بدء صناعة النحاس في مصر إلى جانب أشياء أخرى كثيرة ليست هذه إلا واحدة منها، أمام كل هذا لا يسعنا إلا أن نشك كثيرا في صحة هذا الرأي، وخاصة أنه إنما يقوم على وجود رموز معينة استعملها السومريون والعيلاميون مثل كلمة "جبال".

وهي رموز تحتمل تفسيرا يختلف كثيرا عن تفسير أصحاب هذا الرأي.

وفي الوقت نفسه تحكي قصص السومريين أنفسهم قصة أخرى عن أصولهم، ويبدو من تلك القصص أن السومريين كانوا منذ نشأتهم على اتصال بمصر، ففي بعض نصوصهم القديمة إشارة إلى بلاد "دلمن وماجان وملوحة" "Dilmun, Magan and Meluhha" فأين تقع هذه الأماكن الثلاثة؟

أما "دلمن" فهي المحلة الأولى التي أقامها الإله "انكي" Enki مؤسس الحضارة السومرية، وهو إله مدينة اريدو Eridu أول مدينة سومرية، وكانت قائمة إذ ذاك على رأس الخليج الفارسي، وتحكي القصة أن انكي هذا جاء من الخليج الفارسي على ظهر سفينة وعلم السومريين الحضارة، وعلى هذا فإن السومريين أنفسهم يقرنون أصل حضارتهم اقترانا وثيقا

بالخليج الفارسي وبقوم وفدوا على ظهر سفن، ولقد احتدم النقاش في السنوات الأخيرة حول موقع هذه المدائن الثلاث التي لا تذكر إلا مجتمعة كأماكن تشتهر بالسفن والبلح، وقد اشتهرت "ماجان" بين أهل سومر على أنها بقعة يحصلون منها على النحاس والديورت كما عرفت "ملوحا" بأنها موطن الذهب.

أما موقع "دلمن" فقد أمكن تحديده على وجه التقريب بأنه مكان ما في الخليج الفارسي قد يكون جزائر البحرين أو بلدا آخر على شاطئه الشرقي، وسواء كان هذا أو ذاك فهي في الحالين واقعة في الخليج نفسه، أما "ملوحا" و"ماجان" فهناك اختلاف في الرأي حول موقعهما، ففي نص من النصوص الأشورية المتأخرة ذكر أن ماجان وملوحا هما الاسمان القديمان لمصر وأثيوبيا وأن الأخيرة هي الجزء الجنوبي الغربي لبلاد العرب والجزء المقابل له من الصومال، ولهذا السبب انتهى بعض العلماء إلى أن ماجان وملوحا هما في واقع الأمر مصر والإقليم الذي كان يسميه المصريون أرض بنت Punt.

ومن المؤكد أن مصر كانت تمتلك كميات من النحاس في سيناء ودبلا النوبة حيث يتوفر الديورت أيضا، وكذلك اشتهرت بلاد العرب خلال العصور بأنها بلاد الذهب، فمن الجائز إذا أن هذين القطرين هما "ماجان" و"ملوحا"، الواردتان على لسان أهل سومر، وجدير بالذكر أن نصا قديما من نصوص سومر قد وردت به إشارة إلى "خنزير من ماجان"

وهو في واقع الأمر خنزير مصري – وهذا سبب آخر يبرر القول بأن ماجان هي مصر.

ومع أن الأستاذ الدكتور لانجدن Dr. Langdon يعارض هذا التفسير فإنه يسلم في الوقت عينه بأن سومر كانت في أقدم الأزمنة على اتصال وثيق بمصر وبنت عن طريق ماجان وملوحا اللتين حدد موقعهما في الخليج الفارسي، وعلى هذا فإن الدليل في أسوأ الفروض قائم على أن بدء الحضارة السومرية اقترن بالخليج الفارسي والبلاد الواقعة فيه أو التي يؤدي إليها وليس ببلاد تقع في آسيا، وهو– دون شك – لا يؤيد اعتقاد البعض بأن حضارة سومر جاءت من وسط آسيا.

ومن المألوف أن يقال أن الحضارة المصرية في الفترة الأخيرة من العصر السابق للأسرات والفترة الأولى من عصر الأسرات تأثرت بالأقوام السامية التي وفدت من ناحية سومر وجلبت معها الأزميل النحاسي وعناصر أخرى من الثقافة.

والواقع أن الأدلة تشير إلى عكس ذلك، فمن المتفق عليه أن أول سكان استوطنوا سومر لم تكن لغتهم سامية وأن شعوبا أخرى تتكلم اللغة السامية ظهرت في ذلك الإقليم في زمن متأخر وأسست مدن "عقاد" Akkad وبذلك أقاموا دولة سومر وعقاد التي تكرر ذكرهما كثيرا في نصوص العصور التالية وأول هؤلاء الملوك الساميين هو الملك سارجون Sargon الكبير الذي امتدت فتوحاته امتدادا واسعا حتى شواطئ البحر

ويكون بذلك أول ملك غاز عظيم عرفه التاريخ، وفي عهد هؤلاء الملوك الساميين لدولة عقاد، سرى في بابل التقليد المصري الخاص بحساب السنين تبعا للحوادث الجسام التي تحدث فيها كما ظهر فن النحت في حجر الديوريت وهو نوع من الأحجار لا يوجد في سومر بل كانت تشتهر به "ماجان" ومثل ذلك الفن تلك اللوحتان الشهيرتان اللتان صنعتا في عهد أولئك الملوك الساميين وتسمى الأولى "لوحة العقبان" وتسمى الثانية "لوحة النصر" "Stele of Vultures, Stele of Victory" وقد صنعتا تخليدا لغزواتهم، ولا شك في أن كل هذه الأشياء ترجع إلى التأثير المصري وهكذا يتضح أن الساميين كانوا في واقع الأمر يدخلون الثقافة المصرية إلى بابل.

ومن السهل أن نفهم الكيفية التي وصل بها التأثير المصري إلى سومر في بادئ الأمر، فمن المعروف جيدا أن المصريين كانوا يرسلون حملات إلى أرض بنت منذ عهد الأسرة الأولى للحصول على الذهب والكهرمان وريش الطيور والعاج والمواد القلفونية التي كانوا يستخدمونها في الزينة وأغراض العبادة – وكان طريق تلك الحملات المستمرة إلى أرض بنت هو البحر الأحمر – وليس في مقدورنا في الوقت الحاضر أن نحدد التاريخ الذي بدأ فيه هذا الاتصال غير أن قيام الاتصال نفسه لم يعد موضع شك، وبهذه الوسيلة كان المصريون يؤثرون في البلاد الواقعة خارج نطاقهم، وليس بالكثير عليهم أن نفرض أنهم اكتشفوا سهول الدجلة والفرات الخصبة

واستقروا فيها يروون الأرض كما كانوا يفعلون في بلادهم، وبنفس الطريقة كان اكتشاف النحاس في عيلام مدعاة إلى تأسيس المستعمرات في سوسا وغيرها من الأماكن التي قامت على الري.

ومن المحتمل أيضا أن الساميين اكتسبوا ثقافتهم على النحو نفسه، فالمصريون لم يقتصرون في رحلاتهم على بلاد بنت فحسب بل كانوا يستخرجون النحاس والفيروز من منجم سيناء، ولا مناص لهم والحالة هذه من أن يتصلوا بسكانها ويكسبونهم بمرور الزمن بعض ثقافتهم، تلك الثقافة التي حملتها هذه الأقوام الناطقة بالسامية إلى أرض بابل، وهكذا ظهرت في بابل ثقافة مصرية تعود إلى تاريخ متأخر عن تاريخ تأسيس أقدم المستعمرات السومرية.

وثمة إقليم آخر لا بد من أنه تأثر بالمصريين في عصر مبكر، ذلك الإقليم هو سوريا حيث اكتشف في بلدة بيبلس Byblos[١] بقايا مستعمرات مصرية يرجع تاريخها إلى الأزمنة الأولى من عهد الأسرات، وكان المصريون منذ عهد الأسرة الأولى يجلبون من جبال لبنان الواقعة في هذا الإقليم أخشاب الأرز التي كانوا ينقلونها على أطواف إزاء الشاطئ ولقد لعبت جزيرة كريت دورا عظيم الأهمية في تاريخ الحضارة نظرا لوقوعها بين أوروبا وبلاد الشرق القديم وما نشأ عن هذا من قيام علاقة وثيقة بينها وبين الأثنين، ولم يكن لهذه البلاد على قدر ما أعلم تاريخ في العصر

---

[١] إلى الشمال من بيروت، حيث الآن بلدة جبيل (المترجم)

الحجري القديم باعتبار أنها كانت في تلك الأيام الغابرة جزيرة لا يستطيع الإنسان الجامع للطعام أن يصل إليها نظرا لافتقاره إلى السفن ... ولهذا بدأت الثقافة الكريتية عندما كانت الثقافة القائمة على إنتاج الطعام قد خطت شوطا إلى الأمام، ومن حسن الحظ أنه في حالة كريت لا يقوم لدينا شك في الأسباب التي بعثت هذه الثقافة، ففي الجزء الأول من مؤلف سير آرثر ايفانز عن "قصر مينوس" Sir Arthur Evans – "The Palace of Minos" يتضح أن بدء العصر المينوي في كريت وهو عصر الملوك الذين شادوا قصورا عزيمة كان معاصرا لبدء عصر الأسرات في مصر وأن مؤثرات مصرية مباشرة هي التي أدت إلى قيام هذا العهد، وعندما يتحدث هذا الأستاذ عن مواطن الحضارة القديمة في آسيا الصغرى وكريت، تلك الحضارة التي يطلق عليها عادة حضارة العصر الحجري الحديث وذلك على ضوء التطور العظيم في الحضارة الكريتية في بدء العصر المينوي، عندما يتحدث عن هذا فإنه يقول: "من المستحيل أن أنكر أمام ما يمكن استخلاصه من أدلة تجمعت لدينا أن حضارة الشواطئ الشرقية لبحر ايجه في نهاية العصر الحجري الحديث لم تكن على مستو أعلى من مستوى حضارة كريت ولما كان فاقد الشيء لا يعطيه فلا بد لنا من أن نبحث في جانب آخر عن مبعث تلك الحيوية الدافعة التي بدأت إذ ذاك تسري في الثقافة البدائية السائدة في جزيرة كريت وتشكلها تشكيلا جديدا، ولم يعد لدينا شك في أن الحافز الرئيسي جاء من الجانب المصري (صحيفة ١٦)، ثم يستطرد الأستاذ قائلا في صحيفة ١٧ "إن العنصر المصري الأصيل

الذي ظهر في كريت في العصر المينوي القديم واضح في معاملة شامل في طبيعته يوحي بأنه كان نتيجة لأكثر من مجرد اتصال دعت إليه تجارة بدائية بين البلدين – ومن المعقول أن نعلل ذلك بأن الاضطرابات والتغييرات اليت تعرض لها وادي النيل في وقت ما من تاريخه وانتهت بقيام نظام الأسرات أدت إلى طرد بعض سكان الوادي القدامى فاتجهوا إلى جزيرة كريت واستقروا فيها استقرار حقيقيا".

إن هذه الكلمات لا تدع مجالا للشك في أن الحضارة الكريتية في العصر المينوي يرجع الفضل المباشر فيها إلى المصريين.

ولقد أثرت الحضارة المينوية بدورها في حضارة اليونان.

يقول الأستاذ آرثر ايفانز (في صفحة ١٩):

"عندما نعلم كم من العناصر المشتقة من العصر المينوي طالت حياتها في أرض هيلاسي Hellas يتجلى لنا على الفور معنى فضل مصر التالد، وتبدو لنا المؤثرات المصرية التي كانت تعتبر حتى الآن مجرد حدث ثانوي بين الخبرات القديمة التي جاءت في عصر متأخر – تعتبر تلك المؤثرات أصلا قائما في مهد حضارتنا".

وفضل مصر على جزيرة كريت هو الموضوع المستمر في مؤلف سير آرثر ايفانز الذي يوضح فيه كيف أن الرخاء في مصر كان يصاحبه رخاء في كريت فإذا تخلفت الأولى قليلا تخلفت الثانية بحيث لا يمكن القول أن الحضارة الكريتية عاشت في معزل عن الحضارة المصرية بل أنها كانت

تستمد من مصر دائما دماء حياتها – والوقت وحده كفيل بأن يبين مدى فضل المصريين القدماء لا على جزيرة كريت فحسب، بل على بقية أوروبا والعالم أجمع.

والنتيجة التي وصلنا إليها بقولنا أن مصر موطن الحضارة هي نتيجة تحققها كافة الاختبارات – فهي بلد وجد به الكثير من حجر الصوان وكان موطنا لأقوام تجمع الكعام خلال عصور تفوق الحصر، ويبدو أن الإنسان سكنها دون انقطاع طوال العصر الحجري القديم، وسوف يطالعنا المستقبل بمعلومات أكثر عن هذا الموضوع" وبما أن أقدم المجتمعات التي قامت على إنتاج الطعام كانت تعيش على ري الأرض، وبما أن دورة الري النيلية كاملة في حدوثها فهذه البلاد هي التي يحتمل أكثر ما يمكن أن تكون البادئة بالري – وقد عرفنا أن ثقافة مصر في العصر السابق للأسرات كانت متصلة على طول الخط بثقافة عصور جمع الطعام إذ وجدت في مقابر عصر إنتاج الطعام تماثيل "الأم الكبرى" وأدوات منقوشة من العاج وخطاطيف من العظام ومعدات من الصوان وكلها من خصائص عصر جمع الطعام، وإلى جانب هذا فإن المصريين سبقوا الشعوب الأخرى في امتلاكهم لزمام الحرف والفنون، وبهذا كانوا سادة الشعوب القديمة – الأمر الذي يتفق مع حقيقة أن الكثير من الحرف اخترعت في مصر أو ظهرت لأول مرة فيها، كما أن الثقافة المصرية في العصر السابق للأسرات كانت أغنى بكثير من ثقافة أي مجتمع آخر في نفس المرحلة.

ومن الأمور المؤكدة أن المصريين في أوائل عصر الأسرات كانوا يبنون سفنا كبيرة تستطيع أن تمخر عباب البحر إلى أنحاء مترامية الأطراف وأنهم درجوا على إرسال حملات إلى أماكن معينة للحصول على مواد يرغبون فيها.

ولا يوجد بلد آخر يستطيع أن يستوفي كل هذه الشروط بل إن قلة من البلاد هي التي يتوفر فيها شرط واحد منها – وعلى هذا تكون مصر هي البلد الذي تعززه كل الحقائق موطنا للحضارة والمصدر الأكبر للوحي المتجدد الذي ألهم الحضارات المجاورة خلال قرون كثيرة.

إن البحث الذي اشتمل عليه هذا الفصل يبرز نظريتين عامتين بجدر بنا ملاحظتهما، أما الأولى فقد سبق ورود ذكرها عند التحدث عن إنسان العصر الحجري القديم، وهي أن أي شعب اشتغل بصناعة ما تقوم على استخدام مادة من المواد الخام لا يسهل الحصول عليها في كل مكان فإنه يعمد إلى الإقامة بالقرب من مصادر هذه المادة، ونحن على علم بتلك المواد التي كان يستعملها المصريون في عصور الأسرات وما سبقها، ومن المؤكد أنهم في أول الأمر قد رحلوا وراء حدود بلادهم للحصول على هذه الأشياء حاملين معهم أسس حضارتهم وبهذا أقاموا صروح حضارات جديدة في بقاع خارجة عن نطاقهم شيئا فشيئا، وهذا يعني أن المصريين بدلا من أن يقصروا اهتمامهم على الصوان والأصداف المختلفة بحثوا عن النحاس والذهب والسنباذج Emery وغير ذلك من المواد ... وبهذا

نقلوا ثقافتهم إلى البقاع التي وجدوا فيها هذه الأشياء، وكلما زادت ثقافتهم تعقيدا كثرت علاقاتهم الخارجية واتسعت رقعة نفوذهم، ومن الطبيعي أن مستعمراتهم الوليدة هذه كانت بدورها تؤسس لها مستعمرات أخرى بمرو الزمن، فجزيرة كريت مثلا نقلت إلى سوريا وجزائر بجر ايجه وفلسطين وقبرص تلك الثقافة التي استقتها من مصر، وبعض هذه المواطن الجديدة كانت تقع إلى جوار مصادر مادة من المواد الخام التي كان ينشدها مؤسسو هذه المستعمرات، ويجب ألا يغرب عن البال أن هذه المستعمرات لم تكن كلها مواطن للتعدين إذ هناك عوامل أخرى كانت تدفعهم إلى هذا العمل، ومثال ذلك أن المستوطنين القدامى لإقليم سومر من المحتمل أن الباعث لهم على استيطان هذا الإقليم كان عظم خصوبة الأرض .. كما أن تأسيس ايريدو "م – ٥".

كان متصلا بنظم الري القديمة، وبالمثل يحتمل أن قيام المواطن المينوية في كريت كان مبعثه ظروف سياسية – ولكن النظرية قائمة بوجه عام كما سيتضح في الفصل التالي.

أما النظرية الثانية وهي أيضا عظيمة الأهمية في دراسة نمو الثقافة وانتشارها فهي نظرية التدهور الثقافي "Cultural Degradation" فكثيرا ما يدعي البعض أن التقدم هو السنة الطبيعية في تطور الحضارة وأنه من الأمور الطبيعية التي لا مناص منها أن كل جماعة إنسانية تصوغ لنفسها ثقافة معينة، ولاواقع أن الأمر على نقيض ذلك إذ ليس في تاريخ العالم

شيء أندر من الابتكار، فلنتصور ذلك العدد العديد من الجماعات التي اشتغلت بجمع الطعام عاشت عصورا تفوق الحصر دون أن تتقدم خطوة واحدة، نحو مرحلة إنتاج الطعام، ولنتخيل ذلك الزمن الهائل الذي عاشه إنسان العصر الحجري القديم دون أن يكتشف الزراعة أو استئناس الحيوان، غنا إذا استوعبنا هاتين الحقيقتين جيدا فسوف لا نستطيع أن نقرر في سهولة أن الثقافة نشأت مستقلة في جميع أنحاء الأرض، وليس هناك أكثر مجافاة للحقيقة من هذا القول – وعلى العكس فإن كل ذي عينين يستطيع أن يتبين أن انتقال الثقافة من مكان إلى آخر يصحبه عادة تدهور في هذه الثقافة، ومثال ذلك أن اليونان الميسينية Mycenaean Greece اشتقت أكثر ثقافتها من كريت ولكنها في عملية النقل هذه فقدت عناصر لا يستهان بها من الثقافة المينوية الكريتية.

والمعروف أن ابتكار عنصر ثقافي جديد هو عمل من الأعمال المعقدة وقد تكون ظروف الزمان والمكان مواتية لبعث فكرة جديدة فتبعث في بيئتها حتى إذا انتقلت إلى بيئة أخرى استتبع ذلك تغيرا، فليس هناك الصانع الأصيل الذي يملك العلم والمهارة اللازمين وبهذا تقل جودة الإنتاج، وحتى في الموطن الأصيل نفسه لا يمكن أن تحتفظ المنتجات دائما بما بلغته أصلا من مستوى رفيع، فالمصريون صنعوا آنية الزينة الحجرية الرائعة واحتفظوا بها في ذلك الأوج خلال قرون قليلة فقط ثم كان مصير هذه الصناعة إلى التدهور.

وكذلك كان شأن الأواني الملونة في سوسا إذ سرعان ما فقدت رونقها ثم آلت إلى الزوال، ومن الممكن أن نستشهد بأمثلة كثيرة على هذه الظاهرة، والحق أن القاعدة العامة هي أن التطور الجديد في فن من الفنون أو حرفة من الحرف سرعان ما يصل إلى ذروة الكمال ثم يعتريه في بلدة بالذات أو حيثما ينقل شيء من الاضمحلال السريع .. فأما أن ينتهي إلى زوال وأما أن يحدث به تطور جديد يحوره تحويرا جوهريا، وحتى صناعة الأواني الفخارية من السهل أن تزول كما يشاهد في أمريكا الشمالية والأقيانوسية (القارة المحيطة) وهكذا نرى أنه ليس لحرفة أو فن بقاء بالمعنى الصحيح.

الفصل الرابع

غزو أوروبا

بينما كانت الحوادث تجري على النحو الموضح في الفصل السابق كانت بقية العالم خارج نطاق الشرق القديم والأقاليم المتاخمة التي تأثرت بشعوبه نتيجة لهجرة تلك الشعوب إليها بحثا وراء المواد التي كانوا في حاجة إليها، كانت هذه البقية من العالم تغط في نوم ثقافي عميق، غير أن هذه الأحوال لم يكن مقدرا لها أن تدوم، فكلما تقدم الزمن وزادت الثقافة المصرية تعقيدا عظمت قوة نفوذ هذه البلاد حتى انتهى الأمر بهذا النفوذ إلى الانتشار عبر العالم في موجة عاتية وصلت في نهاية المطاف إلى شواطئ أمريكا وأقامت حضارات المايا The Maya في جواتيمالا وهندوراس وحضارة بيرو وكوستاريكا وغيرها من الأماكن، وما القصة الواردة في الفصل السابق عن نشوء الحضارة في كريت وسومر وعيلام في عصر يقابل عصر الأسرة المصرية الأولى تقريبا بعد ابتكار مصر للإزميل النحاسي.

ليست هذه القصة إلا مقدمة لمسرحية هائلة تظهر فيها حضارات في كل أجزاء الدنيا تلعب كل منها دورها ثم يتدهور أكثرها ويندثر، ولسوف نصف في الفصول التالية أهم حوادث تلك المسرحية.

بعد أن بدأ عصر الأسرات في مصر عقب وقت كانت البلاد إبانه على ما يبدو مقسمة إلى مصر العليا ومصر السفلى حدث تطور فكري كان له نتائج عظمى، فقد اختمر في أذهان المصريين أن في مقدورهم

إيقاظ الموتى من راقدهم إلى حياة جديدة واعية، وكان لهذا التفكير أثره في طقوسهم الجنائزية والمعبدية دفع الحكام إلى بذل الجهود الضخمة واستنفاذ الكثير من المواد في بناء المقابر العظيمة والأنفاق على المعابد بمن فيها من رجال الدين.

ومن المؤكد أن الأفكار المتعلقة بالموت كانت مسيطرة على عقول الطبقات الحاكمة في عهد الأسرات الأولى أكثر بكثير من سيطرتها على عقول حكام كريت وسومر وغيرهما، كما أن حضارة مصر في تلك الأزمنة كانت تختلف عن حضارتي كريت وسومر، فبينما تعتبر المقابر أهم ما خلفت مصر من آثار قديمة ترك السومريون والكريتيون قصورا عظيمة كان ملوكهم يعيشون فيها، وتعتبر كريت ذات شهرة خاصة في هذه الناحية، فقصور الملوك في العصر المينوي الأوسط وهي التي ظلت قائمة خلال فترة تقابل الفترة التي انقضت في مصر من عهد الأسرة الحادية عشرة إلى عهد الأسرة السابعة عشرة، تلك القصور كان لها نظاما لتصريف المياه وتوفرت بها الحمامات ووسائل الراحة العصرية الأخرى، وكان جزءا من القصور مخصصا لتأدية الطقوس والشعائر الدينية – أما الباقي فقد كان يشمل على مساكن لأعضاء البلاط الملكي – وبالإضافة إلى ذلك فإن عليه القوم كانوا يعيشون في بيوت فخمة يدل ما اكتشف منها على أن أولئك القدماء كانوا يعيشون عيشة عصرية في جوهرها، بحيث أن حياتهم اليومية نستطيع نحن أن نتفهمها أكثر من تفهمنا لحياة المصريين الذين لم يخلفوا إلا

القليل من الآثار التي تبين لنا ما كانوا يفعلون في حياتهم اليومية في تلك الأيام الغابرة.

وهذا الاختلاف في وجهة النظر بين المصريين والكريتيين يتضح بوجه خاص في عادات دفن الموتى – أما المصريون فقد ابتكروا التحنيط في عهد الأسرة الأولى تقريبا، وما وفي عهد الأسرة الثالثة إلا وقد رسخت أقدام هذه العادة.

واستقر في أذهانهم مع هذه العادة اعتقاد محدد في قيام حياة بعد الموت يتمتع فيها الراحل بحياة شبيهة بحياته على الأرض وفقا للمراكز التي كان يشغلها، حياة ينعم فيها بسعادة أبدية في جزائر المنعمين.

وهذه الفكرة عن الحياة الأخرى تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التي كانت سائدة في بابل خلال العصور التاريخية، فقد كان المعتقد هناك أن الموتى يذهبون بعد الموت إلى العالم السفلي المظلم حيث يعيشون كالأشباح، أما آراء الكريتين عن هذا الموضوع فلسنا نعرف شيئا عنها ولكنا نظن أنها كانت شبيهة بمعتقدات البابليين لأن الملك مينوس الذي تقول الأساطير أنه كان ملكا على جزيرة كريت كان ملك العالم السفلي عند الإغريق.

وفي العصور الأولى للأسرات درج المصريون على إرسال الحملة تلو الحملة إلى أرض بنت وسوريا وإلى بلاد أخرى للبحث عن المواد التي كان لها وزن لديهم أما لاستخدامها في الصناعة وأما لأنها كانت في نظرهم من

المواد الباعثة للحياة .. ولقد كان قواد هذه الحملات أما من النبلاء وأما من أصحاب الأرومة الملكية وكم من قصص خلفها المصريون عن هذه الحملات منقوشة على آثارهم، غير أن هذه القصص في مجموعها قليلة العدد وتفتقر إلى التفصيل، ولو أنها كانت أكثر إسهابا لحصلنا منها على معلومات عن قصة من أعجب القصص في تاريخ العالم – قصة أقوام متحضرة اندفعوا جنوبا إلى السودان وبلاد الزنوج وكذلك عبروا البحر المتوسط وبحر ايجه، وربما وصلوا إلى إسبانيا .. قصة أقوام كانوا يكتشفون على الدوام بلادا جديدة ثم يعودون إلى بلادهم ليرووا القصص عن الأشياء التي شاهدوها والمغامرات التي قاموا بها – وليس في مقدورنا إلا أن نختطف لمحات عن هؤلاء الرجال، ومع ذلك فلا تزال قصة مغامراتهم خالدة.

ولا بد أن نشاطهم هذا كان عظيما خلال عهد الأسرات الست الأولى نتيجة لبواعث كثيرة، فهناك أولا ذلك الحافز الكبير المتمثل في طقوس التحنيط وشعائره وما كانت تتطلبه تلك العملية من بخور ومواد أخرى يحتاج إليها القائم بالتحنيط كما لا يستغني عنها الكاهن عند أداء شعائر المعبد، حيث كان يحرق كميات هائلة من البخور، وهناك أيضا حاجة القوم إلى الذهب وكل أنواع المواد الثمينة المستعملة في زخرفة المدفن والمعبد .. كل هذه العوامل بعثت في المصريين نشاطا هائلا وحفزتهم على إرسال حملاتهم إلى أنحاء مترامية الأطراف.

وهذه الدوافع نفسها هي التي أثرت في أهل بابل وكريت ولو أن تأثيرها لم يكن بنفس القوة، ودليل ذلك أن نفوذهم الثقافي لم يصل في انتشاره إلى ذلك المدى الواسع الذي بلغه نفوذ المصريين بل اقتصر على البلدان المتاخمة للبلدين في حين أن نفوذ المصريين شمل العالم أجمع، وحتى إلى يومنا هذا نرى له آثارا واضحة لا تزال قائمة في أنحاء متطرفة من الأرض.

وكانت المقابر المصرية في عهد الأسرة الأولى تبنى من اللبن — أما في العهد السابق للأسرات فقد كان المصريون يدفنون موتاهم في قبور تحت الرمال، وبمرور الزمن وزيادة ثروة البلاد تحسنت هذه القبور فتطورت إلى منازل منتظمة تبنى تحت سطح الأرض وتشتمل على عدة حجرات مهيأة بحيث يستطيع المتوفي أن يستعملها — وعندما اخترع المصريون عملية التحنيط في عهد الأسرة الأولى أو ما يقرب من ذلك العهد تغير وضع المدافن وظهر النوع الذي يسمى المصطبة.

وفي هذا الطراز من المدافن يكون القبر نفسه تحت الأرض وفي أكثر الأحيان كان ينحت نحتا في الصخر الصلب ثم يبنى فوق سطح الأرض معبد صغير تؤدي فيه الشعائر الجنائزية وغرفة أخرى يوضع فيها تمثال على صورة الفقيد — وكان صنع هذا التمثال جزءا من عملية تحنيط المتوفي كما وضح ذلك الأستاذ اليوت سمث في مؤلفاته المشار إليها سابقا.

وكانت المصاطب تبنى من اللبن حتى نهاية الأسرة الثانية ثم بنيت بعد ذلك من الحجر الذي كانوا يستعملون منه كتلا كبيرة في بناء هذه الآثار

ويعتبر هذا بدء فن معماري جديد يسمى فن البناء الحجري "Megalithic architecture".

ولم يظهر في البلدان الأخرى التي كانت لها حضارة معاصرة للأسرة الثالثة المصرية ما يشبه طراز المصطبة في البناء (٣٠٠٠ ق. م) فلم يعرف هذا النمط مثلا في بابل حيث كان استعمال الأحجار فيما عدا بعض الحالات الشاذة التي وجدت في المستعمرات السومرية القديمة في أريدو وارخ أور Eridu, Erech and ur ولكن في خارج نطاق هذه المدينة القديمة كما في السودان وسوريا وفلسطين وجنوب إيطاليا وأجزاء كثيرة من شمال أفريقيا وإسبانيا والبرتغال وفرنسا وبريطانيا وهولاندا ودنمارك وشمال ألمانيا وفي أماكن قليلة أخرى من أوروبا وفي البلاد المطلة على البحر المتوسط وفي أجزاء أخرى بعيدة من الأرض، في كل هذه البقاع ظهرت دلالات ثقافة مشتقة من إقليم الشرق القديم، ومن مصر بوجه خاص، ومع هذه الأنواع من الثقافة ظهرت الآثار المشيدة من الأحجار الضخمة التي تحاكي في صدق وأمانة تلك الخصائص الجوهرية التي تميزت بها مقابر المصطبة التي كانت سائدة في مصر في العهود الأولى من عصر الأسرات.

والقبر المنحوت في الصخر، وهو الذي ظهر في مصر أول ما ظهر نتيجة لرغبة المصريين في التغلب على مشكلة تسقيف القبر المشيد تحت الأرض – ذلك الطراز من القبور لعب دورا هاما في امتداد الثقافة المصرية.

فخلال القرون التي تلت هذا العهد ازدادت أهمية القبور المنحوتة في الصخر حتى انتهى الأمر إلى أن كل المدافن الملكية كانت من هذا الطراز، أما الصروح الضخمة كانت تقام على سطح الأرض فوق المصاطب وكذلك الأهرام فقد أصبحت معابد منفصلة تقام فيها شعائر الموتى بينما توضع الجثة المحنطة في قبر صخري بعيد عن الأنظار كما كان الحال في وادي الملوك إبان عهد الأسرة الثامنة عشرة والأسرات التالية.

ويتميز عصر الأسرة الثانية عشرة (٢١٠٠ ق. م) في مصر بزيادة استعمال البرونز وهو خليط من النحاس والقصدير وقد حدث نفس الشيء في كريت وفي نفس التاريخ تقريبا، وكان هذا بدء العصر المينوي الأوسط، أما قبل ذلك فقد كان النحاس مستعملا في صناعة أدوات معينة كالأزميل وغيره.

ولما كان القصدير لا وجود له في مصر أو كريت، فمن الواضح أنه كان يجلب من مكان آخر – غير أن بلاد الشرق القديم كانت مواردها في القصدير قليلة بينما كان يكثر في غرب أوروبا وإسبانيا والبرتغال وإقليم بريتاني وكورنول.

وإذا نحن درسنا الحال في إسبانيا والبرتغال اتضح لنا أن أقدم منتجي الكعام من سكانها كانوا يبنون ما يسمى الممرات الحجرية "Passage dolmens" ويتكون كل منها من ممر طويل تشاد جدرانه من أحجار مستوية قليلة السمك تقف على حدها وتوضع فوقها قطع أخرى

مستعرضة ليتكون منها سقف الممر، وكان محور الممر متجها من الشرق إلى الغرب وتقع فتحته في مواجهة الشرق.

كذلك كانت هذه الأقوام القديمة تبنى مدافن منحوتة في الصخر، وهذه نقطة ذات أهمية أساسية – لأننا إذا درسنا حوض البحر المتوسط في مجمله اتضح لنا أن شعوبه الشرقية في آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا وكريت كانوا يبنون المدافن المنحوتة في الصخر بينما كانت الشعوب الغربية في إقليم بريتاني واسكنديناوة وبريطانيا تبني الممرات الحجرية فقط – أما في إسبانيا والبرتغال الواقعتين بين هاتين المجموعتين فقد وجدت فيها الممرات الحجرية والمدافن الصخرية، ويدل هذا على أن قوما انتقلوا من شرق البحر المتوسط إلى الغرب وانتقلت معهم طريقة بناء المدافن المنحوتة في الصخر – أما الممرات الحجرية فما هي إلا مدافن صخرية شيدت فوق سطح الأرض.

وإذا نحن ألقينا نظرة على توزيع المقابر الصخرية والممرات الحجرية في إسبانيا والبرتغال ظهر لنا أنها تتفق مع توزيع مواطن القصدير والذهب فيها، ويضاف إلى ذلك أن التصميم الأرضي لبعض المقابر الصخرية في غرب البحر المتوسط يشبه ذلك الطراز الذي تميزت به مصر في عصر الأسرة الثانية عشرة – وهكذا تشير الحقائق إلى أن وصول فكرة المدافن الصخرية إلى إسبانيا والبرتغال كان وثيق الاتصال باستغلال مصر وكريت بطريق مباشر أو غير مباشر لمصادر المعادن في هذين البلدين.

وبما أنه لم يعثر على القصدير في المقابر الصخرية والممرات الحجرية الموجودة في إسبانيا والبرتغال فإن هذا يشير إلى أن البلدين تعرضتا لنوع من الاستغلال أو بعبارة أخرى أن الشرق غزا الغرب، ولقد وجدت أشغال نحاسية في المقابر الصخرية والممرات الحجرية الكبرى في جنوب إسبانيا والبرتغال، غير أن الممرات الحجرية الأصغر حجما والأحدث تاريخا فقد وجدت خالية من هذا المعدن، ويصدق هذا أيضا على الذهب والفيروز الخشن وحجر اليشب، وكلها تستعمل في صنع الخرز والعقود، وقد وجدت في المقابر الصخرية والممرات الحجرية الكبيرة في الجنوب فقط ولم توجد في أي مكان آخر.

كل هذه الحقائق تبين أن الثقافة التي نقلها الشرق إلى الغرب لم تتوطد أقدامها فاندثر من العناصر الثقافية ما كان دخيلا أكثر من غيره، بينما بقيت العناصر الأقل شأنا كالأدوات الصوانية أو المعدات الحجرية المصقولة والأواني الفخارية وغيرها ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن جنوب إقليم بريتاني وخاصة إلى جوار خليج أمبيهان Gulf of Umbihan حيث وجدت طائفة من الممرات الحجرية الفخمة والأحجار القائمة والدوائر الحجرية وغيرها، مهما يشهد بأن ثقافة شبيهة بثقافة إسبانيا والبرتغال أدخلت هناك بصورة فجائية.

وقد استعمل هؤلاء القوم الذهب وحجر الشيب والفيروز الخشن – ولكنهم لم يستعملوا النحاس أو القصدير، ويبدو أنهم كانوا على علم كثير

بمواطن المعادن وأنهم عرفوا الأماكن التي أمكنهم البحث فيها عن الصخور المشتملة على حجر اليشت الأخضر الذي صنعوا منه فؤوسا جميلة تستعمل في أغراض دينية، وتحتوي المنطقة التي استوطنتها هذه الشعوب على طائفة من الصخور متماثلة الأصل مثل الفبروليت والكلورو ملانيت وغيرها وصنعوا منها بعض الأدوات .. غير أن العلماء الحديثيين لم يعثروا بعد على عروق حجر اليشب في ذلك الإقليم كما أنهم لم يعثروا على ما يعلل ذيوع حجر الفيروز الخشن الذي كان موضع حب هذه الشعوب القديمة.

وتعتبر هذه المجموعة من الآثار أرقى المباني الحجرية في إقليم بريتاني، وليس في بقية الإقليم إلا أنواع أقل تعقيدا في ثقافتها، فكانت الآثار أصغر ويفتقر أكثرها إلى الذهب وحجر اليشب والفيروز الخشن.

ولا يزال الذهب موجودا في هذه المنطقة فيشاهد مختلطا بالرمال على شاطئ جزيرة صغيرة تسمى "هوا" Houat على بعد أميال قليلة من مركز البقعة التي استوطنتها تلك الأقوام القديمة، ومن المحتمل أنهم ذهبوا إلى تلك المنطقة جريا وراء الذهب والصخور التي كانوا يصنعون منها أدواتهم .. أما القصدير فشأنه أكثر صعوبة ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن القصدير لا يزال موجودا في الرمال عند مصب نهر فلدين Vildine إلى الشرق من المنطقة المشار إليها هنا.

وفي بعض أنحاء بريطانيا أقامت أقدم الأقوام المنتجة للطعام ممرات

حجرية يطلق عليها هناك اسم "Long Barrows" وهي أشبه بمصاطب كبيرة تبنى فوق المدافن وغالبا ما تكون كبيرة الحجم – وتوجد واحدة منها في إقليم كنت الغربي West Kennet بمقاطعة ولتشر "Wiltshire" في وسط جزء من البلاد كان عظيم الأهمية في تلك الأيام كما يتضح من الخريطة رقم (٥)، وكان طول هذه المصطبة في الأصل ٣٣٦ قدما تقريبا وعرضها ٧٥ قدما وارتفاعها ثماني أقدام – وتحتوي على غرفة مشيدة من الكتل الحجرية الضخمة يصل إليها الداخل عن طريق ممر من الكتل الضخمة أيضا.

فمن ذا الذي استطاع أن يشيد أثرا ضخما كهذا في تلك الأزمنة الغابرة؟ أنا إذا ذكرنا أن هذا الأثر الذي يرجع عهده إلى ما قبل التاريخ يقع على بعد ميل تقريبا من أوسع دائرة حجرية لا في بريطانيا فحسب بل في أوروبا بأجمعها وتسمى آفبري Avebury، وإذا ما ذكرنا أيضا أن التل الضخم في سلبري Silbury لا يبعد عن هذا المكان إلا بضع مئات من الياردات وأن هناك علائم أخرى كثيرة تدل على أن الإقليم المحيط به كان موطنا من المواطن البشرية الهامة .. إذا ما ذكرنا كل هذا أصبح من الجلي أن القوم الذين شادوا هذه المجموعة الهائلة من الآثار الحجرية والطينية لا بد أنهم كانوا ورثة لحضارة على جانب عظيم من النظام.

والدوائر الحجرية في كل أنحاء العالم تستعمل في شتى الأغراض الاحتفالية واجتماعات المجالس والحفلات الدينية والألعاب والمواكب

وغيرها، وتتكون دائرة آفبري الحجرية من ستمائة حجر ويبلغ قطرها ربع ميل وهي محاطة بمرتفعات طينية كما يخف بها خندق وبها طرقات على جوانبها أحجار قائمة، ولا بد أنها كانت تستخدم مكانا لاجتماع جمهور كبير من السكان، ويرجح أنها بمظهرها هذا كانت عاصمة قديمة لبريطانيا، فمن ذا الذي كان أولا أو أخيرا صاحب هذه المجموعة البارزة من الآثار؟

منذ بضع سنوات قرر مستر كروفورد Mr. O. G. S. Crawford الأثري بمصلحة المساحة البريطانية في مقال له عن المصاطب الطويلة نشرته تلك المصلحة أن المصاطب الإنجليزية الطويلة Long Barrows مشتقة من طراز مدافن المصاطب المصرية، وقال أيضا أنه عثر في إحدى الحالات على عظام حيوانية في ذلك الجزء من المصطبة الإنجليزية الذي يقابل الحوش الأمامي للمصطبة المصرية، وواضح من هذا أن القوم كانوا يذبحون الأضاحي لإمداد الميت بالطعام كما كان الحال تماما في مصر عند تأدية الشعائر الجنائزية، ويضاف إلى ذلك أن غرفات الدفن نفسها تحتوي على ثقوب شأنها في ذلك شأن المصطبة المصرية، وأمام كل هذا من حقنا أن نسلم أن هذا الطراز من المصاطب الطويلة الإنجليزية له بعض الصلة بمدافن شرق البحر المتوسط، وهو في نهاية المطاف متصل بمصر.

ويجب أن نذكر أن مخلفات العصر الحجري القديم في بريطانيا وغرب أوروبا كانت تتركز حول مصادر الصوان كما أن بناة الممرات الحجرية في جنوب إقليم بريتاني كانوا يقيمون إلى جوار مصادر المواد الخام وهناك أمثلة

شبيهة بهذا في بعض بقاع إنجلترا كما يتضح من الخرائط رقم (٤)، (٥)، (٦)، أما الخريطة (٤) فهي خاصة بإقليمي دفون وكرنوول، وتبين توزيع الممرات الحجرية، واللحود الحجرية، والدوائر الحجرية، كما توضح مناطق التكوينات الجرانيتية في الإقليمين، ويستفاد منهما أن كل

هذه الآثار فيما عدا حالتين أو ثلاثة توجد في مواطن الجرانيت .. ولا شك أن هذه حقيقة بالغة الأهمية تثير السؤال عن السبب في اختيار الإنسان هذه الأماكن مقاما له .. وطبيعي أن الإنسان لم يستوطن كل منطقة من مناطق الجرانيت، فهو مثلا قد أهمل لسبب ما أو لغيره إقليم سانت أوستل مور St. Austell Moor ومع ذلك فالسؤال قائم يتطلب تفسيرا، ويقال في الإجابة عليه أن بناة هذه الآثار كانوا يفضلون الإقامة على المرتفعات التي تعلو على خمسمائة قدم، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا أهملوا اكسمور Exmoor كلية مع أنها مكان مناسب جدا لقوم يرفبون البراري المكشوفة، لا يبدو هذا التفسير كافيا، ويقال أيضا أنهم كانوا يشتغلون بالتجارة ولذلك كانوا يسلكون طرقا تجارية معينة وعند موتهم كانوا يدفنون في قبور قريبة من هذه الطرق، وأصحاب هذا الرأي سوف يجدون بعض الصعوبة في تفسير هذه الخريطة بما فيها من تحديد مواقع الآثار في أماكن معينة بالذات هي مناطق الجرانيت، والحق أن هذه المناطق الجرانيتية لا تضم آثارا جنائزية فحسب بل تشمل أيضا على مساكن حقيقية هي عبارة عن أكواخ مشيدة من الحجر على شكل دائرة، ويكثر

وجودها في دارتمور وإقليم لاندز اند Land's End

وتشهد مناطق دارتمور وبودمين مور وكامبورن مور ولاندز اند بشيء واحد هو صناعات التعدين وقد أنتجت خلال مئات كثيرة من السنين كميات كبيرة من القصدير والنحاس.

وهناك ما يبرر الاعتقاد بأن دارتمور ومناطق الجرانيت الأخرى كانت غنية جدا بالذهب إذ لا يزال هذا المعدن موجودا في القنوات التي تنبع من مناطق الجرانيت – وفي دفون وكورنوول يعتبر الجرانيت المصدر الوحيد للذهب والقصدير ولا وجود لأي من هذين المعدنين في أي مكان آخر.

والآن يصبح الاستنتاج واضحا، ففي بريطانيا آثار تشبه في طرازها مقابر النبلاء المصريين في أوائل عهد الأسرات .. والمعروف أن هؤلاء النبلاء كانوا على الدوام قواد الحملات التي كانت ترسلها مصر إلى البلدان الأخرى للحصول على الذهب والمواد الثمينة الأخرى، ومن المؤكد أيضا أن بناة الآثار الحجرية من المصريين عرفوا أن الذهب والقصدير يوجدان في إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا، كما أن الأكواخ الشبيهة بخلايا النحل التي صنعها المستوطنون في دارتمور تشبه المساكن التي شادها عمال المناجم المصريون في شبه جزيرة سيناء في عصر الأسرات الأولى، فمن المنطقي أن نستخلص من كل هذا أن بناة الآثار الحجرية في دفون وكورنوول كانوا يعملون في استخراج الذهب والقصدير والنحاس الموجود في هذه البلاد وأن عمال المناجم كانوا يلتزمون التقاليد المصرية في عملية التعدين.

وهناك شذوذ يعتبر دليلا فذا على قاعدة عامة .. فلقد ذكرت سابقا أن إقليم سانت أوستل مور خلو من الآثار الحجرية وكان من المستطاع إيجاد تعليل سهل لهذه الحقيقة لولا خطورة هذا الأسلوب في التعليل – أما تفسير هذه الظاهرة فليس من الأمور العسيرة، وسوف تظهره لنا الأيام مع شيء من الصبر، فهناك أسباب وجيهة تبرر خلو هذا الإقليم من الآثار الحجرية.

إن هذه المنطقة تنتج الآن أغلب كميات القصدير الموجودة في مناجم كورنوول ولقد استغلت على نطاق واسع خلال مئات السنين الأخيرة، ومعنى هذا أن القصدير كان موجودا منذ القدم تحت تصرف من يريد استغلاله من السكان القدماء فلماذا لم يقوموا بهذا العمل؟ وعندما عرضت المشكلة منذ بضع سنوات على الدكتور ولفرد جاكسون "Dr. Wilfrid Jackson" مساعد المشرف على قسم الجيولوجيا في متحف مانشستر أفاد أن أكثر الأمور احتمالا هو أن العروق المحتوية على القصدير كانت تغطيها طبقات من الكارولين الذي يوجد بكثرة في منطقة سانت أوستل مور بحيث يستعمل على نطاق واسع في صناعة الصيني وأشياء أخرى ويأتي جميعه من سانت أوستل مور.

وفي مذكرة مصلحة الجيولوجيا عند تناولها بالبحث هذه المنطقة توجد خريطة صغيرة تبين توزيع الكارولين وعروق القصدير، وفي كل حالة من الحالات تظهر عروق القصدير مغطاة بطبقة ضخمة من الكارولين يبلغ

عمقها أحيانا ثلاثين قدما، فمن الجلي إذن أن المنقبين القدامى كانوا أعقل من أن يشغلوا أنفسهم بالبحث في منطقة سانت أوستل مور بينما كان في مقدورهم أن يحصلوا على الكثير من الذهب والقصدير دارتمور دون تجشم المصاعب الجمة التي لا بد منها إذا أريد إزالة رواسب الكارولين الكثيفة التي تغطي عروق القصدير في سانت أوستل مور، هذا في نظري هو التفسير الافتراضي الوحيد لحالة سانت أوستل مور.

ويبدو أنه لزاما علينا أن نتخيل صورة لبناة الآثار الحجرية وقد اكتشفوا عالما يفيض بالذهب في كورنوول ودفون ففتحوا جنوب غرب بريطانيا لأول مرة، وبمرو الزمن جاءت وراءهم أقوام أخرى، ولقد لعب الفينيقيون دورا في هذا المضمار سوف نعرض له بعد قليل.

وهناك حالة أخرى في منطقة دربي شير توضح ارتباط مواطن الإنسان القديم بالتكوينات الجيولوجية، فهناك توجد المصاطب والدوائر الحجرية مقترنة اقترانا وثيقا بالصخور الجيرية الفخمة – وتوجد غالبا في أماكن منعزلة بحيث يقطع الإنسان أميالا عدة في أي اتجاه قبل أن يصادف آثارا حجرية أخرى.

ولهذا الارتباط أحد تفسيرين، الأول أن منطقة الصخور الجيرية الفخمة تتوفر بها مراعي الحيوان مما لا يتوفر في منطقة الأحجار الرملية المجاورة، والثاني أن منطقة الصخور الجيرية الفخمة يوجد بها معدن الرصاص الذي استغل خلال عصور طويلة تفوق الحصر.

وفي جهات أخرى من بريطانيا وإيرلندا يوجد من الشواهد ما يعزز الرأي القائل بأن السكان القدامى من منتجي الطعام في أنحاء مختلفة من البلاد كانوا يعملون في استغلال الموارد المعدنية إذ تقع مساكنهم إلى جوار مناجم الذهب والقصدير والرصاص والنحاس، وفي بعض الحالات كانوا يبحثون في مناجم الحديد عن الهيماتيت Haematite (حجر الدم) الذي كانوا يستعملونه في عمل الأصباغ.

وإذا نحن أحصينا المواد التي كان يستعملها بناة الآثار الحجرية في إنجلترا وويلز اتضح لنا أنهم إلى جانب استخراج المعادن كانوا يستخدمون في الصناعات المنزلية وفي أغراض الزينة أثناء إقامتهم في البلاد مواد كثيرة كحجر الكهرباء الأسود والكهرمان والمغرة والجرافيت وغيرها وأنهم كانوا يصنعون أدوات من الصوان والأحجار الصلبة الأخرى كالجرافيت والديوريت والهرنبلند مما كان يقتضي منهم البحث عنها وتداولها، وبمرور الوقت نشأت في البلاد نفسها اتصالات على نطاق واسع بين السكان استلزمت طرق تجارية يسلكها الناس في انتقالهم من محلة إلى أخرى.

وهذا يضر وجود الذهب والكهرمان الأسود في المصاطب المستديرة بإقليم ولت شير Wiltshire مع بعد الإقليم عن الموارد الطبيعية لتلك الأشياء، وعلى هذا فإلى جانب الحركة الرئيسية للثقافة التي انبعثت من الشرق القديم وأدت إلى قيام المستعمرات الأولى في غرب أوروبا قامت حركات أخرى أقل شأنا في أعقاب الحركة الأولى تتصل بأدوات الاستعمال

اليومي فاتحة قوم من الشرق أو تلاميذ لهم في غرب أوروبا إلى الأراضي البريطانية جريا وراء الذهب، وربما استوطنوا اسكنديناوة لما فيها من كهرمان كثير .. وما أن استوطنوا تلك البلدان وغيرها حتى بدأوا يعيشون عيشتهم الخاصة ويؤسسون بدورهم مواطن أخرى في مناطق مختلفة.

وأهم مثل للحركات الثانوية للثقافة هو تلك الحركة التي نجم عنها تدفق السكان على منطقة ولت شير ودورست في تلك الأيام الغابرة، وهي منطقة يوجد بها أكبر الآثار الحجرية في الجزائر البريطانية عند موقعي أيفبري وستون هنج – Avebury and Stonehenge ، وفي مقدور القارئ أن يعرف مدى اتساع رقعة السكان في ذلك الزمن بالاطلاع على الخريطة رقم (٥).

ولقد اقتصر هؤلاء السكان القدامى على استيطان مناطق ذات تكوينات جيولوجية خاصة هي المناطق الطباشيرية والصلصالية، ونستطيع أن نعلل اختيارهم للمناطق الطباشيرية بأن ظروف الحياة والاتصال كانت ملائمة لهم في تلك المناطق .. أما سبب تركزهم في أقاليم معينة من تلك المناطق الطباشيرية وإهمالهم النسبي لمناطق أخرى فهو توفر الصوان أو عدم توفره في تلك الأماكن شأنهم في ذلك شأن أهل العصر الحجري القديم، فالمشاهدة أن بناة الآثار الحجرية في كل بقاع إنجلترا وويلز كانوا يستعملون الأدوات الصوانية ولا بد أنهم كانوا يحصلون عليها من الجهات التي يستخرج منها هذا الصخر وأكثر تلك الجهات موضح على الخريطة رقم

(٥). والمشاهد أيضا أن في الطبقات الطباشيرية التي تكون فيها الصوان كما في براندن بإقليم سفوك وجريمز جريفز Grimes Graves وفي سسبري بإقليم سسكس Cissbury in Sussex يوجد الكثير من مناجم حجر الصوان التي يدل مظهرها على مبلغ المهارة التي كان يتمتع بها القوم الذين حفروها، ولا شك أن تلك المناجم بالإضافة إلى ما يمكن أن يسمى تجاوزا مصانع جورست وولتس Dorset and Wilts هي التي كانت تمد البلاد بالأدوات الصوانية، وحتى الممر الحجري المنعزل بجهة كتس كوتي Kit's coty فهو ملاصق لمحجر هام من محاجر الصوان ومن المحتمل أن تلك المادة الخام بوصف أنها كانت أعظم المواد فائدة للقوم وأكثرها استعمالا في الشئون المنزلية هي التي أدت إلى تركيز السكان في المناطق التي وجدت فيها.

وتبين الخريطة رقم (٥) أن المخلفات التي تركتها تلك الأقوام تنحصر دون استثناء تقريبا داخل حدود المناطق الطباشيرية ومن النادر وجودها في مناطق أحدث تكوينا.

ويتضح من ذلك التركيز الشديد للسكان حول المناطق الطباشيرية في تلك الأيام أن الحضارة الإنسانية إذ ذاك لم تكن قد خرجت بعد عن نطاق الصخور الطباشيرية، وكما هي الحال في العصر الحجري القديم كان اختيار الناس للمناطق الطباشيرية راجعا إلى احتوائها على كميات من الصوان – ورغم أن أهل ذلك الزمان نشأت لديهم حاجات جديدة

دفعت بهم إلى مناطق ذات تكوينات جيولوجية جديدة وقادتهم عبر البحار إلى بلاد جديدة إلا أنهم ظلوا متمسكين بالمناطق الطباشيرية بما فيها من الصوان الوفير شأنهم في ذلك شأن الناس في أيامنا هذه عندما يتجهون إلى المناطق الغنية بالفحم.

فالقاعدة العامة أن أية مدينة صناعية تتركز أكثر ما يكون حول موارد الخامات اللازمة لها — وما كان بناة الآثار الحجرية شاذين عن هذه القاعدة.

وفي حالة واحدة لا يمكننا أن نجد حلا كاملا للمشكلة، من المستحسن أن ننتبه لهذه الحالة الشاذة جيدا، ففي الخريطة رقم (٥) يلاحظ أن المصاطب الطويلة تقترن بالتكوينات الصلصالية، ولسنا ندري سبب ذلك حتى الآن.

لقد كان هؤلاء الناس يستعملون خام الحديد في الأصباغ، كما كانوا يستعملون المغرة وكبريتات الحديد في أغراض منوعة، وكل هذه المواد توجد في هذه التكوينات، وربما كان السبب في إقامة الناس إلى جوار التكوينات الصلصالية هو احتواؤها على هذه الخامات — وسوف تزيل البحوث المقبلة هذا الغموض.

وهناك شواهد كثيرة في أجزاء أخرى من أوروبا يمكن الاستدلال منها على أن بناة الآثار الحجرية كان يتوقف استيطانهم لبلد على ما يوجد بها من المواد المرغوب فيها.

ومن أحسن الأمثلة الواضحة على ذلك إقليم البلطيق حيث انحصرت مواطن بناة الآثار الحجرية في مناطق استخراج الكهرمان بصورة لا تدع مجالا للشك في الغرض من إقامتهم في تلك المنطقة، ويصدق المبدأ نفسه على الحالة في فرنسا وإسبانيا والبرتغال رغم أن توزيع الآثار الحجرية هناك لم يدرس بعد دراسة كاملة.

ولم يكن بناة تلك الآثار الحجرية إلا طليعة أقوام آخرين وفدوا من شرق البحر المتوسط، فالكريتيون أنفسهم كانوا على اتصال بالبلدان الواقعة إلى الغرب منهم، وهناك من الآثار البينة في جنوب شرق إسبانيا ما يدل على اتصال تلك البلاد بمنطقة بحة ايجه، ولا شك أن الهدف من ذلك الاتصال وكان استغلال الثروة المعدنية في شبه الجزيرة الإسبانية.

وعلينا الآن أن نترك هذه المسائل الجذابة الشائقة لنوجه الاهتمام إلى باقي نواحي النشاط في مصر – محور الحركة الثقافية.

الفصل الخامس

الحضارة القديمة وانتشارها

إن الحركة الثقافية – التي وصفناها بإيجاز في الفصول السابقة – وهي الحركة التي انبثقت من شرق البحر المتوسط ومن مصر أولا ثم اتجهت إلى غرب أوروبا ما هي إلا عملية واسعة النطاق تشمل العالم أجمع ويجدر بنا أن نوجه اهتمامنا ألان إليها.

وفي مقدورنا أن نبين أن أول المجتمعات المنتجة للطعام في كل أنحاء العالم خارج نطاق الشرق القديم وخاصة في تلك الجهات التي يسهل الوصول إليها بطريق البحر، كل تلك المجتمعات كانت تشبه في ثقافتها ثقافة مصر القديمة إلى درجة لا تجعل للشك سبيلا في أنها أخذت عنها، ومن موجات ذلك التأثير الثقافي تلك الموجة التي أوصلت بناة الآثار الحجرية إلى شواطئ بريطانيا – وهذه الحركة نفسها هي التي دفعت بناة الآثار الحجرية إلى شواطئ أمريكا، ولو أن العلائم هناك تدل على أن الحركة اشتقت من مصر في زمن تال أو بعبارة أخرى أنها اشتقت بطريقة مختلفة، وفي نفس الوقت ليس هناك مجال للشك في وجود علاقة ثقافية بين تلك المستعمرات المتناثرة على رقعة الدنيا بأسرها ولا في الأهداف المشتركة التي كان يعمل لها بناة الآثار الحجرية في ذلك المجال العالمي.

ولتفهم معنى تلك الحركة الثقافية العالمية يجب علينا أن نتتبع تطور الثقافة المصرية خلال الأسرات الست الأولى، وأول شيء جدير بالملاحظة

ذلك الحدث الذي طبع كيان مصر الاجتماعي والسياسي بطابع جعله مميزا عن الحضارات القديمة الأخرى في بلاد الشرق القديم، فقبل تأسيس الأسرة الأولى كانت مصر تتكون من مملكتين منفصلتين لكل منهما ما يميزها عن الأخرى، وهما مصر العليا ومصر السفلى، وفي عهد الأسرة الأولى اتحد القطران ومع هذا لم ينس المصريون قط أن بلدهم ثنائي ولو كان متحدا.

فملك البلاد كان لقبه دائما ملك مصر العليا والسفلى تحميه آلهة القطرين معا وكان يعيش في قصر مزدوج ويملك بيتي مال، كذلك كان الاحتفال بتتويجه ثنائيا فيتوج مرة على مصر العليا وأخرى على مصر السفلى كما أن تاجه وصولجانه وسائر مظاهره الملكية كانت جميعها ثنائية، وبالمثل كان منصب كبير الكهنة في كل من معبدي ممفيس وهليوبوليس يشغله كاهنان، وهناك أمور كثيرة تظهر بجلاء أن المصريين كانوا يعتبرون مملكتهم مسألة ثنائية، ولقد سيطرت هذه الفكرة على أذهانهم إلى حد أن الأواني التي كانوا يقدمون فيها المشروبات للآلهة كانت ذات فوهتين يتدفق منهما السائل في وقت واحد لشطري البلاد، ولقد تأثر الفن المصري تأثرا عميقا بثنائية النظام السياسي .. فهناك مثلا تلك الرسوم التي يزخر بها الفن المصري مصورة في كل حالة حيوانين متقابلين كأنما تمثل بذلك ثنائية مصر.

ومن أعظم الأمثلة لتلك الثنائية ما يشاهد من رسوم على طرف

صندوق وجد في مقبرة توت عنخ آمون أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة حيث يتمثل الملك نفسه في صورة أسدين لهما رأسان بشريان متقابلان، ولقد انتقل هذا الطراز من الفن إلى كل أنحاء العالم وأصبح طابعا خالدا لثنائية مصر القديمة.

وثمة دليل آخر على أثر مصر في حضارة عيلام وسومر وكريت وهو أن تلك البلاد قد حاكت في زخارفها النماذج المصرية للحيوانات متقابلة الرؤوس، وإذا كان وجود هذه الأنماط في مصر أمرا طبيعيا يتصل اتصالا مباشرا بالكيان السياسي للبلاد فإن الوضع غير ذلك في البلاد آنفة الذكر على قدر ما عرف عنها حتى الآن.

والواقع أننا لا نستطيع أن نقلل من قيمة تلك الثنائية الواضحة في النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي كدليل عظيم الأهمية على أثر المصريين في غيرهم من الشعوب، فمن الهند إلى أمريكا امتزج نسيج المجتمع القديم دائما بفكرة الثنائية، وكلما ازداد علمنا بتلك المجتمعات القديمة أصبح وجه الشبه بين بعضها البعض أكثر وضوحا، والحق أن النظام الثنائي للمجتمع هو نوع من النظم يفرض فرضا، فإذا ظهر في أية بقعة نائية من بقاع العالم فإن هذا وحده يكفي دليلا على وجود نفوذ المصريين في ذلك المكان.

وفيما يختص بعناصر الثقافة الأخرى فإن المقابر من طراز المصاطب بعد أن كانت هي مدافن الملوك والنبلاء في عهد الأسرتين الأولى والثانية

فإنها لم تظل مدافن ملكية مدة طويلة .. فقد استمر دفن النبلاء في المصاطب خلال عهود أسرات كثيرة بينما درج الملوك منذ بدء الأسرة الثالثة وما بعدها على بناء الأهرام مدافن لهم، ويعتبر هذا عصر من أعظم عصور التاريخ البشري – ولقد كان "زوسر" أول ملوك الأسرة الثالثة أقدم ملك بنى مقبرة هرمية، وقد بدأ ذلك ببناء مصطبة حجرية ضخمة كان لا يشك يرمي إلى جعلها مدفنا له، غير أنه لسبب من الأسباب بنى فوقها مصطبة ثانية ثم مصطبة أخرى وهكذا حتى أصبح البناء أخيرا ما نسميه هرما مدرجا ويتكون من ست مصاطب كل واحدة منها أصغر من المرتكز عليها، ويعتبر هذا أقدم أثر من الحجر عرفه التاريخ – أما المقبرة الملكية التي تلت هذا فقد كانت على شكل هرم مستوي الجوانب، وظل ملوك عدد من الأسرات بعد ذلك يدفنون في أهرام شيد أضخمها في عهد الأسرة الرابعة حيث بلغ بناء الأهرام ذروته.

وقد يكون لبناء الأهرام دلالة أعظم من مجرد اتخاذها نوعا جديدا من المقابر، فهي الطابع الخارجي الظاهر لحركة كان لها أعظم النتائج في العالم أجمع، تلك الحركة التي وصلت إلى أوجها في بدء عهد الأسرة الخامسة حين تولى السلطة في البلاد سلالة من الملوك يتصلون بهليوبوليس مركز عبادة الشمس ويطلق عليها اسم "أبناء الشمس".

وهناك من العلائم ما يدل على أنه كان لكهنة هليوبوليس نفوذ يسري في الشئون المصرية قبل اعتلائهم العرش، إذ بالرغم من أن النطق

الملكي خلال عهد الأسرات الأربع الأولى قد خلا من ذكر إله الشمس "رع" أكبر آلهة هليوبوليس إلا أن بعض الملوك وخاصة في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة وهو العصر الذهبي لبناء الأهرام كانت أسماؤهم تحتوي على مقطع "رع"، ويضاف إلى ذلك أن النصوص الموجودة في أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة (وهي أقدم ما عرف من نصوص) تحتوي على إشارات كثيرة إلى إله الشمس والآلهة الأخرى التي تدور في فلكه في حين أن مقابر المصاطب قد خلت تمام من أي ذكر مباشر لذلك الإله، وهذا يعني في نظرنا أن ظهور الأهرام صحبته ثورة شاملة في آراء الطبقة الحاكمة عن الدين والحياة الآخرة، ومن الجائز أن تلك الطبقة الحاكمة كانت قد اعتنقت ديانة هليوبوليس القائمة على عبادة الشمس، تلك الديانة التي كانت تعد أصحابها بمباهج حياة الآخر في السماء بصحبة إله الشمس وبمزايا كثيرة أخرى لا يستطاع الحصول عليها من طريق آخر، ويبدو أن اعتناقهم لهذه الديانة قد اكتمل بعد عهد الأسرة الخامسة لأن كل ملك جاء بعد ذلك كان يسمى "ابن الشمس" وبينما اقترنت الأسرة المالكة في هذا الوضع بالسماء كان باقي أفراد المجتمع يذهبون إلى أرض الموتى الأكثر قدما وهي تلك التي أصبحت تسمى فيما بعد العالم السفلي، وهكذا أصبح المجتمع بعد الموت منقسما.

وفي عهد الأسرتين الثالثة والرابعة كانت العاصمة الملكية مدينة ممفيس أما في عهد الأسرتين الأولى والثانية فقد كانت مدينة أبيدوس في

مصر العليا، وكان الغرض من بناء ممفيس على الحدود بين الوجه القبلي والوجه البحري أن تكون قلعة تشرف على الدلتا وتضمن بقاء النظام مستتبا فيها ثم أصبحت عاصمة البلاد في بدء الأسرة الثالثة وظلت كذلك حتى قامت الأسرة الخامسة التي بدأ ملوكها يلقبون أنفسهم "أبناء الشمس"، غير أنه في عهد هذه الأسرة والأسرة التالية قامت في البلاد حالة عجيبة انتشرت بعد ذلك خارج مصر نتيجة لنفوذ المصريين.

ففي عهد الأسرتين الثالثة والرابعة كان الملك يحكم البلاد غير أن المهمة الأولى لمنصبه الملكي كانت المحافظة على عبادات الآلهة وخاصة أوزوريس الذي كان والد الملك بعد موته وتحنيطه ويعتبر قرينا له، أما الإدارة المدنية للبلاد فقد كانت من اختصاص الوزير وهو أكبر أبناء الملك وولي عهده حتى إذا اعتلى العرش كان على إلمام تام بإدارة شئون الدولة.

ولكن عندما تولت أسرة هليوبوليس مقاليد الحكم في بدء عهد الأسرة الخامسة حدث تغير في طريقة إدارة الدولة فلم يعد ولي العهد هو وزير البلاد بل أصبح الذي يشغل هذا المنصب أحد أعضاء أسرة نبيلة من أسرات ممفيس وكان يحمل عادة اسم "تاج" إله ممفيس، ولم يحدث خلال عهد الأسرتين الخامسة والسادسة أن شغل أحد أعضاء الأسرة المالكة منصب الوزير، ومع ذلك ففي نهاية عهد الأسرة الخامسة كانت هناك علاقة وثيقة بين الأسرة المالكة وأسرة الوزير، ففي كل الحالات التي وصلت إلى علمنا كان الوزير يتزوج أحدى الأميرات وأكثر من هذا أن

الملك نفسه كان في بعض الأحيان يتزوج أحدى سيدات أسرة الوزير، ومن شأن هذا التبادل أن يقوي مركز الطبقة الحاكمة وربما كان يحول دون وقوع منازعات.

أما أسلوب الحكم في مصر القديمة فأغلب الظن أنه كان قائما على نظام المجالس، فالوزير كان له ديوان ويتبعه مجلس يساعده في شئون الإدارة، وكانت البلاد مقسمة إلى أقسام إقليمية تسمى مديريات يهيمن على كل منها حاكم كان يختاره الملك في عهد الأسرات الأربع الأولى من بين أقاربه، وفي عهد الأسرة الخامسة تمكن حكام المديريات من جعل منصبهم وراثيا، الأمر الذي كان من أسباب ضعف جهاز الدولة في مستهل عهد الأسرة، وكانت كل مديرية تتميز عن الأخرى برمز من الرموز أما رمز حيوان أو نبات أو أي شيء مادي، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن كل مديرية كانت تضم من الوجهة النظرية على الأقل جماعات من الأقارب.

وفي مقدورنا الآن أن نلخص حالة مصر في عهد الأسرة السادسة تلخيصا تقريبيا فيما يلي:

كانت البلاد تتكون من جزئيين متميزين ينقسم كل منهما بدوره إلى عدة أقسام إقليمية يحكم كلا منها أحد النبلاء حكما وراثيا ويميز كلا منها عن الآخر رمز من الرموز، وكان الملك أحد أبناء الشمس وهو إله متجسد كما كان في نفس الوقت كاهن عبادة إله الشمس، أما الإدارة المدنية فقد كانت يشرف عليها الوزير وهو عادة أحد أعضاء أسرة بينها وبين الأسرة

المالكة تزاوج ولكنه لم يكن يوما أحد أعضاء الأسرة المالكة، وتقوم المجالس بالإدارة الفعلية، وكان من عادة الطبقة الحاكمة أن تحنط موتاها أما بقية الشعب فكانوا يدفنون موتاهم في وضع جاثم، وبعد الموت كانت الأسرة المالكة تذهب إلى السماء أما باقي أفراد المجتمع بما في ذلك النبلاء فإذا كان لهم مكان يذهبون إليه فقد كان ذلك المكان هو أرض الموتى التي يحكمها أوزوريس، وكان مورد البلاد من الغذاء هو الحقول التي تقوم زراعتها على الري وكذلك الحيوانات المستأنسة، وكانت الفنون والحرف على مستوى عال من الرقي.تلك كانت حالة البلاد في عهد الأسرة السادسة.

ومنذ عهد الأسرة الأولى على الأقل درج ملوك مصر على إرسال حملات إلى البلدان الأخرى للحصول على كميات من الذهب والعاج ومواد القلقونية وخشب الأرز وغيرها، والواقع أنهم كانوا يستعملون عددا وافرا من المواد التي لا شك في أنهم كانوا يجلبونها من خارج البلاد، وفي أقدم محاولاتهم هذه أفلحوا في تأسيس حضارات في أماكن مختلفة أخذت تنمو فيما بعد وفق أساليبها الخاصة وتتخذ لنفسها طابعا خاصا بها.

وقبل أن نبدأ في وصف تلك الموجة الثقافية العاتية التي تحركت شرقا صوب أمريكا أحب أن أصف أحدى النتائج التي يحتمل أن تكون قد نجمت من تلك المحاولات الجريئة التي قام بها المصريون في عهد بناة الأهرام وهي نتيجة لها أهمية عظمى بالنسبة لكافة المهتمين بالتاريخ القديم للحضارة.

فالمعروف أن المصريين ظلوا قرونا كثيرة يوفدون حملات إلى شاطئ سوريا، ولست أقصد بذلك أنهم كانوا يتجرون مع سكان الشاطئ بل أعني أنهم كانوا يذهبون بأنفسهم إلى تلك البلاد للحصول على خشب الأرز وأشياء أخرى، وقد اكتشفت أخيرا في مدينة بيبلوس Byblos أنقاض معبد مصري يرجع إلى عهد الأسرة الثالثة المصرية، ومدينة بيبلوس هذه هي التي شاهدت موت أدونيس Adonis وهو بطل قصة لها صلة وثيقة بقصة أوزوريس المصرية لأن أوزوريس ملك مصر قتل بيد ست Set ووضع في صندوق طفا على وجه الماء حتى بلغ البحر حيث دفعته المياه أخيرا إلى مدينة بيبلوس، وتدل هذه الحقائق على وجود علاقة قوية بين مصر وبيبلوس، وخرافة أدونيس هذه هي من قصص الفينيقيين الذين كانوا يعيشون في الأزمنة التالية على شاطئ سوريا وفي جزيرة قبرص، ويدعى الفينيقيون أنفسهم أنهم جاءوا من جزائر البحرين في الخليج الفارسي وهي مركز هام لصيد اللؤلؤ، ويدل كيانهم الجسماني كما يقول الأستاذ اليوت سمث على أنهم وجدوا في ذلك الإقليم نتيجة للاختلاط بين الجنس الأرمني وجنس البحر الأبيض.

أما ثقافة الفينيقيين وسلالتهم من القرطاجينيين فهي شبيهة بثقافة مصر في عهد الأهرام حين كان المصريون يعيشون فعلا على الشاطئ السوري إلى درجة لا يقوم معها شك في أنها مشتقة منها، فالمدن الفينيقية كانت ثنائية التقسيم ومثل ذلك مدينتا صور وصيدا، ومن المحتمل أن

هاتين المدينتين كانتا تضمان مجتمعين يناصب كل منهما الآخر عداء كما هو الحال في كل الأنظمة الثنائية فب العالم إلا أن كلا منهما كانت تنقسم إلى جزأين جزء يقوم على البر وجزء يقوم على جزيرة إزاء الساحل شأنهما في ذلك شأن مدينة قرطاجنة.

وإلى جانب ذلك التشابه العظيم بين ثقافة مصر وثقافة الفينيقيين فإن هؤلاء كانوا على اتصال وثيق بمصر إذ كانوا يقومون بحمل السلع منها وإليها، وقد ورد وصف لنشاطهم التجاري هذا في الفصل السابع والعشرين من سفر حزقيال وهو من أهم فصول التوراة، وبالاطلاع على ما جاء في هذا الفصل نستطيع أن نكون فكرة واضحة عن مكانة الفينيقيين في تلك الأيام، ولقد سار الفينيقيون في واقع الأمر وفق التقاليد المصرية القديمة فكانوا يرسلون على الدوام حملات إلى الخارج لجلب المواد الثمينة ويبذرون بذور ثقافتهم الخاصة حيثما أقاموا مستعمراتهم، وهم في هذا الوضع مثل رائع لامتداد الثقافة المصرية إلى العالم الخارجي نتيجة للحملات المصرية إلى الشاطئ السوري.

ويقودنا موضوع الفينيقيين إلى بحث مسألة أخرى، فهناك طريق تجاري يمتد من صور على شاطئ سوريا إلى "صافد" Safed الواقعة إلى الشمال الغربي من بحر الجليل في وسط إقليم يشتهر بغناه في مادة القار Bitumen وبمناجم الرصاص والنحاس، ويوجد في هذا الإقليم إلى جانب ذلك مساحات تحتوي على ممرات حجرية، الأمر الذي يقوم شاهدا على أن بناة

الآثار الحجرية كان لهم نشاط جم في تلك المنطقة فيما مضر من الأيام، ولقد أقام هؤلاء الناس أنظمة للري ومدرجات مزروعة على منحدرات التلال تحف بها الأحجار كما بنوا أبراجا مستديرة للحراسة كتلك التي توجد في أماكن التعدين المختلفة في سردينا وبيرو وبريطانيا وكانوا يعيشون في أكواخ حجرية مصفوفة على شكل دائرة كما في سيناء وبريطانيا ويحمون مستعمراتهم هذه بحصون حجرية كما كان الحال في المناجم المصرية بسيناء، وبما أن مدينة صور كانت على اتصال قوي بذلك الإقليم فهل الذي حدث أن الفينيقيين أخذوا من هناك أو من المصريين أنفسهم عادة بناء الآثار الحجرية؟ وهل كانت فينيقيا التي تأثرت إلى هذا الحد بالنفوذ المصري هي مركز الثقافة الحجرية لغرب أوروبا؟ من الجائز أن يكون الأمر بذلك، ولكن سواء حدث هذا أو لم يحدث فلا شك أن فينيقيا وهي أعظم أمة تجارية في التاريخ القديم لم تكن من الناحية الثقافية أكثر أو أقل من طفل أنجبته مصر.

وإذا نحن استعرضنا تأثير اتصال المصريين بغيرهم من الشعوب الواقعة إلى الشرق منهم تكشفت لناقصة عجيبة يكتنف الغموض فصولها الأولى، غير أننا نستطيع أن نكون عنها فكرة سليمة إلى حد كبير، وعلينا أن نذكر أن ملوك المصريين منذ عهد الأسرة الأولى على الأقل درجوا على الاتصال ببلاد بنت والبلدان الواقعة إلى جنوبهم لاستحضار الذهب والقلفونية والريس والعاج وغيرها من المواد الثمينة — وظلت هذه الحركة متجهة

جنوبا في سفن تمخر عباب البحر الأحمر زمنا لا يقل عن ستمائة سنة من الأسرة الأولى إلى السادسة، وكان هدف ذلك النشاط هو الاستغلال، فهل يعقل أن المصريين خلال تلك العصور الطويلة لم يحاولوا الأبحار حول ساحل بلاد العرب إلى شواطئ الخليج الفارسي ثم إلى الهند حيث يجدون على شاطئ مالابار كميات هائلة من اللؤلؤ والذهب وأنواعا أخرى كثيرة من المواد الثمينة؟ إن هذا النشاط التجاري يمكن أن نعتبره تعليلا لقيام الحضارة في سومر وفي بلاد الهند من بعدها.

ومن الأمور التي لها مغزاها أن الأسرة الكبرى التي حكمت الهند القديمة كانت تسمى أبناء الشمس وأنها نشأت في وادي السند وهو أبعد منطقة في بلاد الهند إلى الغرب، كما أن الكثير من المراكب الهندية بها من العلائم الواضحة ما يؤيد أنها أخذت عن نماذج المراكب المصرية في عصر الأهرام.

وهذه الحقيقة الأخيرة تؤكد تأكيدا قويا وجهة نظر تقوم على مجرد البداهة والمعرفة العادية لعادات الإنسان.

ولا بد أن ذلك النشاط المصري الذي دام عدة مئات من السنين كانت له نتائج شديدة التعقيد ولهذا يجب ألا نتوقع أن نفوذ المصريين في بلاد الشرق كان واحدا في طبيعته بل المعقول أن كل تغير في ثقافة مصر كان يتبعه تغير في تأثير تلك الثقافة خارج البلاد فإذا كان المصريون وتلاميذهم قد أرسلوا حملات إلى خارج ديارهم فلا بد أن نتائج تلك

الحملات كانت شديدة الاختلاف، ومثل ذلك أن الدكتور فوكس Dr. C. E. Fox اكتشف أخيرا في سان كريستوفال من جزائر سولومون ثقافة مصرية صميمة تعود إلى عصر الأهرام، وكان من شأن هاذ الاكتشاف العظيم الأثر أن المرحوم دكتور ريفرز Dr. Riversسلم تسليما قاطعا بوجهة نظر الأستاذ اليوت سمث أن لمصر المكانة العليا في تاريخ العالم الثقافي، أما تفاصيل هذا الاكتشاف فهي أن الطبقة الحاكمة في بعض أجزاء سان كريستوفال يبنون مقابر من طراز المصطبة المصرية الصميمة وفي كل منها حفرة منحدرة يضعون في قاعها الجثة المحنطة، وهذا النوع من المقابر لم يظهر في مصر إلا في عصر الأهرام وكان تطوره إلى هذا الطراز نتيجة لحوادث خاصة حدثت في مصر.

ويضاف إلى ذلك أن أصحاب هذه المقابر يقيمون فوق المصطبة بناء حجريا يضعون تحته تمثالا يظهر فيه الشعر معقوفا إلى الخلف – وهذا النوع من التماثيل مصري أكيد ويعود إلى عصر الأهرام كما أن كثيرا من معتقداتهم وعاداتهم ترجع إلى عصر بناء الأهرام في مصر – وتعليل هذا أن قوما من مصر وصلوا بطريقة ما أو بغيرها إلى جزائر سولومون في زمن غابر ربما كان عصر الأهرام نفسه وأسسوا حضارة هناك، والمعروف حتى الآن أنه لا يوجد أثر لهذا النوع من المصاطب أو لتلك التماثيل في المناطق الواقعة بين البلدين، فكسف وصل القوم إلى هناك؟ هل لنا أن نعتقد أن أولئك الناس كانوا فعلا من المصريين في عصر بناة الأهرام وأن سفنهم

تحطمت أثناء رحلة من رحلاتهم عند شواطئ هذه الجزيرة فأقاموا هناك وارتضوا العيش كما هيأته لهم الظروف؟ أي تفسير آخر يمكن أن تفسر به هذه الحقائق؟

ومن ناحية أخرى يقرر الأستاذ اليوت سمث أن طريقة التحنيط في منطقة تورس Torres Straits تماثل الطريقة المصرية في عهد الأسرة الحادية والعشرين وأن القوم هناك مارسوا فن التحنيط بطريقة لم يصل إليها المصريون إلا في قرون طويلة.

وهذا يعني أن الاتصال بين البلدين حدث بعد ذلك بزمن طويل، ولذا فمن واجبنا عند التفكير في التاريخ الثقافي لأقاليم مثل مناطق المحيط الهادي أن نهيئ أذهاننا لكل التطورات، ويجب أن نذكر أن القدماء كانوا يملكون سفنا كبيرة مكنتهم من قطع مسافات طويلة، وحتى سكان بولينزيا The Polynesians كان لهم مراكب تحمل الواحدة منها مائتين من الناس، وبمثل هذه المراكب الكبيرة الحجم يستطيع الإنسان أن يذهب إلى أي مكان لأن المراكب التي عبرت المحيط الأطلنطي لأول مرة كانت أقل من هذا الحجم بكثير.

ومن الممكن أن تحدث أمور كثيرة نتيجة لاتصال الجماعات الإنسانية خلال آلاف السنين، ومن أطرف المشكلات التي أثارتها بحوث كتلك التي يتضمنها هذا الكتاب مشكلة نوع من النبات يسمى في منطقة المحيط الهادي التارو Taro (من فصيلة القلقاس) وهو أقدم نبات غذائي في

أرخبيل الهند الشرقي وفي منطقة المحيط الهادي إذ كان موجودا هناك قبل إدخال الأرز وكانت تستعمله أول الجماعات المنتجة للطعام في إندونيسيا وأوشيانيا غذاء رئيسيا كما لا يزال كثير الاستعمال هناك، وهذا النبات من نباتات الهند، فما القول إذا وجدناه شائعا في مصر وأوغندا وغرب إفريقيا وكلها بلاد إفريقية بعيدة جدا عن وطنه الأصلي؟ إن التفسير الوحيد الذي يقبله العقل هو أن الرحالين القدامى ساقتهم الأسفار إلى تلك البلاد فأحضروه معهم عند عودتهم إلى مصر والأماكن الأخرى كما أحضر الرحالة رالي Raleigh البطاطس من بيرو، إن مثلا كهذا كفيل بأن يلقي ضوء عظيما على ما حدث من اتصال قديم بين مناطق من العالم تبعد عن بعضها كل البعد.

ونتيجة لهذا الاتصال القديم ظهرت سلسلة من الجماعات الإنسانية فيما بين الهند وأمريكا تملك كلها ثقافات شديدة الشبه في كل الأسس التي تقوم عليها بالثقافة المصرية في عصر الأهرام، ولسهولة البحث أطلقت على هذه الحضارة العالمية القديمة اسم الحضارة البائدة Archaic Civil Isation فإذا بدأنا من الغرب واتجهنا صوب الشرق فإن أول بلد نتناوله بالبحث هو الهند حيث توجد ممرات حجرية كثيرة Dolmens ودوائر حجرية ومقابر منحوتة في الصخر تذكرنا بما يوجد منها في أوروبا وسوريا وأماكن أخرى.

كان بناة هذه الآثار رجالا ذوي قدرة وكفاية لا يهمهم كثيرا أن ينقلوا كتلا حجرية تزن الواحدة منها مئات الأطنان عبر أميال عدة من الأرض الوعرة ليجعلوا منها أغطية حجرية لمقابرهم، ولقد استخرجوا الذهب من مناجمه وتوغلوا في محاجر الكوارتز (صوان شفاف متبلور أو بلور صخري) إلى عمق ستمائة قدم تحت سطح الأرض وطحنوا كل أوقية منه بأيديهم في طواحين حجرية خلفوا الكثير منها ملقى على الأرض .. وعندما أعاد الأوروبيون اكتشاف هذه المناجم منذ بضع سنوات وفتحوها من جديد تعرضوا لسخرية الوطنيين من أهل البلاد لأنها كانت من القدم بحيث لم يعد لها ذكر بين مخلفات الماضي، ولذا كانوا يعتبرون المجهودات المضنية التي يبذلها الأوروبيون في فتحها مجهودات ضائعة، وكان الباحثون عن الذهب من القدامى أول منتجين للطعام وطئت أقدامهم أرض الهند، ولا شك أنهم وجدوا البلاد تقطنها قبائل من جامعي الطعام يطلق عليهم علماء الأجناس اسم البر يدرا فيديان Predravidian وهم يشبهون جماعات الفيدا في سيلان وبعض قبائل الغابات في جنوب الهند، وسرعان ما اكتشف هؤلاء الباحثون عن الكنوز المواقع الهامة للذهب والنحاس وغيرهما فأقاموا مساكنهم إلى جوار هذه المواقع ثن أنشأوا أنظمة للري تمكنهم من زراعة نباتاتهم الغذائية، وفي هذا الصدد يقول الميجر من Major Munn مفتش المناجم في حكومة نظام حيدر أباد أنه ما برح يجد منذ سنة ١٩٠٨ مناجم قديمة للذهب والنحاس مقترنة دائما بآثار حجرية وانه لم يعثر على أيهما بمعزل عن الآخر. وبهذا لا يبقى الكثير من الشك

في أن الحصول على الذهب والمعادن الأخرى هو الذي استهوى القدامى إلى الذهاب إلى الهند.

ولقد توصل بناة الآثار الحجرية في الهند إلى اكتشاف عظيم، ففي حيدر أباد وأماكن أخرى جدوا على سطح الأرض كميات كبيرة من الحديد جيد النوع بحيث يصلح من الوجهة العملية لأن يكون صلبا طبيعيا، وواقع الأمر أن السيوف الدمشقية صنعت من هذا المعدن، وسرعان ما تبين أصحاب هذه المدنية البائدة قيمة معدن الحديد وبدأوا يصنعون الأدوات منه، وهذا هو السبب في وجود الكثير من مساكنهم ومساكن القبائل الوطنية التي أخذت ثقافتها عنهم واقعة إلى جوار المصادر الهامة للحديد.

ومن أمثلة ذلك أن إقليم سالم الشهير بمعدن الحديد يزخر بالممرات الحجرية والحلقات الحجرية، وهناك أيضا قبيلة كاسي Khasi في أسام وهي من القبائل الوطنية الشهيرة بآثارها الحجرية ومصنوعاتها الحديدية، فقد استثرت تلك القبيلة في منطقة من أسام يكثر بها الحديد الخام، وهكذا لم تقتصر شعوب الهند على الإقامة في الأماكن التي يستخرج منها الذهب والنحاس بل تعدت ذلك إلى مواطن استخراج الحديد أيضا، وبمرور الزمن انتقلت حرفة الصناعة الحديدية أكثر فأكثر صوب الشرق حتى أننا نجد سكان إندونيسيا وبورنيو وسلبيز وغيرها يصنعون الأشياء من الحديد — ويقال إن أهل سلبيز تعلموا هذه الحرفة من أجانب مهرة كانوا يبنون الآثار الحجرية أي أنهم من أصحاب الحضارة البائدة.

ويؤدي البحث في النظام السياسي والاجتماعي للشعوب الهندية أننا كلما اقتربنا من نشأتها اتضح لنا أكثر من ذي قبل أن نظامها الاجتماعي القديم كان قائما على تنظيم ثنائي كذلك الذي كان سائدا في مصر.

فالبلاد الواقعة تحت حكم النايار Nayars على شواطئ مالابار وهو إقليم توجد به مقابر صخرية من الطراز المصري وتكثر به الممرات الحجرية ومواقع المناجم القديمة – تلك البلاد نجدها منقسمة إلى جزأين شمالي وجنوبي لكل منهما لونه الخاص ويتكون كل منهما من عدة أقسام إقليمية – ويعتبر الجزء الشمالي في مرتبة أرقى من الجنوبي، وبالإضافة إلى ذلك كان أتباع رؤساء النايار فيما مضى منقسمين إلى جماعتين متعادلتين.

وانقسام السكان إلى قسمين متنازعتين ظاهرة شائعة جدا في جنوب الهند، ولا شك أن البحث سوف يبين أنها ظاهرة عميقة الجذور، ففي إقليم ميسور مثلا تنقسم الطبقات إلى جماعتين متعادلتين تشيع بينهما روح الحروب الحزبية، وفي بعض الجهات نرى لكل جماعة مكانا خاصا لاجتماعاتها – أو مدخلا خاصا بها إذا كان مكان الاجتماعات مشتركا بينهما، وهذا الازدواج في المجتمع الهندي يشاهد أيضا في أسام بين القبائل الحالية كقبيلتي آبور وناج The Abor and the Nage كما كان يوجد في الممالك القديمة مثل مملكة آهوم Ahon غير أن هذا النظام قد أصبح نظاما متداعيا سواء في هذه البلاد أو في غيرها.

وللهند أهمية خاصة في دراسة الحركات الثقافية القديمة لأنها كانت

الموطن الأصلي الذي استقت منه شعوب بولينزيا تقاليدها، ففي جنوب الهند توجد طبقة اجتماعية تسمى بارافاس Paravas يشتغل أعضاؤها بصيد اللؤلؤ في خليج مانار، وهم من جنس بولينيزي صميم وينتمون إلى نظام اجتماعي ثنائي، شأنهم في ذلك شأن طبقات أخرى من جيرانهم مثل طبقة باريا Pariahs وأهمية هذه الجماعات البولينيزية المشتغلة بصيد اللؤلؤ[1] تنحصر في حقيقة عامة هي أن كل موقع من مواقع صيد اللؤلؤ من جزيرة سيلان إلى أمريكا بل وفي أمريكا نفسها به آثار واضحة لنوع من الحضارة شديد الشبه بحضارة مصر في عصر الأهرام، أما حملة هذه الحضارة البائدة إلى بلاد المحيط الهادي فهم أسلاف البولينيزيين، وثمة ناحية أخرى أكثر أهمية فيما يختص بهؤلاء البولينيزيين وهي أنهم ينتمون إلى حد ما من حيث بنائهم الجسماني إلى نفس الجنس الذي ينتمي إليه الفينيقيون الذين نشأوا على حد قول الأستاذ اليوت سمث من خليط من شعوب كانت تعيش في لإقليم الخليج الفارسي، وهو أيضا من أهم مصائد اللؤلؤ، كل هذه الحقائق تجعل في مقدورنا أن نتخيل طبيعة انتشار الحضارة صوب الشرق .. فقد اتجهت بطريق البحر من مكان لصيد اللؤلؤ إلى آخر حتى بلغت أمريكا وهناك انتشرت بدورها في كل مصائد اللؤلؤ المتناثرة حول القارة الأمريكية.

---

[1] يلاحظ أنه في كثير من بقاع الأقيانوسية لا يستعمل الوطنيون اللؤلؤ نفسه بل أصداف اللؤلؤ .. فإذا ما تحدثت عن مصائد اللؤلؤ فيجب أن يكون مفهوما أن الصيادين يقصدون هذا أو ذاك، وفي الأقيانوسية وأمريكا وآسيا يكثر استعمال أصداف اللؤلؤ في المناسبات الرسمية.

وطبيعي أن هذه الحضارة قد توغلت في بعض الحالات إلى داخل البلاد كما حدث في الهند حيث أقام أصحابها مساكنهم إلى جوار مناطق التعدين.

ولقد بدأ رسل هذه الحضارة البائدة من الهند واتجهوا صوب المحيط الهادي عن طريق إندونيسيا مخلفين وراءهم آثارا لا تزال تشاهد إلى الآن، ففي شبه جزيرة الملايو وبرما اكتشفت أدوات حجرية مصقولة تطابق في نوعها تلك التي خلفها بناة الآثار الحجرية القدامى في غرب أوروبا والهند وغيرها إلى جوار مناجم الذهب والقصدير القديمة وخاصة مناجم الذهب الضخمة في إقليم باهانج بشبه جزيرة الملايو.

وهذه الأدوات هي طابع الحضارة البائدة من أدنى الدنيا إلى أقصاها في نطاق يمتد من إيرلندا حتى شرق الولايات المتحدة عبر المحيط الهادي، وأقصد بقولي طابع الحضارة البائدة أنها من صنع أول جماعات اشتغلت بإنتاج الطعام في الهند وإندونيسيا وبولينزيا ومن شابههم دون غيرهم، أما الشعوب التي جاءت بعدهم فإنها لا تصنع تلك الأدوات بل تعتبرها من أدوات السحر، ومثل ذلك "أسنان الرعد" وهم يستعملونها في الأغراض السحرية كما بينت في كتاب "أبناء الشمس" وكتاب "نشأة السحر والدين".

وحيثما نعثر على تلك الأدوات فمن المؤكد أننا على مقربة من الحضارة البائدة، ولقد وجدت أدوات حجرية مصقولة في أجزاء من سومطرة إلى جوار مناجم الذهب القديمة ..

وكذلك في جزيرة جاو حيث تشاهد مقابر الممرات الحجرية والتماثيل المصنوعة من الحجر من الطراز البولينيزي.

ورغم أن بعض أجزاء إندونيسيا تعرضت لمؤثرات شعوب أخرى تالية كالهندوس والمسلمين فإنه لا يزال بها الكثير من مخلفات الحضارة البائدة، بينما في أنحاء أخرى مثل جزائر سلبيس وما يجاورها من جزر حيث تكثر مصائد اللؤلؤ فإن النظام القديم لم يندثر تماما، وما زلنا نجد في أماكن معينة إلى جوار مصادر اللؤلؤ والذهب ما يدل على وجود الحضارة البائدة .. ففي سلبيز وتيمور لا يزال اسم "أبناء الشمس" لاصقا بالطبقة الحاكمة أو أنه كان كذلك إلى عهد قريب يدخل في نطاق التاريخ – وفي جزائر سلبيز الجنوبية والإقليم الذي يجاروها لا يزال الكيان السياسي قائما على النظام الثنائي.

وتشبه إندونيسيا بلاد الهند في أنها تعرضت لحركات ثقافية تالية كثقافة الهندوس محت جانبا كبيرا من الماضي ولم تبق من النظام القديم إلا أنقاضه، فإذا ما بلغنا عتبات المحيط الهادي برزت أمامنا علائم المجتمع القديم، ومن أعجب مراكز الحضارة القديمة في العالم جزائر كارولينا The Carolines وهي مجموعة من الجزر في ميكرونيزيا .. ففي برنيب أقام أهل الحضارة القديمة مدينة تشبه ميناء البندقية وتشاهد فيها المراسي وحواجز الأمواج المشيدة من كتل المرجان الضخمة ممتدة داخل البحر، وهذا يدل على أن سكان تلك الجزر، هؤلاء أو هؤلاء، كانوا ذوي حضارة عالية، ولا

بد من أن نقرر أن وجود هذه الحضارة العظيمة على مشارف المحيط الهادي له أهمية أساسية لكل من يدرس الحركات الثقافية لأن أناسا تمت على أيديهم أشياء فذة كتلك التي سجلها مستر ف. و. كرستيان F. W. Christian في كتابه عن "جزائر كارولينا" أناسا تمكنوا من بناء جدران ضخمة وحواجز عظيمة للأمواج وقاموا بأعمال محكمة للري .. أناسا هذا شأنهم ليس لأحد أن يشك في قدرتهم على نشر الحضارة في ربوع أمريكا، إذ لا يعتبر هذا بالنسبة لهم من الأمور المعجزة، بل أني أرى أنه لم يكن أمامهم وقد وصلوا صوب الشرق إلى هذا المدى إلا أن يواصلوا السير ويقطعوا مراحل أبعد.

ولا بد أن الكيان السياسي والاجتماعي في جزائر كارولينا كان فيما مضى قائما على نظام ثنائي شامل – وحتى يومنا هذا نرى المجتمع هناك سائرا وفق هذا النظام .. فالقرية الواحدة تحكمها أسرتان يختار زعماء الدين من واحدة وقواد الحرب من الأخرى، ونظام الزواج في هاتين الأسرتين كما في باقي أسرات القرية أن الرجل يتحتم عليه أن يختار زوجته من جماعة غير أسرته، وفي بعض القرى تبنى المنازل صفين متوازيين يتوسطهما شارع ولا بد لأعضاء الجماعة الواحدة أن تسكن في جانب واحد من الشارع، ولذا أصبحت القاعدة أن يتزوج الرجل من فتاة تقطن في الجانب المواجه.

وإذا كانت القرية كبيرة خصص لكل جانب منها مرسى "م – ٧".

للسفن، كما أنه إذا اجتمع أهل القرية في نواديهم جلس أعضاء هذه الجماعة إلى اليمين بينما جلس أعضاء الجماعة الأخرى إلى اليسار أثناء تأدية الشعائر الاحتفالية، ومن هذا نرى أن المجتمع يقوم على أساس ثنائي في كل ناحية من نواحي الحياة كما أن المنازعات لا تتوقف بين الجماعتين.

وثمة أمر هام يجب أن نذكره فيما يختص بهذا النوع من المجتمع وهو أنه نوع لا يوجد في كل أنحاء بولينزيا ولو أن البولينيزيين يمتون بصلة إلى بعضهم البعض فيما بين طرفي المحيط الهادي، بل إن وجوده مقصورة على الجهات التي توجد بها مصائد اللؤلؤ أو حقول الذهب، وفي تلك الأماكن يغلب أن تجد مخلفات الحضارة البائدة، ففي غانة الجديدة البريطانية مثلا يقوم النظام الثنائي للمجتمع وتوجد الحلقات الحجرية وعلائم أخرى واضحة للحضارة البائدة، بينما لا يوجد شيء من هذا في جزائر جلبرت وأليس والمجموعات الأخرى من جزائر بولينيزيا، وفي غانة الجديدة البريطانية حيثما تشاهد هذه المخلفات توجد مصائد اللؤلؤ ومناجم الذهب التي اجتذبت أهل الحضارة البائدة إلى أقصى أطراف الأرض، وفي ملانيزيا يوجد الكثير من مصائد اللؤلؤ كما أنها مليئة بالمخلفات الحجرية التي هي من خصائص الحضارة البائدة، أما المجتمع فإنه مقسم في الوقت الحاضر على أساس ثنائي، فكل جماعة تتكون من فريقين يجب على الفرد من كل منها أن يتزوج فردا من الفريق الآخر كما هو الحال في جزائر كارولينا، والعداء بين الفريقين واضح، ولكل منهما لون يميزه كما أن واحدا منهما يعتبر في

مرتبة أسمى من الآخر كما هو حادث تماما في الهند وغيرها، ويشاهد هذا النظام الثنائي للمجتمع في سان كريستوفال أحدى جزائر سولومون وهي تلك الجزيرة التي تحتوي على آثار بينة للتأثير المصري – وفي كاليدونيا الجديدة أيضا توجد ممرات وآثار حجرية أخرى وأنظمة كثيرة للري وزعماء يلقبون أنفسهم "أبناء الشمس" يحنطون بعد وفاتهم، هذا إلى جانب وجود النظام الثنائي والشواهد الأخرى التي تدل على أثر الحضارة البائدة، والوضع نفسه قائم في تاهيتي على الجانب الآخر من المحيط الهادي وهي أهم مركز في الوقت الحاضر لمصائد اللؤلؤ في الأقيانوسية.

واختصار القول أن مناطق الأقيانوسية الغنية باللؤلؤ أو الذهب أو أي نوع مماثل من الثروة تقترب ثقافة شعوبها أو كانت تقترب فيما مضى بدرجات متفاوتة من ثقافة مصر في عصر الأهرام، فهناك تحنيط جثث الحكام والنظام الثنائي للمجتمع وإطلاق لقب "أبناء الشمس" على الحكام وعبادة الشمس وأنظمة الري والأدوات الحجرية المصقولة والآثار الحجرية وكثير من مظاهر الثقافة الأخرى التي نشأت أول ما نشأت في مصر كما وضحت في كتاب "أبناء الشمس" والأمر على عكس ذلك في المناطق الأخرى من الأقيانوسية التي تفتقر إلى الذهب واللؤلؤ وغيرهما من النفائس كما هو الحال في جلبرت وأليس وتوكيلاو وغيرها من الجهات التي استعمرت في وقت متأخر، ففي تلك الجهات لا يوجد من الحضارة البائدة إلا أنقاضها وقلما يستشف منها شيء.

ومن المظاهر الشائعة فيما يختص باستعمار بناة الآثار الحجرية للمحيط الهادي أنهم جلبوا معهم نباتاتهم الغذائية الخاصة، فسكان بولينزيا يعيشون إلى حد كبير على منتجات الموز وفاكهة الخبز وغيرها من النباتات، أما فاكهة الخبز فليست من نباتات هذه المنطقة كلية فهي لا تخرج بذورا هناك بل تنتشر زراعتها بطريق الشتل شأنها شأن أشجار الموز في الجزائر الواقعة إلى الشرق من فيجي، وهذان النوعان من الفاكهة ينتميان إلى الهند ومن المؤكد أن أشجارهما قد نقلت كما هي إلى بولينزيا حيث زرعت هناك، والنقطة الهامة في هذا العمل أن هذه النباتات كان لا بد من استعمال طريقة الشتل إذا أريد التوسع في زراعتها لأنها في الأقيانوسية قد فقدت قدرتها على إنتاج البذور، وليس من الأمور الهينة أن ينجح الإنسان في زراعة شتلات نقلت عبر آلاف الأميال ثم في تعهدها في بيئتها الجديدة، فليس من العسير على قوم أمكنهم بهذا العمل أن ينقلوا نبات التارو (نبات من فصيلة القلقاس والبطاطس) من موطنه الأصلي في أُيانوسية ومناطق المحيط الهادي إلى مصر وأجزاء أخرى من أفريقيا.

إن هذه المهارة في الفلاحة يضاف إلى الدلة الأخرى التي تشهد على ذلك المستوى الرفيع الذي بلغه أولئك الرحالون القدامى في ثقافتهم — أولئك القوم الذين بنوا بونيب Ponape واستخرجوا الذهب من مناجم الهند وشبه جزيرة الملايو — أنهم لم يكونوا من الهمج بل كانوا أناسا ذوي مهارة رفيعة في كل شيء قاموا به، ومن الشواهد على مستواهم الثقافي أنه

لا يزال في جزائر كارولينا وجزيرة ايستر آثار لأنواع من الكتابة، وليس أبلغ من وجود الكتابة دليلا على ارتفاع مستوى الحضارة، ويجب ألا يغيب عن بالنا أيضا أن هؤلاء القدامى قد خلفوا ورائهم أدوات من النحاس في سلبيس وجهات أخرى من إندونيسيا – وهذا بدوره مبرر آخر لقولنا إن أجداد سكان بولينزيا كانوا قوما ذوي ثقافة من نوع عظيم، بل أنها لثقافة أعلى بكثير مما يظن بوجه عام.

وإذا ما بلغنا شواطئ أمريكا وجدنا في بيرو وكوستاريكا وجواتيمالا وغيرها آثارا تدل على أن تلك البلاد كانت فيما مضى مقاما لأناس بلغوا في حضاراتهم شأوا عظيما، فعلى شاطئ بيرو أشاد القوم أهراما عظيمة وبنوا آثارا حجرية كثيرة وصنعوا جليا وأواني فخارية عجيبة ومارسوا فن التحنيط وحاكوا في كل شيء تلك الخصائص البارزة للحضارة المصرية في عصر الأهرام دون أن يضيفوا إليها شيئا هاما بل أنهم لم يحققوا الكثير منها، ومن الأمور الشائقة أن سكان الشواطئ في بيرو كانوا يصنعون آنية لها فوهتان كما فعل المصريون والكريتيون، ويضاف إلى ذلك وجود أدلة على أن نظام المجتمع كان ثنائيا فيما مضى في بيرو وكولومبيا ولو أن الحقائق التي يستند إليها في هذا الشأن ليست من الوفرة كما نشتهي على أن الأبحاث التي قامت بها بعثات أرسلت أخيرا إلى البرازيل ترجح أن نظاما ثنائيا كاملا للمجتمع كان قائما في أمريكا الجنوبية، وإذا ذكرنا أن بلاد بيرو تحتوي على كميات هائلة من الذهب والفضة والمعادن الأخرى وضح لنا

الباعث الذي دفع بأصحاب المدنية البائدة إلى احتلال تلك البلاد، وخاصة ذلك الإقليم الذي تتوسطه بحيرة تتيكاكا وهو ملئ بهذه الثروة المعدنية، ولم ينس مؤسسو مدنية بيرو مهاراتهم القديمة رغم أسفارهم عبر المحيط الهادي فقد أقاموا أنظمة هائلة للري وأنشأوا مدرجات للزراعة على سفوح جبال الأنديز تمتد إلى ارتفاع آلاف الأقدام وتحف بها جدران حجرية تثير إعجاب كل من يشاهدها، وفي بعض الأحيان لا يزيد اتساع المدرج العلوي عن زيادة مربعة واحدة، ومع هذا فقد كانوا يزرعون فيه الذرة أو الطماطم أو البطاطس بعناية فائقة، وعندما وصل الإسبان إلى بيرو كان أهل البلاد يزرعون ثمانين نوعا مختلفا من الخضر وكانت حضارتهم من بعض نواحيها من أعظم الحضارات التي عرفها العالم، فالأسرة الملكية هناك كانت تحاكي في أمانة عظيمة بعض الخصائص الهامة للحضارة المصرية وأمثلة ذلك أنهم كانوا يحملون لقب "أبناء الشمس" ويبنون الأهرام ويتزوجون من أقرب الأقارب كما انهم وأكثر أفراد الشعب كانوا يحنطون موتاهم وفي أمور أخرى كثيرة كانوا يشبهون حكام مصر في عصر الأهرام.

وفي كوستاريكا مخلفات قديمة لها قيمتها العظيمة ولكنا لم نعرف بعد عن أحوال تلك البلاد إلا قليلا، أما أعظم بقعة في أهميتها بالنسبة لمن يدرس الحركة الثقافية في إقليم أمريكا الوسطى والمكسيك، فهناك قامت حضارة المايا العظيمة The Maya التي أدت بمرور الزمن إلى قيام كل حضارات المكسيك وهندوراس ويوكاتان والولايات المتحدة عامة فيما عدا

حضارات الشاطئ الغربي التي يحتمل أن تكون شبيهة بحضارة آسيا، وحضارة "المايا" على مبلغ علمنا تشتمل على الكثير من العناصر المميزة للثقافة الآسيوية، وليس لها مميزات خاصة بها، فأهل مايا كان لديهم أدوات حجرية مصقولة وكانوا يبنون الأهرام ويعبدون الشمس، وكل هذه العناصر الثقافية من مقومات الحضارة البائدة، وبما أن حضارة المايا هي أم حضارات النصف الشمالي من القارة الأمريكية فمن الأمور عظيمة الأهمية أن نعرف كيفية نشوئها.

إن من أهم خصائص حضارة "المايا" أنها تشتمل على عناصر ثقافية لم يكن ظهورها هناك ممكنا إلا بالانتقال المباشر من آسيا، ومثل ذلك أن الكثير من خصائص أهرامها وشعائرها تنطبق تمام الانطباق على ما كان لمثيلاتها في كمبوديا في القرون الأولى من تاريخنا المعروف بحيث لا يقوم شك في أنها مأخوذة عنها، وهناك شيء آخر أفاض في توضيحه الأستاذ اليوت سمث وهو أن بعض النقوش التي وجدت في كوبان Copan وهي من أقدم مدن المايا أن لم تكن أقدمها هي نقوش لفيلة هندية، أما كون النقش قد قصد به تمثيل الفيل فهو أمر لا يمكن أن يعارض فيه أحد، غير أن الأستاذ اليوت سمث يقرر إلى جانب ذلك أن النقش يمثل فيلا هنديا، ومن المعروف أن الفيل ليس من الحيوانات الأمريكية الحالية، ولهذا فمن المؤكد أن الإنسان الذي نقش صورة الفيل في المدينة المذكورة قد جاء من آسيا أو أن الشيء الذي أوحى إليه بهذا النقش هو أسيوي أيضا، ومما يزيد

هذا الأمر احتمالا أن مدن المايا المتأخرة في تاريخها عن مدنية كوبان قد خلت من هذا النوع من التمثيل الواقعي للفيلة وكل ما وجد لا يعد أن يكون نقشا لأشكال كاريكاتورية تقليدية.

ولم يفتقر مؤسسو حضارة المايا إلى أي نوع من المهارة التي كان يتمتع بها أهل الحضارة البائدة فإنهم ما كادوا يصلون إلى تلك البلاد حتى اكتشفوا الذرة وبدأوا يزرعونها وكانوا كلما أقاموا مستعمرة جديدة أخذوا هذا النبات معهم حتى انتشر استعماله أخيرا في كل أنحاء الولايات المتحدة.

ولم تختلف الطريقة التي انتشرت بها الحضارة في أمريكا من حيث طبيعتها عن طريقة انتشارها في بقية أجزاء العالم، فالأقوام المنتجة للطعام كانت تنتقل وراء مصادر المواد القيمة ناقلين معهم أهم العناصر المميزة للحضارة البائدة، ومثل ذلك أن المدن القديمة في المكسيك تقع على شبكة الخطوط الحديدية الحالية، وبما أن هذه الخطوط الحديدة قد أنشئت في الأصل بقصد نقل المعادن دون الركاب فلا شك إذن في أن تلك المدن قد أقامها أصحابها إلى جوار مصادر المعادن، فإذا ما وجد أن القدماء شادوا مساكنهم في مناطق تقع الآن على الخطوط الحديدية كما وضحت ذلك على خريطة في كتاب "أبناء الشمس" فمن المحقق أن أولئك الناس كانوا يسعون وراء الذهب والنحاس وغيرهما لا فرق في ذلك بينهم وبين إنسان العصر الحاضر، ولقد كان أهل المكسيك من أكثر الناس استعمالا

للمعادن، فليس من العسير إذن أن نهضم الفكرة القائلة أنهم كانوا يختارون مواطن سكنهم حيث توجد الخامات.

وبمضي الزمن بدأ أهل المكسيك يتسربون إلى الولايات المتحدة حاملين معهم الخصائص المميزة للحضارة البائدة مثل تسمية "أبناء الشمس" واستعمال الأدوات الحجرية المصقولة والري والتنظيم الثنائي وهكذا، وكانت أهدافهم هي استغلال ثروة ذلك الإقليم واسع المدى، ففي الولايات الشرقية وجدوا مصادر اللؤلؤ التي تربوا على الحصر في أحواض الأنهار الكبيرة وعثروا على الذهب والنحاس والمعادن الأخرى في جبال أبلاش، وحصلوا على النحاس من شواطئ بحيرة سيدبرير واستخرجوا الفيروز، والذهب والنحاس وغيرهما من مناجم نيو مكسيكو وأريزونا، وفي كل تلك البقاع خلفوا وراءهم مجتمعات لا تختلف ثقافتها عن الحضارة البائدة بحيث لا نستطيع أن نشك في أن تلك الثقافات مشتقة منها، ومن الآثار التي تركها صيادو اللؤلؤ في شرق الولايات المتحدة آلاف الأكوام التي يمتد بعضها مسافات طويلة، وكلها من طراز الأهرام وإن كانت غير متقنة، ويحتوي بعضها على غرف حجرية للدفن، ولقد وجدت في هذه الأكوام مئات الألوف من حبات اللؤلؤ ولو أنها عديمة الفائدة لأنها محترقة، وتقع كل هذه الأكوام دون استثناء بالقرب من موارد الماء أي على شواطئ الأنهار والبحيرات التي مازلنا نجد فيها محارات وأسماكا صدفية تحتوي على اللؤلؤ.

من هذا نرى أن الحركة الثقافية التي بدأت من مصر انتهى بها المطاف أخيرا إلى أمريكا حول بداية عصرنا وهناك أقامت تلك الثقافة حضارات تشبه في عناصرها الأساسية حضارة مصر في عصر الأهرام، ولا تختلف عنها إلا في بعض تفصيلات استلزمتها الظروف التي قامت فيها، ولقد استغرقت تلك الثقافة في رحلتها هذه ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة ومع ذلك ففي مقدورنا أن نقتفي آثارها آلاف الأميال، وإذا ما ذكرنا ما بلغه أصحاب الحضارة البائدة من مستوى ثقافي رفيع في الهند وإندونيسيا والأقياسونية لم يعد من العسير علينا أن نسلم بأن نشأة الحضارة في أمريكا كانت على أيديهم.

والحق أن هناك سببا قاطعا يؤكد هذا الأمر – ذلك أن حضارة "المايا" هي أرقى حضارات النصف الشمالي من أمريكا ومنها اشتقت حضارات كل المجتمعات المنتجة للطعام التي جاءت بعد ذلك فيما بعد عدا مجتمعات الشاطئ الشمالي الغربي – ومن الملاحظ أنه كلما تقدم الزمن انخفض مستوى الثقافة في كل أنحاء هذه المنطقة العظمى من أمريكا الشمالية دون استثناء فيضيع عنصر من الثقافة بعد الآخر، كما أن ما لدينا من معلومات لا يمدنا بحقيقة واحدة تبين لنا كيفية نشوء أي عنصر من عناصر الثقافة في أمريكا، فحضارة "المايا" مثلا ظهرت في أمريكا فجأة وكان عصرها الذهبي هو وقت ظهورها، ولا تفسير لحدوث هذه المعجزة البينة إلا أن تلك الحضارة جاءت على يد قوم وصلوا إلى أمريكا بعد أن

بذلوا جهودا بطيئة مضنية في بناء صرح حضارتهم في بلاد الشرق القديم.

وإذا ما ذكرنا أن المصريين لم يقطعوا مرحلة الثقافة من العصر الحجري القديم الأول إلى عصر الأهرام إلا بعد مئات أو قل آلاف السنين، وإذا ما ذكرنا أيضا كيف حققوا العنصر بعد الآخر من عناصر الثقافة، فغنه من المستحيل علينا أن نصدق أن شعبا آخر سار نفس الشوط أو بعبارة أخرى وصل إلى نفس النتائج مستقلا عن غيره تماما في مدى سنوات قلائل ومع ذلك لم يخلف وراءه من الآثار الظاهرة ما يبين الطريقة التي حقق بها ذلك العمل.

ومع أن تحقيق هذه الحركة الثقافية التي وصلت إلى أمريكا عبر المحيط الهادي هو أروع عمل في مشهد الحضارة إلا أن اختمار الحضارة العظيم لم يقتصر عمله على إنتاج تلك الحضارة فحسب، بل إن فاعليته تعدت ذلك إلى كل جزء من أجزاء الأرض، ففي كوريا توجد طائفة كبيرة من الممرات الحجرية Dolmens إلى جوار منجم من أغنى مناجم الذهب في أسيا، وفي اليابان وهي أيضا غنية بمعادنها توجد آثار عديدة للحضارة البائدة، كما أن النظام السياسي للشعب الياباني واعتقادهم أن الميكادو هو سليل آلهة الشمس وما يشبه ذلك من المظاهر يدل دلالة واضحة على نشأة حضارة هذا الشعب.

وفي إقليم نهر ينسى الأعلى توجد الأهرام والممرات الحجرية إلى جانب أنظمة كثيرة للري في منطقة تكثر بها مناجم الذهب والنحاس

القديمة، غير أن معلوماتنا عن هذا الإقليم وعن إقليم منغوليا لا توال من القلة بحيث لا تسمح لنا أن نسهب في الحديث عنها، وكذلك يجب ألا نغفل ذكر الممرات الحجرية التي وجدت في القوقاز وأرمينيا وما صاحبها من أنظمة للري.

وفي معرض التحدث عن انتشار الحضارة من الشرق القديم يستحيل علينا أن نغفل ذكر بلاد الصين، فمن المتفق عليه أن حضارة تلك البلاد جاءت من ناحية الغرب، وهناك ظاهرة يجدر ملاحظتها فيما يختص بكيفية نشوء الحضارة الصينية، ذلك أن الصينيين يقرنون أصل حضارتهم اقترانا وثيقا بمدينة سيانجفو عاصمة شنسي Shensi وتقع هذه المدينة على شواطئ نهر واي Wei أحد روافد نهر هوانجو أو النهر الأصفر إلى جوار مناجم هامة للذهب وحجر اليشب Jade أي أنه موقع خليق بأن يجتذب قوما ذوي ثقافة من نوع ثقافة الشرق القديم، والأكثر من هذا انه توجد على مقربة من سيانجفو أكوام ضخمة من الطين هرمية الشكل مقامة في وضع يواجه الجهات الأربع الأصلية، ولا يعرف الصينيون عن أصل هذه الأكوام شيئا، فما المعنى الذي ينطوي عليه وجود هذه الآثار العظيمة في مكان هو مهد الثقافة الصينية بينما هي في نفس الوقت لا تشبه أي شيء قام بعمله الصينيون أنفسهم فيما عدا هرما في شانتنج Shantung وهو إقليم يستشف فيه نفوذ خارجي قديم؟

فهل صحيح أن الحضارة الصينية ترجع أصولها إلى مستعمرة أقامها

المصريون هناك كما قال الأستاذ دي جيني de Guignes منذ أمد بعيد؟ أو أن الفضل في ذلك يعود إلى اليابانيين وهم أيضا من بناة الأهرام؟

ومهما كان التفسير فمن الواضح أن مشكلة الحضارة الصينية لن تصل إلى حل حتى يماط اللثام عن هذا الغموض.

وإذا ما تساءلنا عن ذلك الإقليم الغربي الذي نشأت فيه الحضارة الصينية فمن الأهمية بمكان أن نحاول اكتشاف آثار الحركة ثقافية متجهة نحو الصين عبر آسيا الوسطي، ومن المتوقع بعد المناقشات التي احتلت الصفحات القليلة السابقة أن نجد أن أول أقوام متحضرة أقامت في تركستان قد وصلت إلى تلك المنطقة بحثا وراء شيء معين وأن طريقتهم في استيطان ذلك الإقليم لها ارتباط بما كانوا يرغبون في الوصول إليه.

ومن الثابت أن أول منتجين للطعام في شرق التركستان كانوا على دراية بمعدن الذهب وكانوا يستعملونه على نطاق واسع كما انهم كانوا يعرفون الري، غير انهم لم يستعملوا الأحجار كثيرا، وليس هناك من المبررات الوجيهة ما يؤيد الظن بأن ثقافتهم هذه ترجع إلى تأثير مصري بل الأرجح أنها تعود إلى تأثير بابل حيث أن الثقافة الفارسية كانت تطعم على الدوام بالثقافة البابلية حتى إن الكتابة الفارسية الأولى كانت من أصول بابلية، ومهما كان المصدر الذي اشتقوا ثقافتهم منه فإن أهدافهم كانت هي نفسها أهداف غيرهم من الأقوام المتحضرة في تلك العصور، أي أنهم كانوا ينشدون الذهب، والمعروف أن ذهب تركستان يوجد في مصبات

أنهارها التي اشتهرت بذلك في قديم الزمان كنهر زرافشان Zerafschan، ولا وجود له في الصخور، ويستتبع ذلك أن أقوام التي كانت تسعى وراء الذهب لا بد لها من أن تتركز على شواطئ الأنهار وخاصة إذا كانوا إلى جانب ذلك من المشتغلين بالري.

وإذا وضعنا على خريطة واحدة توزيع الري في إقليم وسط آسيا كما ورد في كتاب الأستاذ موزيه "Moser" "الري في وسط آسيا" "L'irrigation en L'Asie Centrale" وتوزيع الذهب كما ورد في كتاب مشكتوف "Mushketov" "الثروات المعدنية في التركستان الروسيا" Les richesses minerals du Turkestan Russe.

اتضح لنا أن الأنهار المعروفة بذهبها تقوم على شواطئها أنظمة للري أما الأنهار الخالية من الذهب فلا يوجد على شواطئها شيء من هذه المخلفات، وهكذا يصبح الاستنتاج واضحا.

وهو أن أول منتجين للطعام في وسط آسيا كانوا أقواما متحضرين يبحثون عن الذهب ولهذا أقاموا حيث عثروا على ضالتهم، ثم ساروا صوب الشرق يجمعون الذهب ويقيمون أنظمة للري حتى بلغوا فيما بلغوا حوض نهر تارم Tarim أو إقليم كوتان Khotan حيث اتصلوا بأسلاف الصينيين الذين كانوا من حيث ثقافتهم في مرحلة جمع الطعام وهكذا أكسبوهم عناصر حضارتهم، هذا فيما يبدو هو الوضع الأساسي فيما يختص بأصل الحضارة الصينية، ومن المحتمل أن أثر بابل كان هو الأثر

الطاغي وأن الأكوام الهرمية التي وجدت في سيانجفو هي من عمل البابليين، ومن الجائز أيضا أن المؤثرات المصرية هي التي أدت إلى قيام الحضارة البابلية، غير أنه مهما كان الأمر فإن تلك الحضارة الصينية أصبح في مقدورها بعد أن توطدت دعائمها أن تعيش عيشتها الخاصة وتؤثر بدورها في البلدان المجاورة لها كما كانت حضارة الدرافيديان في الهند باعثا على قيام الحضارة في برما وكمبوديا وجاوة.

وليس من الهين أن نتبين لأول وهلة كيفية انتشار الحضارة من الشرق القديم إلى كل ركن من أركان الأرض، بل إنه ليبدو من الطبيعي أن نتخيل أن الشعوب في كافة أجزاء العالم قد تمكنت من ابتكار العناصر الجوهرية للحضارة، كل منها بمعزل عن الآخر، ومع هذا فإن الأدلة كلها تشير إلى أن الحضارات التي قامت في أنحاء متطرفة من العالم هي من صنع أناس كانوا يجوبون الدنيا بحثا عن الذهب واللؤلؤ وغير ذلك من المواد المرغوب فيها فوجدوا بقاعا جديدة لا يقطنها أحد أو يعيش فيها قوم رحل من جامعي الطعام، وعلى هذا النحو توفرت لهم أماكن لاءمت ثقافتهم، وباقتران البيئة والثقافة نمت الحضارات الكبرى في العالم، ومن الأمور المذهلة أن نعرف أن أهم مناجم الذهب ومصائد اللؤلؤ في العالم قد وطئها قدم الإنسان قبل أن يعرفها الأوروبيون بقرون كثيرة، وأن عمال مناجم الذهب في غانة الجديدة يعثرون الآن على أدوات حجرية مصقولة في طبقات الحصى التي يستخرجون منها الذهب كما حدث للباحثين عن

الذهب في كاليفورنيا خلال القرن الماضي، كل هذا يشهد في صمت بليغ على أن أهل الحضارة البائدة كانت لهم جولات في تلك البقاع – وحتى ألاسكا نفسها لم تكن بمنأى عن نشاط هذا الإنسان القديم بل لقد زارها القوم قبل أن يعثر الأوروبيون فيها على الذهب بعدة قرون، وعلى هذا النحو تنتقل القصة في كل أنحاء الأرض، من غرب إفريقيا إلى روديسيا إلى جبال أورال إلى سومطرة، قصة قوم سبقوا الإنسان الحديث في البحث عن الذهب واللؤلؤ وغير ذلك من المواد الثمينة ثم اندثرت ذكراهم منذ أمد بعيد بين الوطنيين من سكان البلاد.

وفي مقدورنا أن نستشف من قصة تحكى عن تأسيس مملكة بيجو Pegu في برما بعض الشيء عن كيفية انتشار ذلك الجماعات القديمة، وتروي تلك القصة أن مؤسسي تلك المملكة وهم أعضاء أسرة ملكية من الهند اصطحبوا معهم أسرات كثيرة كي يسيدوا لهم مستعمرة هناك.

لا بد إذن أن أهل الحضارة البائدة كانوا يركبون البحر في سفن كبيرة ومن المحتمل أن الجماعة الواحدة من تلك الجماعات المرتجلة كانت تضم مائتين أو أكثر من الأفراد تقلهم بعض السفن القليلة إلى حيث يريدون، وسرعان ما كانوا يثبتون أقدامهم في الوطن الجديد، وأغلب الظن أن تلك الجماعات كانت بمجرد بلوغها البلد المنشود تبادر إلى توطيد عروق الصداقة بينهم وبين الوطنيين ثم يدمجونهم في مجتمعهم كطبقة دنيا يفرضون عليهم قواعدهم، ونظمهم الخاصة من حيث الزواج وغيره، ثم يبدأ صناعهم

المهرة على الفور في إقامة محلة كبيرة تسودها ثقافة تشبه من وجوه عدة ثقافة وطنهم الأول غير أن ذكرى وطنهم هذا كانت تضعف شيئا فشيئا بمرور الزمن وتتأثر أفكارهم بحياتهم الجديدة فيعتور فنونهم وأنواع نشاطهم الأخرى شيء من التغير، وتنطبع ثقافتهم أخيرا بمميزات خاصة بها.

وأهم طابع للحضارات الأولى التي وجدت في الأجزاء النائية من الأرض أن جميعها دون استثناء كان قوامها الري وهو العنصر الأساسي في أول ثقافة قامت على إنتاج الطعام.

وكان هؤلاء الرحل لا يعرفون غير الري وسيلة للزراعة فأقاموا له أنظمة حيثما حطوا رحالهم بغض النظر عن المناخ "م — ٩"

والظروف الأخرى، وكانت حياة المجتمع كله تتركز حول الري كما أن أكثر شعائرهم الدينية كانت تتعلق بالاحتفالات الخاصة بإنتاج المحاصيل.

وإذا صح أن أقدم حضارات العالم كانت من صنع أقوام رحل جاءت من الشرق القديم فهناك مشكلتان تلتمسان حلا الأولى تتطلب الإجابة على هذا السؤال: كيف نعلل وجود جماعات حالية ذات ثقافة دنيا تنتج الطعام ولكنها في كثير من الحالات لا تمارس الري؟ أما المشكلة الثانية فتنحصر في السؤال الثني: كيف حدث أن هذه الحضارات القديمة قد انتهى بها الأمر إلى اضمحلال وأحيانا إلى زوال؟

سوف نعالج هاتين المشكلتين الواحدة بعد الأخرى.

الفصل السادس

شعوب الثقافة الدنية

من الفروض الشائعة أن المجتمعات ذات الثقافة الدنية من منتجي الطعام، أو بعبارة أخرى تلك الشعوب التي يطلق عليها بوجه عام كلمة "الهمج" إنما تمثل مرحلة ثقافية لا بد أن الحضارات العليا قد مرت بها، وعلى هذا الفرض تستند تقريبا كل الآراء الشائعة عن نشأة الحضارة – والاعتقاد الجازم عند علماء الاجتماع والاقتصاديين وعلماء النفس وغيرهم من طلاب الدراسات الإنسانية أن أفعال الشعوب الدنية وأفكارها في الوقت الحاضر تمثل حتما ما كان يفعله أو يفكر فيه القدامى كأسلاف قدماء المصريين مثلا، وهذا الموقف من الشعوب الدنية قد نشأ إلى حد بعيد من تأثير نظريات التطور أو قل من سوء فهم لهذه النظريات التي أكسبها كتاب "دارون" قوة دافعة خلال النصف الأخير من القرن الماضي.

وبناء على هذا قبل أن الكائنات الاجتماعية تشبه الكائنات العضوية، وما دامت الأشكال البسيطة للحياة في العالم العضوي قد سبقت الأشكال الأكثر تنظيما بوجه عام، فمن المعقول أن الأنواع البسيطة من الكائنات الاجتماعية قد سبقت الأشكال الأرقى في كل أجزاء الدنيا، ثم طبقت هذه النظرية دون تمحيص على دراسة الثقافة البشرية لأن القياس يبدو سليما، مع انه في واقع الأمر غير ذلك.

وأول كاتب في هذه البلاد (إنجلترا) أرسى دعائم هذا الأسلوب من

التفكير هو المرحوم سر إدوارد تيلور Sir Edward Tylor كما أن هربرت سبنسر قد لعب دورا هاما في تاريخ هذه الحركة – بيد أنه من دواعي الأسف أن أتباع الأستاذ تيلور دفعوا بشق واحد من نظريته إلى الحد الأقصى بينما أهملوا شقها الثاني، ومن الجائز أنهم لو كانوا أكثر حرصا على التزام ما ذهب إليه لكتب غير ما كتب خلال السنين الخمسين الماضية عن التاريخ الطبيعي للجنس البشري، لأن الأستاذ تيلور مع إقراره كفرض عام بأن الثقافة في كل أنحاء الدنيا سارت من مرحلة إلى مرحلة أرقى إلا أنه نبه الأذهان في الوقت عينه إلى أن تدهورا ثقافيا قد حدث على نطاق واسع، وقال إن دراسة هذا التطور الثقافي كفيلة بإبراز نتائج هامة، ومن المؤسف جد الأسف أن هذه الإشارة لم تلق الاهتمام الكافي، إذ لا شك البتة في أن ثقافة المجتمعات الدنية من منتجي الطعام قد أخذها أصحابها عن مجتمعات ذات حضارة أرقى، وأن تلك الموجة الثقافية العاتية التي تحركت من الشرق القديم وطفت على العالم أجمع كما وضحنا في الفصل السابق كانت هي الدافع الذي بعث ثقافات السكان الوطنيين من الصين إلى بيرو أو بعبارة أخرى أننا لا نلك ذرة واحدة من دليل يجعلنا نسلم بأن أي شعب ذا ثقافة دنية من الشعوب المشتغلين بإنتاج الطعام قد تمكن بمفرده من ابتكار أي فن أساسي أو أية حرفة أساسية من الفنون والحرف التي يمارسها الآن.

هذه أقوال جريئة تحتاج إلى سند قوي وهذا السند آت على الفور،

ويمكن دراسة الموقف دراسة عامة كما يمكن أن نتناوله بالتفصيل، غير أن النتيجة واحدة في الحالين.

والآن نعالج النواحي العامة أولا فنبدأ بدراسة الخريطة رقم (٧) وهي توضح على وجه التقريب توزيع مخلفات الحضارة البائدة في كل أنحاء العالم كما تبين الحدود بين جامعي الطعام ومنتجي الطعام، وهي حدود لا تمثل الوضع الواقعي في وقت معين بالذات، بل تمثل ما كان عليه الموقف في أماكن مختلفة من العالم في أزمنة مختلفة، ومثل ذلك أن الحدود بين جامعي الطعام ومنتجي الطعام في إفريقيا قد رسمت إلى الجنوب من السودان، لأن المعروف أن قبائل البانتو، وهي مجموعة الشعوب التي تحتل الآن الأرض الإفريقية جنوبي هذا الخط لم تبدأ هجرتها من الشمال الشرقي صوب الجنوب إلا منذ ألف ومائة سنة، أما قبل مجيئهم فقد كان ذلك الإقليم الشاسع موطنا لقبائل البشمن وأقوام الزنوج فيما عدا الجنوب رودسيا حيث كانت توجد مواطن التعدين الكبرى التي تنطق بمهارة الإنسان القديم – كما أن الحدود في شمال أوروبا وسيبيريا تمثل على وجه التقريب ما كان عليه الحال قبل انتشار قبائل الياكوت وغيرها عندما اضطرتهم غزوات جنكيز خان في القرن الثالث عشر بعد الميلاد إلى النزوح صوب الشمال – أما في أمريكا الشمالية فإن الحدود تمثل توزيع السكان قبل مجيء الإسبان الذين أدخلوا معهم الخيول وما استتبع ذلك من تحركات إلى داخل السهول.

والمعنى الذي يستخلص من دراسة هذه الحدود هو أن الشعوب المنتجة للطعام كانت خلال العصور التاريخية تتقدم في أقاليم لا يقطنها إلا قبائل من جامعي الطعام، وهذه بالذات هي الحركة التي نفترض أنها أدت إلى قيام أول مواطن إنتاج الطعام في الأجزاء المتطرفة من العالم، وأظننا نذكر ما قيل أنفا من أن مرحلة الثقافة القائمة على إنتاج الطعام بدأت في بلاد الشرق القديم، وأن بقية العالم ظلت في مرحلة جمع الطعام زمنا طويلا بعد بدء ارتقاء الحضارة – ومن الجلي أن هذه الحركة لم تنته بعد حتى في وقتنا الحاضر، فما زالت هناك قبائل تجمع الطعام وما زال انتقالها إلى مرحلة إنتاج الطعام مستمرا.

والمعروف أن أرقى المجتمعات القديمة نظاما هي مجتمعات الشرق القديم وبلاد الصين والمكسيك وبيرو، وقد قامت كلها في أزمنة مختلفة ومع ذلك فكل منها تعتبر أقدم المجتمعات في المنطقة المحيطة بها – وبدراسة الخريطة سابقة الذكر تبرز أمامنا حقيقة هامة وهي أن كلا من تلك المجتمعات تحتل مركز دائرة ثم تليها مجتمعات من منتجي الطعام أيضا ولكنها أقل منها ثقافة، وتجيء أخيرا على محيط الدائرة قبائل من جامعي الطعام، ومن الواضح أن توزيع الثقافة على هذا النحو إنما جاء نتيجة لعملية انتشار منبعثة من المركز بحيث يضعف أثر الدافع لها كلما بعدنا عن البؤرة الأصلية، فإذا ما أضفنا هذا التوزيع النسبي للثقافة إلى ما عرفناه من أن الحركة الثقافية انطلقت فعلا خلال العصور التاريخية صوب الخارج

ازدادت ثقتنا في إمكان الاعتماد على الفرض القائل بأن كل ثقافة الأجزاء النائية من الأرض قد اكتسبها أصحابها نتيجة لعملية انتقال من مركز واحد كان هو الأصل في هذه الثقافة.

وإذا تناولنا بالبحث مسألة العلاقة بين منتجي الطعام ذوي الثقافة الدنية في الوقت الحاضر وبين أصحاب الثقافة العالية الذين زرعوا الأرض في قديم الزمان تبين بشكل عام أن أصحاب الثقافة الدنية يعيشون الآن في أماكن يوجد بها من الآثار الخربة ما يدل على أنها كانت فيما مضى موطنا لأناس ذوي ثقافة أعلى بكثير من ثقافتهم أو أنهم جاءوا من أماكن ينطبق عليها هذا الوصف، ولقد جمعت أدلة تؤيد هذا الرأي وضمنتها كتابي "أبناء الشمس"، وللقارئ أن يرجع إليه لمناقشة التفاصيل، ففي الوقت الحاضر توجد في منطقة نهر ينسى الأعلى أقوام متأخرة في ثقافتها لا تكاد تعلو عن مرحلة جمع الطعام، وهي تهيم هنا وهناك في أماكن ممتلئة بمخلفات مهدمة تنم على أنظمة قديمة للري وتكثر بها آثار حجرية ضخمة ومناجم قديمة للذهب والنحاس وكلها تدل على أن تلك البقاع كانت فيما مضى موطنا لقوم ذوي حضارة عالية، وحتى في إقليم ناء كإقليم ألاسكا موطن الأسكيمو يوجد من الآثار ما يدل على انه كان مقاما لأناس على قدر كبير من الثقافة، الأمر الذي يصلح لأن يكون تفسيرا لبعض مظاهر ثقافة الأسكيمو والذي يحول دون عليل البعض لوجود هذه المظاهر بأنها دليل على أن الأسكيمو كانوا على قدر كبير من الابتكار، وفي أمريكا الشمالية يكاد توزيع الشعوب المنتجة

للطعام أن يكون مطابقا لتوزيع الآثار التي خلفتها الحضارة العليا القديمة، لن حدود الواحد هي حدود الآخر، فالإقليم الواقع إلى الشرق من نهر المسيسبي وإلى الجنوب من البحيرات العظمى يحتوي على عدة مئات من الأكوام تدل محتويات بعضها في وضوح على أنها اشتقت من مصادر مكسيكية، ومن المؤكد أن القبائل الهندية في زمن كولمبس لم يكن من عادتهم بناء أكوام في ضخامة الأكوان التي كان يقيمها أجدادهم، والمعروف أن بعض هذه القبائل مثل "الشيروكي" كانوا يواصلون بناء الأكوام حتى الزمن اللاحق لكولومبس ولكنها كانت أكواما صغيرة الحجم، مما يدل على وجود حلقة متصلة بين بناة الأكوام الأصليين وبين الهنود الذين وجدوا في عصر كولومبس، غير أنه يدل أيضا على أن تدهورا ثقافيا حدث في تلك المنطقة، وهناك أيضا منطقة نيو مكسيكو وأريزونا وهي منطقة غنية بخرائب مهدمة كانت فيما مضى مساكن قوم أقاموا أنظمة عظيمة للري على جوانب المضايق الجبلية، وتقطن هذه المنطقة الآن قبائل من الهنود لا تصل ثقافتهم بحال من الأحوال إلى مستوى أسلافهم ولا بد أن حدثا من الأحداث قد سبب هذا الاضمحلال الثقافي – وفي كل هذا الإقليم كما في المكسيك وأمريكا الوسطى تعيش الآن قبائل كثيرة من الرحل في أماكن بها من آثار المخلفات الخربة ما يدل على ماض ذهب وانتهى ولا يعرف عنه السكان الحاليون شيئا، وتتكرر هذه القصة نفسها في الأفيانوسية وإندونيسيا والهند وإفريقيا حيث تعيش الآن قبائل دنية في بقاع ينم ماضي تاريخها على مستوى حضاري أرقى بكثير من مستواها الحالي.

وليس من الضروري فيما يختص بهذا الموضوع أن نقصر اعتمادنا على الحقائق المستخلصة من التوزيع الجغرافي لكي نحدد العلاقة بين القدامى والحديثين من جامعي الطعام في العالم، بل إن السكان الحاليين أنفسهم يمدوننا بمعلومات لا تقدر قيمتها، فلقد احتفظوا في تقاليدهم بأشياء تنبئ عن أصول ثقافتهم، وهذه بدروها تطابق ما عرفناه عن تلك الأصول من مصادر مستقلة أخرى بحيث لا يتطرق إلينا الشك في صحتها وفي إمكان الاعتماد عليها.

وعندما نتناول تقاليد الوطنيين يجب علينا أن نذكر أن القصص المتعلقة بأصول ثقافتهم هي من الذخائر التي يحرص عليها المجتمع كل الحرص، والذي يحدث غالبا عندما تقرر القبيلة إدخال بعض شبابها في زمرة رجالها أن يتلقى هؤلاء درسا عن تقاليدها ويحتم عليهم أن يحتفظوا بهذه التقاليد سرا عميقا لا يبوحون به للنساء أو الأطفال أو لمن لم يدخل بعد في عداد الرجال، وفي كثير من هذه الشعوب يتحتم على كل عضو من أعضاء الأسرة الحاكمة أن يلم بأصول أسرته وفروعها ويعتبر هذا جزءا أساسيا من مرانه، وهكذا نرى أن الشعوب العالم أجمع تقيم لتقاليدها أكبر الوزن.

ويجب ألا ننسى أيضا أن الشعوب التي يطلق عليها اسم الهمج هي شعوب محافظة إلى حد شديد، ولا ينكر أن مجالس الكبار في قبائل أستراليا مثلا توافق أحيانا على تعديل القواعد، غير أنها لا تسمح بهذه التعديلات

إلا بعد نقاش حاد، لأن المتفق عليه عادة هو أن يتمسك الناس بما كان يفعله آباؤهم وأجدادهم، ولهذا أصبح من نافلة القول في علم الأجناس البشرية أن الشعوب ذات الثقافة الدنية تفتقر كل الافتقار إلى الابتكار، ولم يحدث قط على قدر ما أعرف أن مجتمعنا من هذا الطراز قد توصل من تلقاء نفسه إلى فن أو حرفة من الفنون والحرف الهامة، ولما كانت التقاليد على هذا القدر من الأهمية عند هذه المجتمعات فمن المستحسن أن نبحث عما يمكن أن نستشف منها.

وتعتبر الولايات المتحدة من أفضل الأماكن لدراسة التقاليد ... ففي كل تلك المنطقة تدعي الشعوب عدا القليل منها أنهم حصلوا على ثقافتهم من أخوين توأمين هما في أكثر الأحيان توأمان من أبناء الشمس، وهذان الشابان أقاما لهم نظامهم الاجتماعي والسياسي ووضعا لهم قواعد الحكم ورسما لهم الطريق الذي يسيرون عليه – وهناك الهنود المقيمون في المكسيك وهم يدعون أن خالقهم هو "الأم الكبرى" وأن أجدادهم قد خرجوا من العالم السفلي على يد هذين الشابين العجيبين، وأنهم عندما وصلوا إلى محل إقامتهم تعلموا منهما قواعد الحكم والإلمام بالجمعيات السرية وكل معارفهم التقليدية .. ولقد دل البحث على أن هذا النوع من التقاليد ليس من ضروب الخيال بل إنه يستند إلى حقيقة – فقبائل المايا وهم أول منتجي الطعام في أمريكا الشمالية كانوا تحت حكم أبناء الشمس – وبما أن مجتمعات الولايات المتحدة ترجع ثقافتها في النهاية إلى قبائل

المايا فمن الصحيح إذا أن قبائل الهنود قد أخذوا العلم عن أبناء الشمس، وفي الإمكان أن نصل إلى أبعد من هذا، فلقد كان أبناء الشمس يعيشون في ولاية لويزيانا في القرن الثالث عشر حكاما لقبائل الناتشز The Natchez وفي الوقت الحاضر تعتبر قبيلة اليوتشي The Yuchi القاطنة في حوض نهر سافانا أن ذوي البشرة السمراء من أفراد القبيلة هم أبناء الشمس ولدتهم أمهات عذارى من نساء القبيلة – وهذا مثل من أمثلة مبدأ التناسل الإلهي الذي يقترن بهذه الشعوب في العالم أجمع.

والحق أن تقاليد قبائل الهنود هي من ناحية ما تقاليد لها ارتباط بالتاريخ وهي تصف أحوالا تعتبر من مميزات الحضارة البائدة وخصائصها، لأن الثقافة التي قولون أنهم استقوها من أبناء الشمس تشبه ثقافة المجتمعات التي حكمها أبناء الشمس، وقد وضحت هذه الحقيقة في مؤلفي "أبناء الشمس". ومع أن المجتمعات التي تسرد تلك القصص ليست خاضعة لحكم طبقة من أبناء الشمس إلا أنهم يذكرون جيدا مصدر ثقافتهم ويورثون معلوماتهم هذه جيلا من أبنائهم بعد جيل في صورة قصص تقليدية.

هذا هو التعليل الذي نستطيع أن نفسر به ثقافة الوطنين من سكان أستراليا، وإن هؤلاء السكان يبرز في مجتمعهم نظام الانتساب إلى كائنات غير بسرية في صورته الخالصة – وهو نظام يطلق عليه اسم "التوتم" Totemism ونظرا لانفراد هؤلاء السكان بطراز جسماني معين ولانعدام

الثقافة بينهم بوجه عام حيث أنهم لا يزالون في مرحلة جمع الطعام فقد أصبحوا مرجعا يعتد به في كل دراسة لأصول هذا النظام الاجتماعي الشاذ.

وقبل أن نتقبل الفكرة القائلة إن نظام "التوتم" السائد بين الوطنيين في أستراليا هو نظام بدائي صرف قد يكون من الأفضل أن نبذل محاولات جدية لتفسير ما يدعيه الوطنيون أنفسهم من أنه لا ذنب لهم في وجود هذا النظام أو فيما يتبعونه من قواعد الزواج المعقدة .. فهم جميعا دون استثناء يؤكدون أن أنظمة "التوتم" وقواعد الزواج السائدة بينهم قد اكتسبوا من أناس غرباء عنهم على اتصال بالسماء حلوا بينهم في زمن مضى ثم رحلوا عنهم لأسباب كثيرة إما إلى السماء وإما إلى جزء آخر من أجزاء العالم، ومن المألوف أن يقال إن الأستراليين قد اخترعوا هذه القصص ليعللوا بها هذه الأنظمة الاجتماعية التي يصفون أصولها، غير أن مثل هذا القول يعتبر قلبا للأوضاع، إذ لو أمعنا النظر في هؤلاء الغرباء ودرسنا الأنظمة التي خلفوها وراءهم اتضح لنا أن تلك الأنظمة هي بعينها أنظمة أصحاب الحضارة البائدة، أولئك الرحل الذين كانوا يجوبون الآفاق بحثا عن الذهب واللؤلؤ وما شابه ذلك، ولا بد أن الوطنيين من سكان أستراليا قد اكتسبوا من أولئك القوم حرفة صنع الأدوات الحجرية المصقولة التي تشبه ما كان يمتلكه المنقبون القدامى عن الذهب في غانة الجديدة البريطانية على الناحية الأخرى من مضايق تورس.

ومن المحتمل أن يكون السبب في وجود نظام "التوتم" وقواعد الزواج المحددة لدي الأستراليين هو الآتي شرحه:

كان أصحاب الحضارة البائدة دائبين على استغلال ثروة غانة الجديدة البريطانية، ثم حدث أن تمكن بعضهم من عبور مضايق تورس وبدئوا يتجولون في ربوع أستراليا سعيا وراء الذهب وغيره من المواد، وفي أثناء جولاتهم هذه صادفوا الوطنيين من جامعي الطعام وربما اختاروا زوجات لهم من بين نسائهم ثم أكسبوهم قواعدهم الخاصة بالزواج والنسل، غير أن مقامهم في تلك البقاع لم يطل، فرحلوا عن البلاد لسبب ما أو لآخر كما حدث نفس الشيء في غانة الجديدة حيث رحل أصحاب الحضارة البائدة عن المكان قبل أن يستنفذون مناجم الذهب بزمان طويل، أما الوطنيون فإنه لم يسعهم بعد أن شربوا هذه الجرعة من الثقافة إلا أن يواصلوا السير وفق ما عرفوا من قواعد وتنظيمات، وبما أنهم لم يقعوا تحت سيطرة ثقافة من نوع جديد فقد احتفظوا بما أخذوه من هؤلاء الغرباء القدامى، ولم ينسوا ذكر تلك المخلوقات العجيبة في تقاليدهم.

إن شيئا من هذا القبيل يمكن أن نعلل به أن شعوب الثقافة الدنية في العالم أجمع يحتفظون بقصص عن مخلوقات عجيبة اكتسبوا منهم نظمهم، ولسنا نشك في صدق هذه القصص لأن ما ورد فيها يطابق مرحلة الثقافة الخاصة بالحضارة البائدة كما أن القدرات التي تنسبها هذه القصص إلى أبطال هذه الثقافة هي بعينها تلك التي كان أولئك الأبطال يدعونها

لأنفسهم، ويضاف إلى ذلك أن الأنظمة الاجتماعية التي أكسبوها غيرهم هي نفسها تلك التي كانت سائدة بينهم.

وهكذا تساعد التقاليد الوطنية على تفهم ما يستفاد من أساليب البحث الأخرى وتؤيد كل التأييد ما تؤدي إليه من نتائج وأخصها أن شعوب الثقافة الدنية في العالم أجمع قد اكتسبوا حرفهم وفنونهم من شعوب أخرى أكثر رقيا في النصاب الثقافي.

ومن وجهة نظر من يدرس ارتقاء الحضارة في أية مرحلة من مراحلها ليس هناك أهم من تفهم طبيعة الطريقة التي اتخذها ذلك الارتقاء والتي وصفناها في الفصول السابقة.

فالحضارة بوجه عام تعني فيما تعنيه جماع نشاط الإنسان والفنون والحرف المنوعة التي ابتكرها ووسائل الاتصال بينه وبين غيره وكل ما قام به من أعمال ترفع من شأن حياته وقيمتها، وكلما ازدادت دراستنا لهذه الطريقة من الارتقاء اتضح لنا أكثر فأكثر أن مبدأ الاستمرار هو المبدأ العام سواء في هذه الناحية أو في مظاهر الحياة الأخرى، وليس هناك أي سبب يدعونا للاعتقاد بأن الثقافة ارتقت في أجزاء مختلفة من العالم كل منها في معزل عن الأخرى، بل إن أكثر الأمور وزنا هو أن تجارب الإنسان تتجمع مع بعضها البعض تكون قاعدة يشاد فوقها كل تقدم جديد، وهذا يعني أن الثقافة البشرية شيء قائم بذاته له قوانينه ومبادئه، والعامل الغالب في هذا الشأن هو العقل الإنساني بحاجاته ورغباته، أما العالم الخارجي فإن

اتصال الإنسان به إنما يحدث عندما يريد الإنسان أن يستغله في خدمة حاجاته ورغباته أي أن العالم الخارجي لا يفرض إرادته على الإنسان إلا بقدر قليل الوزن.

وفي كتاب "نشأة السحر والدين" The Origin of Magic and Religion قيل إن الإنسان القديم عندما كان يصوغ أساليب تفكيره فيما يختص بالحياة والموت وعلاقة الإنسان بالعالم كان يسير في هذا الطريق خطوة بعد خطوة بادئا بالحقائق الجوهرية التي يشترك فيها الجنس البشري، وتؤكد كل الأدلة المتوفرة لدينا صدق هذا القول فيما يتعلق بارتقاء الثقافة بوجه عام، فإن الإنسان لم يتقدم مرحلة واحدة إلا على أسس وضعها من سبقه، وهكذا جرت سلسلة من الأبحاث كان المبتكر هو واضع الحلقة الأخيرة فيها.

فإذا ما تحدثنا عن حضارة مصر أو كريت أو المكسيك فمن الواجب أن نكون على بينة بما نعني، فنحن لا نقصد أن كلا من هذه الحضارات قد بدأت من نقطة البدء الأولى ثم نمت بعد ذلك أو بمعنى آخر أن الثقافة نشأت تلقائيا في أماكن مختلفة، لأن هذا المعنى يصطدم بكل الأدلة المتوفرة لدينا، ولا يمكن أن نسلم به إلا إذا تذرعنا بالجهل بالأوضاع، الأمر الذي كان آفة هذه الدراسات حتى الآن، أما المعنى الحقيقي "لحضارة" أي بلد فهو في رأينا ذلك الشكل من أشكال الحضارة العالمية الذي يملكه ذلك البلد – فكل مجتمع شأن كل فرد يختلف عن كل

مجتمع آخر لأن ظروف نموه وارتقائه تختلف عن ظروف غيره وليس لأي سبب آخر.

وثمة حقيقة واضحة تشير إلى أن الحضارة بدأت في مكان واحد وترجح أن هذا الأمر أكثر احتمالا من غيره.

وهي أن الثقافة في كثير من البقاع النائية من الأرض لم تصب تقدما بل تدهورت، وهناك مساحات شاسعة من سطح الأرض لا تدخل في نطاق المراكز التي يمكن أن تكون الحضارة قد انبعثت منها، وهذا أيضا يجعل من الحضارة شيئا مفردا في بابه، وبما أن العنصر الأساسي في الحضارة هو اكتشاف طريقة لإنتاج الطعام فمن الواجب أن نتجه ببصرنا إلى مركز واحد صغير الحيز توصل فيه الإنسان إلى هذا الاكتشاف، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا تتجه أيضا إلى مجتمع واحد.

وإذا سلمنا أن تدهورا ثقافيا قد حدث على نطاق واسع فكيف نعلل ظاهرة التقدم الثقافي؟

المعروف أن الإنسان قد توصل إلى اكتشافات عظيمة في أماكن معينة من العالم وفي أزمنة معينة من التاريخ وبذلك أضاف الشيء الكثير إلى ذخر الحضارة المشتركة، كان الأثينيون من الشعوب التي قدمت هذه الخدمات إلى الجنس البشري – وتشبههم في ذلك الجمهوريات الإيطالية ومجتمعات أخرى في أزمنة مختلفة، كل هؤلاء كانوا يتلقون الثقافة من سابقيهم ثم يضيفون إليها من عندهم، ولا شك أن دراسة الشروط التي

تحدد الزمن الذي يحدث فيه التقدم الثقافي ومكان حدوثه هي من أهم الدراسات التي يجب أن نتابعها، فإذا ما استطعنا حل تلك المشكلة أصبح في مقدرونا أن ننظم مجتمعنا على النحو الذي يساعدنا على تحقيق أضخم إمكانيات التقدم البشري.

الفصل السابع

قدوم المحاربين

كثيرا ما يقال، وكأنما هذا القول سنة من سنن الطبيعة، إن الحضارات تقوم ثم تعيش عصرها ويكون مصيرها بعد ذلك إلى زوال، ولا شك أن دراسة التاريخ سطحية تؤيد هذا الرأي إلى حد ما، فالواقع الذي لا مراء فيه أن كل الحضارات القديمة قد زالت من الوجود ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا الصين، فالحضارة الصينية لا تزال قائمة حتى الآن منذ أربعة آلاف سنة تقريبا، كما أن حضارتنا الحالية ربما بقيت زمنا غير محدد لأن الخطر الوحيد الذي ينذر بأقوال نجمها هو الذي سوف نعرض له في هذا الفصل والفصول التالية.

والمشكلة الماثلة هي أن حضارات أمريكا الوسطى والمكسيك وبيرو وجنوب الهند والهند الصينية وجاوة نمت كلها وازدهرت إلى حد معين كما حدث لحضارات بابل وأشور وفارس والحيثيين، ثم حدث لكل منها ما أدى إلى اضمحلالها في سرعة كبيرة أو قليلة.

ولم يقتصر الأمر على أن الحضارات السابقة العظيمة النظام قد انحطت في ثقافتها بل إن مواطن التعدين القديمة التي أسسها أهل الحضارة البائدة تكثر بها الشواهد التي تدل على أن أصحابها قد غادروها في عجلة قبل أن يستنفذون ما كان بها من معادن بزمن طويل، ومن أحسن الأمثلة لذلك خرائب روديسيا الجنوبية، فالمنطقة التي توجد بها هذه الخرائب في

الوقت الحاضر هي منطقة غنية بمناجمها يكثر بها الذهب والنحاس ومعادن أخرى، وقد اكتشف القدامى فيها أحسن المناجم إنتاجا الأمر الذي يدل على علو قدر معارفهم، ولقد بلغوا من المهارة في استغلال هذه المناجم شأنا يدعو من يريد بيعها اليوم من أصحابها الحاليين إلى أن يذكر في إعلان البيع أن المناجم سبق للقدماء العمل فيها.

وتتميز هذه المناجم القديمة غالبا بغناها في المعادن وبأنها لم تستغل إلى درجة الاستنفاد، وهذا الوضع نفسه قائم في غينيا الجديدة البريطانية حيث يعثر المنقبون عن الذهب حاليا على أدوات حجرية مصقولة وأدوات لخلط الملاط بل والملاط نفسه – وكلها أشياء من مخلفات الأسلاف ولا يدري عنها السكان الحاليون شيئا، وتتكرر القصة نفسها في إقليم ينسي، حيث يتوقف النشاط التعديني فجأة.

فكسف حدث إذا أن النظام القديم في العالم كله قد انتهى أخيرا إلى زوال؟ ليس هناك من الآثار مطلقا ما يدل على أن التدهور الثقافي كان تدريجيا، بل على النقيض من ذلك تدل الشواهد على أن كارثة حلت بالقوم وعلى أن غزوا خارجيا أطاح بالمجتمع فجأة، ويبدو أن أول الوافدين إلى تلك الأماكن نعموا بالعيش في سلام وطمأنينة فترة من الزمن، ثم حدث ما أزعجهم وتدخل في مجتمعهم نفوذ معين نجم عنه تدهور الثقافة بشكل يبدو فيه عنصر المفاجأة قلة أو كثرة وفق الظروف – وعلينا الآن أن نوجه نظر القارئ إلى دراسة سبب هذا التدهور الثقافي.

في حالات معينة يشاهد أن أغلب مظاهر حضارة القدامى قد زالت من الوجود ومثل ذلك ما حدث في مواطن التعدين بشبه جزيرة الملايو وفي روديسيا وألاسكا وغيرها – ففي هذه الأماكن لا نجد الآن إلا شعوبا قليلة من ذوات الثقافة الدنية لا يبدو على أنظمتها إلا القليل من آثار نفوذ القدامى.

ولهذا يجب أن نطرح جانبا كل هذه الحالات لأنها لا تلقي الكثير من الضوء على مشكلة التدهور الثقافي، وكل ما تعرفه مثلا أن المنقبين عن الذهب في شبه جزيرة الملايو قد رحلوا عن المكان، غير أننا لا نستطيع أن نعرف السبب في اختفائهم أو على الأقل لا يمكننا أن نحدد ذلك من دراسة شبه الجزيرة فقط.

أما إذا تحولنا إلى دراسة حضارات أخرى كتلك التي قامت في أمريكا الوسطى أو المكسيك أو الصين، أي الحضارات التي كانت ثابتة الدعائم ولا يمكن أن تنهار انهيارا فجائيا تجلت أمامنا صورة لما حدث، وفي مقدورنا أن نقرر كمبدأ عام أن أقدم حضارة في الأماكن المتطرفة من الأرض كانت هي أرقى الحضارات من حيث الفنون والحرف، ونستطيع أن نؤكد أيضا أن الشعوب التي اعتلت خشبة المسرح في تلك الأماكن بعد ذلك كانت كلها من الشعوب المقاتلة التي احتلت مراكزها بطريق الغزو – والحق أن الحضارات القديمة لم تسمح لها الظروف أن تعمر طويلا دون تعرض لهجوم خارجي بل سرعان ما كان يهاجمها شعب مقاتل من هنا أو من هناك

ويحاول إبعاد الأسرة الحاكمة إذ ذاك – وكانت محاولته هذه تكلل بالنجاح في بعض الأحيان.

ومن العسير أن نحدد الزمن الذي بدأت فيه هذه الأحداث ... ويقرر بعض العلماء المصرولوجيا أنه قبل بدء عصر الأسرات بزمن قصير وفدت على مصر من الشرق جماعة حاكمة تسمى "أتباع هوراس" وربما كان قدومها من جنوبي بلاد العرب ثم تولوا مقاليد الحكم في البلاد – وقد يكون هذا القول صحيحا وغن كان من الصعب أن نصل إلى نتيجة حاسمة في هذا الشأن.

أما في حالة الشعب الناطق بالسامية الذي أسس ممالك عقاد في الجنوب من بابل فليس هناك شك كبير في أمره.

أنه جاء من مكان آخر وتمكن بمرور الوقت من السيطرة على بابل وعيلام المجاورة لها ثم مد فتوحاته إلى البحر الأبيض وآسيا الصغرى، ويعتبر ملك عقاد الأعظم سارجون (٢٥٥٠ ق. م) وذريته من بعده أول جماعة مقاتلة حاكمة عرفها التاريخ، وكان أن افتتحوا بابل التي كان يقطنها شعب أكبر الظن أن ملوكه كانوا من الكهنة لا من المحاربين – وما أن سيطرت هذه الجماعة المقاتلة على بابل حتى تغيرت الملكية فيها.

وليس من الممكن حتى الآن أن نحدد المكان الذي جاء منه هؤلاء الغزاة وإن كان الملاحظ أن ثقافتهم بها الكثير مما ينم على تأثرها بالثقافة المصرية، فقد أدخلوا في بابل الطريقة المصرية لحساب السنين وبعض أنواع

الفنون والحرف المصرية وإن لم تبلغ ذلك المستوى الرفيع الذي كانت تتميز به في مصر نفسها.

والذي يستخلص من هذا أن التوسع المصري نحو الخارج نتيجة للبعثات التي كانت ترسل تحت إمرة أعضاء من الجماعة الحاكمة كانت هي السبب في قيام حركة السامين – ليس هذا بالشيء بعيد الاحتمال وخاصة إذا تذكرنا أن المصريين في الفترات الأولى من عصر الأسرات كان لهم نشاط جم في استغلال الموارد المعدنية في شبه جزيرة سيناء وبلاد الصومال والجزء الجنوبي من بلاد العرب، وفي كل هذه الحالات لا بد أنهم تصلوا بالشعوب الناطقة بالسامية، وهذا يفسر وجود الخصائص المصرية في ثقافة الشعب الذي غزا بابل وأسس مملكة عقاد ودانت له في نهاية الأمر بابل والبلدان المتاخمة.

وابتداء من هذا الوقت قدر للحضارات الكبرى في بلاد الشرق القديم أن تتعرض لغزوات شعوب مقاتلة غريبة عنهم تفد من وراء حدودهم، ونذكر من هذه الجماعات المحاربة الكاسين "Kassites" الذين جاءوا من مكان ما من الشرق وحكموا بابل من سنة ١٧٦٠ إلى سنة ١١٠٠ ق. م. ويبدو أن هؤلاء الكاسين كانوا أسلاف الجماعة الكبرى من الأرستقراطيات المحاربة التي كانت تتكلم اللغة الآرية والتي احتلت أعمالها صفحات التاريخ خلال قرون كثيرة، ومن الغزوات الهامة الأخرى للشعوب المحاربة غزوة الهكسوس الذين فتحوا مصر في سنة ١٦٨٠ ق. م

تقريبا ثم طردوا من البلاد في سنة ١٥٨٠ ق. م وإلى الكاسيين والهكسوس يرجع الفضل في استخدام بابل ومصر للخيول والعربات، لأن مصر كانت تستخدم الحمار قبل هذا العهد دابة للحمل لا مطية كما أن العربات لم تكن معروفة لديهم، ولقد تعلم المصريون من الهكسوس القتال وأصبحوا بعد رحيل الهكسوس عن البلاد أكثر دراية بفنون الحرب مما كانوا قبل ذلك.

وأهم الشعوب الأوروبية ابتداء من منتصف الألف الثانية ق. م (١٥٠٠ ق. م) هي الشعوب الناطقة باللغة الآرية مثل الدوريين والآسيين والكلت والتيوتون Dorians, Achoeans, Celts and Teutons تلك الشعوب المحاربة التي ظلت قرونا تهدد سلم الحضارات الكبرى في حوض البحر المتوسط والتي استطاعت في حالات كثيرة أن تدمر حضارات شرق البحر المتوسط، ففتح الهكسوس لمصر مثلا كان له صدى في كريت إذ بدأت حضارتها تضمحل في ذلك الوقت تقريبا، وما بدأه الهكسوس أتمه الدوريون الذين اندفعت اسرابهم من الشمال إلى بلاد اليونان وأهلكوا الأخضر واليابس من حضارة كريت الرائعة.

أما الحركة الكبرى للشعوب الناطقة باللغة الآرية في أوروبا ففي الإمكان إرجاع تاريخها إلى زمن ما في العصر البرونزي حول بدء ألف السنة الأولى قبل الميلاد – وأهم شعب من هذه المجموعة القديمة من الشعوب هو الجماعة الناطقة باللغة الكلتية – وأول مكان سمعت أخبارهم فيه هو

وسط أوروبا حيث تمكنوا من التوسع والانتشار، وما وافى القرن الخامس قبل الميلاد حتى وطدوا سلطانهم على كل هذه الرقعة، وفي القرن الرابع ق. م أصبحوا خطرا يهدد بلاد البحر المتوسط ثم غزوا إسبانيا، ولا شك أنه كان في مقدورهم أن يعيدوا مغامرات أسلافهم في البحر المتوسط نفسه، لولا أن الرومان وقفوا في وجههم، والرومان شهب يتكلم الآرية وكان قد اكتسب قدرا كبيرا من ثقافة البحر المتوسط من الاتروويين والإغريق والقرطاجنيين، غير أن الرومان أنفسهم كان مصيرهم الوقوع في براثن جماعة أخرى من الشعوب الآرية وهم اليوتون الذين خرجوا من اسكنديناوه ودانت لهم أوروبا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وكادوا يسحقون حضارة البحر المتوسط.

ومن الواضح أن هذه الحركة تختلف كل الاختلاف عن الحركة الأولى التي أقامت فيما مضى مجتمعات متحضرة في المناطق النائية من الأرض، كانت تلك الحركة الأولى منبعثة من مركز متوسط ومتجهة نحو الخارج لأن أقدم تاريخ عرفناه للحضارة كان في بلاد الشرق القديم وكلما بعدنا عن هذا المركز كانت الحضارات أحدث تاريخيا، وكان أصحاب الحضارة البائدة يوسعون دائرة تحركهم نحو الخارج حتى شملت حركتهم أكثر جهات العالم تقريبا – أما الحركة التي يتناولها بحثنا الآن فهي من نوع مختلف كل الاختلاف لأنها تتجه أساسا صوب الداخل، فالأرستقراطيات العسكرية المحاربة من الهكسوس والساميين والدوريين والآكيين والكلت والتيوتون

وغيرها جاءت كلها من الحدود الخارجية للحضارة.

واتجهت نحو الداخل، الأمر الذي يتضح منه أن كل هذه الجماعات كان همها السطو على حضارات قائمة من قبل، وما أن ظهرت هذه الجماعات على مسرح الوجود حتى بدا عصر الحروب الحقيقية – وبعد أن كان العالم منصرفا إلى فنون السلم لا يكاد يشغله أي نوع من القتال أصبح الآن ميدانا لنضال مستمر أودى بكثير من الحضارات العظيمة إلى الدمار والاضمحلال ... وهذا أحد الحلول لمشكلة اضمحلال الحضارات.

ومن الممكن أن يقال أن مثل هذه الشعوب المقاتلة كانت قائمة منذ أن كانت هناك حضارة ما، وقد يبدو هذا القول سليما لأن هذه الشعوب ظهرت أول ما ظهرت في بلاد الشرق القديم في سنة ٢٥٥٠ ق. م عندما تأسست أسرة سارجون ملك عقاد، فإذا كانت شعوب محاربة من هذا النوع قد جالت في بلاد العرب والأقاليم المجاورة في تلك الأيام فلماذا نستبعد وجود غيرهم في أماكن أخرى؟ ولماذا نستبعد حدوث تطور ثقافي من نوع مختلف عن ثقافة الشرق القديم في مكان آخر نتيجة لقيام الجماعات المحاربة العظيمة التي عرفها العالم؟

ونظرا لما لهذه الشعوب المقاتلة من أهمية عظمى فسوف أخصص الجزء الباقي من هذا الكتاب لدراستها، فإذا ما حددنا كيفية نشأتها تحديدا تاما أصبح الطريق ممهدا لحل مشكلة الحرب، ولا بد أن نقرر أن الحرب لم تكن معاصرة لقيام الحضارة بل أنها اتخذت مظهرها العنيف في مرحلة

متأخرة من التقدم البشري، فهي إلى حد ما نتيجة من نتائج التطور الاجتماعي.

وكخطوة أولى نحو حل مشكلة هذه الأرستقراطيات العسكرية المقاتلة نذكر أن الظاهرة التي أشرنا إليها في إيجاز فيما يختص بأوروبا وشرق البحر المتوسط هي في الحقيقة حدث شمل العالم كله، فكل الحضارات العظمى تداعت أركانها في نهاية الأمر نتيجة لغزوات شنتها عليها أقوام مقاتلة من ورا الحدود، ولسنا ندري من أين جاء الهكسوس والكاسيون وغيرهم، ولكننا نعلم الكثير عن الشعوب التي جاءت بعدهم مما نستطيع أن نسترشد به في محاولة استقصاء الماضي، ولوسف مجد بالإضافة إلى ذلك أن مسلك هذه الأرستقراطيات المحاربة هو مسلك واحد في العالم كله بحيث أن ما فعلته شعوب التتار الأتراك الذين أثاروا الرعب في آسيا خلال قرون طويلة واندفعوا إلى قلب أوروبا كقبائل الهون والآفار وغيرها يطابق ما فعلته شعوب التيوتون أو قبائل البانتو الإفريقية، فالكتاب واحد مهما تغيرت فصوله، وهذه الظاهرة المشتركة بين تلك الشعوب تمكننا في يسر من أن نرسم صورة كاملة لنشاطها في كل أنحاء العالم.

وأول ما يجب أن نعرضه على بساط البحث هو أن هذه الشعوب لم تكن منفصلة كل الانفصال عن حضارة سابقة لها في الوجود، فلا أساس للفكرة القائلة أن هذه الشعوب هي التي خلقت لنفسها ثقافة في العراء، ونذكر على سبيل المثال قصة إبراهيم، فكثير من الكتاب أقاموا حجتهم

على هذه الحالة وحاولوا الوصول إلى أن مرحلة الثقافة القائمة على الزراعة المستقرة سبقتها مرحلة أخرى كان الناس فيها رحلا بماشيتهم وأغنامهم يعيشون عيشة الرعاة، وحقيقي أن الشعوب المحاربة الكبيرة في العالم يندر أن كانوا يوما من الزراع المستقرين بل تميزوا بالرعي دائما وكانت الزراعة مهنة غريبة عليهم، غير أن كل حالة من حالاتهم عرفناها تبين لنا أن حياة الرعي التي عاشوها كانت أشد تدهورا من حياة الزراعة المستقرة الأصلية، ويجب أن نذكر أن إبراهيم جاء من أور الكلدانيين كما يقول العبرانيون "Ur of the Chaldees" ثم أخذ يتجول بماشيته وأغنامه في أرض كنعان حيث تدل الآثار التي خلفها أهلها على أنهم كانوا من الزراع المستقرين، وهكذا نرى أن كل ما نعرفه عن إبراهيم يشير إلى أنه عندما رحل عن بابل حيث كانت حرفة الري قائمة على نطاق واسع إلى جانب الرعي ظل يزاول الرعي كما كان يفعل في بلاده.

وأخذ يتجول باحثا عن أرض جديدة يستوطنها، والأكثر من هذا أنه اختار بكثير من حضارته – أب إن إبراهيم بعبارة أدق يمثل نوعا من الثقافة تعتبر تدهورا من مرحلة أرقى، ثقافة عاشت حياة طفيلية على حساب مجتمعات أسبق منها وأكثر تنظيما.

وقبل أن أبين أن حالة إبراهيم هي نمط الحالات الأخرى أحب أن أذكر شيئا عن آناو التركستانية، لقد وجدت بعثة بامبلي في تلك المنطقة آثارا لمرحلة ثقافية يرجع تاريخها إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة قبل

الميلاد وتدل على أنها مشتقة من الشرق القديم، غير أن هذه البعثة لم تعثر على أثر لاستئناس الحيوان بل الواضح أن الناس هناك كانوا يعيشون على الزراعة والري – أي أن تلك المنطقة كانت مستعمرة لقوم من الشرق القديم كانوا قد أقاموا أنظمة للري ولكنهم لم يكونوا قد استأنسوا حيوان الإقليم، بل فعلوا ذلك في زمن تال حيث أن المخلفات التي وجدت بعد ذلك تدل على استئناس الحيوان، ولم يوجد في تلك الأيام ما يدل على وجود شعوب من الرحل تمتلك قطعانا من الماشية والأغنام .. تلك الشعوب التي لعبت دورا هاما في تاريخ آسيا الوسطى – حيث أنها لم تكن قد ظهرت على مسرح الحياة بعد.

وفي وسط آسيا بصفة عامة، وهو المكان الذي بدأت منه حركات كثيرة كبرى لشعوب الرعاة، نجد أن الجماعات المستقرة المشتغلة بالري والجماعات الرحل من الرعاة تختلف عن بعضها البعض من حيث الجنس وأن الطائفة الأولى هي الأسبق في مجيئها إلى تلك المنطقة –كذلك يلاحظ في إقليم ينسي إلى الشمال حيث يوجد آثار المباني الحجرية وأنظمة الري أن الشعوب الرحل من الفرسان وفدت إلى المكان بعد سكانه القدامى – وما أن حلوا هناك حتى توقفت تقريبا كل أعمال التنقيب عن المعادن التي سبقت هذا الزمن.

وتدعى قبائل الرعاة في بلاد العرب أنهم من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم أو من سلالة شعب اليمن – أما حالة إبراهيم فقد سبقت دراستها، أما

أولئك العرب الرحل الذين يدعون أنهم جاءوا من بلاد اليمن فالقول أن نزوحهم عن بلادهم كان سببه انهيار السد الكبير في مأرب وما نشأ عن ذلك من قلب لكل أوضاع الموارد المائية هناك مما اضطر السكان إلى الهجرة على نطاق واسع، ولا شك أن هذا الحادث أو بعض القلاقل السياسية كان السبب في هجرة أقوام من اليمن عاشت بعد هجرتها عيشة رعي خالصة وتخلت في أغلب الأحوال عن عادات الري والاستقرار — وقد تناول الأستاذ روبرتسون سمث هذا الموضوع بإسهاب في كتابه "الأنساب والزواج في بلاد العرب القديمة". Kinship and Marriage Arabia

هذه الأمثلة القليلة لا تدع مجالا للشك في أن هذه الشعوب من الرعاة لا تمثل مرحلة مبكرة من الحضارة بل إنها في كل أنحاء العالم تمثل ثقافة لا تعدو أن تكون أطلال ثقافة أرقى بكثير، وربما يرجع السبب في وجود هذه الفكرة الخاطئة فيما يختص بهذه الشعوب إلى نوع التفسير الذي لصق بقصة إبراهيم.

وفي مقدورنا أن نزيد الأمر إيضاحا، فإذا رجع القارئ إلى الخريطة رقم (٧) برزت له حقيقتان تتصلان بالأرستقراطيات المحاربة، أولها أن تلك الأرستقراطيات نشأت على الحدود الخارجية لحضارات على جانب كبير من الرقي، والحقيقة الثانية أن الأماكن التي نشأت فيها توجد بها آثار تدل على أنها كانت موطنا سابقا لشعوب على مستوى أرقى بكثير من مستوى تلك الأرستقراطيات المحاربة .. وأهم جماعات من تلك الجماعات بالنسبة

لنا كأوروبيين هي التيوتون .. فبعد أن انهارت الإمبراطورية الرومانية تدفقت تلك الجماعة إلى جميع أرجاء أوروبا وأدى التنازع على السلطان فيما بينهما إلى أحداث تغيرات من جميع الأشكال في خريطة القارة خلال العصور التي يطلق عليها اسم العصور المظلمة، ولقد نشأت تلك الجماعات الحاكمة من التيوتون في بلاد اسكنديناوة، أي في إقليم كانت تستوطنه من أقدم العصور شعوب جاءت إلى أوروبا وكانت تشتغل بإنتاج الطعام – والدليل على وجود تلك الشعوب ذات الحضارة الرفيعة ما يوجد في الإقليم من آثار لمبان حجرية عظيمة، فالتيوتون إذا مهما كانت نشأتهم الأولى قد ظهروا أول ما ظهروا في مكان كان موطنا لغيرهم من قبلهم بقرون عدة – كما أن مركزهم هذا كان على حدود حضارة قائمة في ذلك الوقت بحيث تأثروا دائما بالشعوب الكلتية القاطنة في وسط أوروبا أولا ثم بالرومان بعد ذلك، ولم يثبت قط أنهم كانوا مبتكرين لأي عنصر من عناصر الثقافة بل أنهم كغيرهم من الشعوب المحاربة كانوا يعيشون عالة على جيرانهم من الشعوب المتقدمة عنهم في مضمار الحضارة.

وإذا نحن تتبعنا تاريخ أوروبا قبل ذلك ودرسنا الشعوب الكلتية نفسها سمعنا القصة عينها، فقد وجدنا في أقدم مواطن هذه الشعوب في وسط أوروبا آثارا إغريقية واترورية تدل على أن شعوبا عظيمة الحضارة من إقليم البحر المتوسط كانت قد شقت طريقها إلى وسط أوروبا وأكسبت هؤلاء البرابرة بعض الثقافة، وهكذا ترى الكلتين كالتيوتون لم يبتكرون شيئا

بل إن إجماع ثقافتهم تنم على اشتقاق من إقليم البحر المتوسط، كما أن مواطن نشأتهم كانت تقطنها قبلهم شعوب من العصر البرنزي أخذت ثقافتها عن شعوب البحر المتوسط.

ولم يحدث أن وجدنا هؤلاء الكلتين بمعزل عن شعوب أعلى منهم حضارة، بل إنهم في نشأتهم الأولى كانوا قوما من سكان الحدود ظهروا في مركز به آثار شعوب أكثر قدما، وواضح أنهم اكتسبوا كل ثقافتهم من منطقة البحر المتوسط فيما عدا عادات ركوب الخيل.

وقد تناول الأستاذ هـ. م شادويك H. M. Chadwick في كتابه "عصر البطولة" "The Heroic Age" هذه المسألة حيث أكد في إصرار أن البرابرة الذين هددوا أمن أوروبا خلال القرون كان الحافز الحقيقي الذي حفزهم على ذلك منبعثا من نفس الحضارات التي هاجموها – وهو يقرر أن الروح العسكرية العظيمة التي تميز بها التيوتون الذين حطموا الإمبراطورية الرومانية والتي مكنت الولش The Welsh من قهر الرومان بالطريقة نفسها، تلك الروح العسكرية يرجع وجودها إلى تأثير النظام الحربي الروماني في تلك الشعوب، فقد التحق الشبان من نبلائهم بخدمة الجيوش الرومانية الإقليمية وتعلوا كل ما يختص بالشئون الحربية، وبذلك تمكنوا عند عودتهم إلى بلادهم من تطبيق تلك الدروس تطبيقا فعالا لخدمة أغراضهم، هذا هو الوضع العام فيما يختص بما حدث من اتصال بين الحضارة والبربرية ولم يبق لازما سوى ذكر حالة الزولو.

وبما أن كلمات الأستاذ شادويك تعبر تعبيرا كاملا عما أحاول شرحه في هذا الفصل فإنه لا يسعني إلا أن أقتبس

ما قاله تفصيلا – فهو يسمى عصر الغزوات البربرية "عصر البطولة" ويقارن مظاهر متشابهة في أجزاء مختلفة من أوروبا نجمت عنها نتائج متماثلة، وعند مناقشة لنشأة هذا العصر يقول "لا مبرر لاعتقادنا أن عصر البطولة نشأ محليا من حضارة قديمة على قدر كبير من الرقي، فمثل هذه الظروف لا تبعث عصر بطولة كما لا يمكن أن توجد ظروف أخرى من النوع البدائي".

ففي أربع من الحالات الست التي درسناها كان قيام هذا العصر راجعا إلى سلسلة متشابهة من الأسباب، فنجد أولا فترة تعليم طويلة اتصل فيها شعب شبه متحضر بشعب آخر متحضر وتأثر بهذا النفوذ الخارجي تأثيرا عميقا، ثم يلي ذلك زمن وصل فيه ذلك الشعب شبه المتحضر إلى مركز الصدارة واستولى إلى حد ما على ممتلكات جاره، هذه هي الظروف التي أثرت في الشعوب شبه المتحضرة فأحدثت تلك الظاهرات التي تميز بها عصر البطولة كما عرفناه (صحيفة ٤٦٠ من الكتاب المذكور) وكنت أود أن أقتبس الكثير مما ورد في هذا المؤلف الهام للأستاذ شادويك ومن مؤلفه الآخر "نشأة الأمة الإنجليزية Origin of the English Nation فكلاهما يؤيد كل التأييد وفي سعة من العلم مادة النصف الثاني من هذا الكتاب ولكني أكتفي بإحالة القارئ إلى هذين الكتابين.

وهكذا نرى أنه في حالة أوروبا وجدت على حدود الحضارات

الكبرى شعوب مقاتلة استمدت سندها الثقافي من تلك الحضارات ثم أصبحت في نهاية الأمر خطرا يهددها، أي أن هذه الشعوب المقاتلة كانت طفيلية بالمعنى الكامل.

وفي حالة واحدة هي حالة الرومان تمكنت شعوب البحر المتوسط من تمدين غزاتهم إلى حد كبير وبذلك جعلوا منهم شعبا مسالما، والمعروف أن الرومان نشأوا مجتمعا صغيرا على حدود المملكة الاترورية ثم دانوا لطبقة حاكمة من الاتروريين .. وفي ظل هذه الطبقة بدئوا حياة الغزو، غير أنهم في فتوحاتهم هذه كانوا يتعلمون من الشعوب التي يخضعونها لسلطانهم – وعلى هذا فبالرغم من أن الرومان لم يسهموا في الحضارة قدر ما فعل الإغريق الذين دانوا لهم، إلا أنهم وقفوا في وجه الموجة البربرية إلى حين، وكان هذا منهم خدمة للجنس البشري.

وهذه الصورة التي رسمناها لغزاة أوروبا البرابرة تصدق على العالم كله، ففي جميع الحالات نشأ الغزاة في مكان كان يقطنه قبلهم عادة شعب أكثر حضارة – ثم استقوا ثقافتهم من مصدر ما أكثر رقيا منهم، ويعتبر إقليم منغوليا وسيبيريا الموضح على الخريطة من أهم مناطق العالم من وجهة نظر الحرب، ففي هذا الإقليم نشأت أعظم الشعوب الغازية من التتار الأتراك ثم اندفعت صوب الخارج كما يتبين من المؤلفات الآتية:

١ – ألف سنة للتتار – للأستاذ باركر E. H. Parker: Thousand Years of the Tartass

٢- تاريخ الهون للأستاذ دي جيبي De Guignes "Histoire des Huns"

ومن المقالات الكثيرة التي نشرها سر هنري هوورث في المجلة الآسيوية الملكية عن الجهات الشمالية للصين "Northern Frontages of China" وأول شعب من الرعاة الرحل – أولئك الذين جاءوا في أعقاب قدامى المنقبين عن الذهب في إقليم ينسي وفدوا على ما يبدو من الجنوب لأن عناصر التشابه بين ثقافتهم وثقافة أهل الجنوب تؤكد أنهم نشئوا في تلك الجهة، وكان هذا أيضا من شأن الاسكوذيين The Scythians وهم الشعب المقاتل العظيم الذي كان يعيش فيما مضى في جنوب روسيا – أما شعوب التتار التركية فقد نشئوا في إقليم ملئ بمخلفات شعب على قدر رفيع من الحضارة – ولا شك أنهم تلقوا الكثير من وحيهم الثقافي من الصينيين ومن مصادر أخرى – فالأتراك مثلا وهم الذين جاءوا من مكان ما في إقليم كانسو بغرب الصين لم ينتجوا إلا القليل من الفن والآداب والعلوم – وما كانوا إلا محاربين عاشوا طفيليين على بقية الجنس البشري.

ولقد كانت حركات الأتراك والتتار وغيرها موجهة دائما نحو حضارات على قدر رفيع من النظام، وهم في هذا يشبهون شعوب أوروبا المحاربة من الناطقين بالآرية، فإنهم لم يجشموا أنفسهم قط مشقة النزوح نحو إقليم رعاة الرنة في سيبيريا، بل كانوا يتجهون دائما صوب الجنوب وصوب الغرب، إلى بلدان يجدون فيها كميات ضخمة من الأسلاب.

ولطالما استغلت حركات الهون والترك والمغول لكي تبين أن حركات الإنسان تتأثر إلى حد كبير بموارد غذائه – وأصحاب هذه المدرسة الفكرية وعلى رأسهم الأستاذ هنتنجتون Prof. Huntington يقررون أن فترات الجفاف التي تعرضت لها آسيا أحدثت شحا في موارد الغذاء وبذلك اضطرت شعوب الرحل المقاتلة إلى النزوح جنوبا إلى بلاد أخرى سعيا وراء مراع جديدة، ولكي أوضح تماما أن شيئا من هذا لم يحدث فإني أقدم للقارئ الخريطة رقم (٨) مبينا عليها حركات ثلاثة من هذه الشعوب، وهي تظهر في جلاء الدوافع الحقيقية التي حفزت تلك الشعوب المحاربة على ما قاموا به من غزو، فلم يكن هدفهم البحث عن الطعام بل الوصول إلى من يستطيعون السيطرة عليه، فساروا لتحقيق هذا الهدف من منجم ذهب إلى آخر يفرضون أنفسهم حكاما على من يجدون من زراع مستقرين مسالمين حتى وصلوا أخيرا إلى الهند –كعبة كل المحاربين – وكما هو الحال في أجزاء أخرى من العالم لا يمكن فصل تلك الأرستقراطيات المحاربة عن الحضارة التي ترعرعوا في أحضانها، والحق أن أولئك القدامى الذين كانوا أول من شق الطريق التجاري إلى الصين عن طريق باركول Barkul منتقلين من منجم ذهب إلى آخر لم يدر بخلدهم إذ ذاك ما سوف يكون لمغامرتهم هذه من نتائج[١] .

ويظهر من هذا أن حركات الشعوب المقاتلة كان لها هدف ترمي إليه

[١] يشير الكتاب إلى أن هذا الطريق سلكه الغزاة إلى الصين المترجم.

وأن أسباب هذه الحركات التي قام بها الرحل في آسيا كانت واحدة دائما، فالأمر أن زعيما محاربا عظيما كان يظهر في إحدى القبائل الصغيرة ثم يفلح في إخضاع جيرانه، وهؤلاء بدورهم يتحالفون معه طلبا للأمن في كنفه ويساعدونه على القيام بغزوات أوسع، فإذا كان له من العبقرية ما كان لجنكيز خان أو تيمور لنك أو أتيلا أو أي زعيم آخر من البارزين فإنه يؤسس إمبراطورية عظيمة، وتبدأ العملية كلها من جديد، ومما يسهل الأمر عليه أن سكان وسط آسيا من الزراع المستقرين كانوا دائما كما هم الآن من الجماعات المسالمة كل المسالمة، ولهذا نجد أن السهول الخصبة لأنهار سجديانا وبخاري وغيرهما كانت دائما فريسة للغزاة من الرحل، وكان على أهلها المستكينين أن يحنوا رؤوسهم دائما لحكم أجنبي، فلا عجب أن نسمع أن شعوب الرحل المقاتلة يطيب لهم المقام في ربوع البقاع التي يشتغل أهلها بالري والزراعة.

ومن السخف أن يقال أن آسيا كانت تفتقر إلى المراعي الجيدة، فهناك آلاف الأميال المربعة من المراعي الخصبة في إقليم زنجاريا Dzungaria لم تكن يوما موطنا لسكان من الرحل أو المشتغلين بالري والزراعة — والسبب في أن هؤلاء الزراع لم يستوطنوا تلك البقاع هو أن كل أنهارها فيما عدا واحدا لا يوجد بها ذهب، وكذلك نبذها الرحل أيضا لأنهم لم يجدوا بها قوما يحكمونهم وركزوا أنفسهم في أماكن أقرب إلى الحضارة.

وكان الرحل المقاتلون في آسيا كإخوانهم في أوروبا مصدر خطر دائم

على المجتمعات المستقرة في تركستان والصين .. أما الصينيون فقد بنوا جدارهم العظيم في القرن الثالث قبل الميلاد وعاشوا وراءه في مأمن من غزوات الرحل إلى حد ما، غير أن شعوب وسط آسيا لم يكن لديهم من هذا القبيل شيء يحميهم – ولهذا نجم عن تصادمهم الدائم بالبرابرة الذين لم يكن لهم سوى الغزو دون أن يجلبوا معهم من عناصر الثقافة شيئا – نتج عن هذا التصادم أن هلكت بمرور الزمن بلدان كثيرة كانت فيما مضى يانعة مزدهرة – وبديهي أن تدمير موارد الماء في بلد يعتمد كل الاعتماد على خزن المياه هو أمر خطير لم يغب عن ذهن الغزاة يوما، ولهذا نجد أجزاء كثيرة في وسط آسيا كانت فيما مضى تكفي حاجات سكان يعيشون عيشة رغدة قد أصبحت الآن فقراء خاوية نتيجة لأعمال الرحل المقاتلين، وفي حالة آسيا لم تكن هناك حضارة قائمة في وسطها تستطيع إلى ما لا نهاية أن تقاوم الهجمات الخارجية، ولذا آل أمرها إلى الاضمحلال والدمار.

ولقد سبقت شعوب التتار الأتراك إلى وسط آسيا شعوب تتكلم الآرية تحركت صوب الجنوب إلى الهند في وقت لا نستطيع تحديده وربما كان ذلك في سنة ألف قبل الميلاد تقريبا وبمرو الزمن انتشر هؤلاء الحكام من أصحاب اللغة الآرية في جزء كبير من الهند وأسسوا الكثير من الأسرات الحاكمة مثل أسرة راجبوت The Rajputs وكانت مواطنهم الأولى في إقليم البنجاب وأقاليم أفغانستان المجاورة من المواطن التي توجد بها كميات من الذهب وما يتبع ذلك من وجود شعب متحضر، ويتبين من

هذا أن حركاتهم كان يتحكم فيها أخيرا وجود مواد معينة يرغبون فيها، كما أن عقولهم كانت منصرفة إلى إخضاع غيرهم فقط، أما من حيث الثقافة فقد كان مستواهم أقل بكثير من شعوب الهند التي كانت قائمة عند الغزو والتي اتحدوا معها إلى حد ما في نهاية المطاف، وهذه الشعوب الآرية تتميز بنفس خصائص الأرستقراطيات المحاربة التي وجدت في جات أخرى، أي أنها تدهورت من حالة ثقافية أعلى وتحكمت في شعوب أرفع منها ثقافة.

وفي مقدورنا أن نضرب أمثلة كثيرة لحركات شعوب حربية مقاتلة في أجزاء أخرى من العالم، وكان مسلكها في كل مطابقا تماما لمسلك التيوتون والكلت والأتراك والتتار أو أي شعب مقاتل آخر سبق وصفه، ومن الأمثلة الهامة جماعة التاي شان التي انحدرت من إقليم يونان الصيني منذ ألفي سنة تقريبا وسيطرت على الحضارات العظيمة في الهند الصينية فتدهور مستواها الثقافي نتيجة لذلك، والمعروف أن إقليم يونان يقع على الحدود بين الصين وما يليه من بلاد الهند، وقد وجدت فيه أدوات كثيرة من الحجر المصقول مما يدل على أنه كان فيما مضى موطنا لشعب من أصحاب الحضارة البائدة منصرف إلى استغلال ما في الإقليم من موارد.

ولأفريقيا أيضا شعوبها المقاتلة وكلها خرجت من مناطق توجد بها آثار الحضارة البائدة كالمباني الحجرية في أفريقيا الشمالية الغربية، ثم سيطرت على الشعوب المسالمة من الزراع المستقرين، وقبائل البانتو من الحالات التي يجدر ذكرها.

فقد نشأت في إقليم المرتفعات الشرقية من شرق أفريقيا نتيجة لقدوم طبقة حاكمة من الرعاة تنتمي إلى الجنس الحامي من ناحية الحبشة وسيطرتها على شعب من الزنوج يحتمل أنه كان يشتغل بالزراعة، ومن هناك انتشرت أسرابهم في كل أنحاء أفريقيا إلى الجنوب من السودان مكتسحين أمامهم قبائل البشمن والهوتنتوت – وواضح أن حالتهم تعتبر حركة منطلقة في اتجاه بعيد عن الحضارة ولو أنه من المحتمل أن يكون مركز التعدين العظيم في جنوب روديسيا من العوامل التي جذبتهم نحو هذه الجهة، ومن المؤكد أن قبائل البانتو اكتسبت كل ثقافتها من مصادر أعظم حضارة، إذ كلما اتجهنا نحو الشمال ازداد الشبه بين آرائهم وعاداتهم وبين ما كان سائدا منها في مصر القديمة، ومثل ذلك أننا وجدنا خلال السنوات الثلاثين الأخيرة أن سكان أوغندا، حيث توجد ممرات حجرية، لهم عادات كثيرة وخاصة ما كان منها متعلقا بالأسرة المالكة تلقي ضوء كبير على ما كانت تنطوي عليه الاحتفالات المصرية القديمة من معنى.

وفي أمريكا أيضا يقوم الدليل على أن شعوب المناطق النائية تغلبت في نهاية الأمر على الشعوب المستقرة من أصحاب الحضارات الأولى القائمة على الري، ففي حالة المكسيك أصبح من المعروف أنها تعرضت لغزوات متتالية من الشمال قامت بها جماعات من شعوب مقاتلة تمكنت قبيل مجيء الإسبان من حكم جزء كبير من البلاد، واشهر هذه الشعوب المحاربة هم الأزاتقة حكام مدينة المكسيك إبان الفتح الإسباني .. وتدل

ثقافة الأزاتقة على أنها مثل ثقافة التوتون والتتار والأتراك استقاها أهلها من الشعوب الأكثر منهم حضارة والتي غلبوها على أمرها في أخر الأمر.

وهكذا كان أن الحضارة القديمة أنتجت فيما أنتجت سما وانتهى بها الأمر إلى تجرع السم فسممها.

الفصل الثامن

نظرية تسلسل الأسرات الحاكمة

إن لب موضوع هذا الكتاب هو أن بلاد الشرق القديم، وخاصة مصر، هي موطن الحضارة، وأن كل المجتمعات المنتجة للطعام في العالم قد استقت ثقافتها بطريق مباشر أو غير مباشر من هذه المنطقة الصغيرة، ومع أن بعض هذه المجتمعات قد أضافت شيئا إلى ما أخذت إلا أن الثقافة في أغلب الحالات قد قضي عليها في علمية انتقالها.

ولقد وجدنا فيما درسناه في الفصل السابق أن شعوب الرعاة الرحل التي درجت على القتال كانت قد نمت في المناطق المتاخمة للحضارة بطريقة ما أو بغيرها ثم اندفعت نحو هذه الحضارات المستقرة وتمكنت في أكثر الحالات من إخضاعها، فانحط مستواها الثقافي – وفي مقدورنا أن نقرر على ضوء ما نعرف أن هذه المجتمعات المقاتلة الطفيلية تدين بالفضل في ثقافتها لشعوب عظيمة الحضارة كانت هذه المجتمعات تعيش إلى جوار حدودها، وبما أن تفرغ مجتمعات مقاتلة من مجتمعات أخرى أكثر رقيا وأكثر مسالمة كان حدثا شمل العالم كله فلا بد أن هناك سببا مشتركا أدى إلى هذه الظاهرة، وسوف نعني في هذا الفصل بوضع نظرية تفسر هذه الحقائق.

لقد رأينا أنه فيما يختص بالثقافة يوجد تسلسل كامل الحلقات بين الفنون والحرف التي كانت لدى الكلت والتيوتون في أوروبا وبين مثيلاتها مما

كان لدى شعوب البحر المتوسط، وبما أن هذه المجتمعات المقاتلة نقلت ثقافتها المادية عن هذه المنطقة فيما عدا عادات ركوب الخيل، فمن حقنا أن نتساءل هل أخذت أنظمة اجتماعية أخرى من المصدر نفسه؟ ومن المعروف أن الكلت والتوتون حسبما يثيرون اهتمامنا كشعوب رحل محاربة كانوا في المقام الأول أرستقراطيات مقاتلة تحكم شعوبا تختلف عنها اختلافا بينا من حيث نشأتها، فالكلت مثلا لم يستعمروا إسبانيا وجنوبي فرنسا استعمارا حقيقيا بل إن كل ما فعلوه هو انهم فرضوا أنفسهم حكاما على أهل البلاد، وكان هذا هو وضع الشعوب المقاتلة في أي جزء من أجزاء الأرض، والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو "ما أصل تلك الأرستقراطيات المحاربة؟ وهل انحدرت هي أيضا من الحضارات القديمة كما جاءت بقية حضارة الكلت والشعوب المحاربة الأخرى"

أظن أن في مقدورنا أن نقرر دون شك أن كل جماعة حاكمة في العالم قد تفرعت من جماعة حاكمة أخرى سبقتها، ويستثنى من ذلك طبعا مكان واحد هو الذي نشأ فيه هذا النظام، ومن المحتمل أن يكون هذا المكان هو مصر، أي أن هناك تسلسلا كاملا يجري بين كل الطبقات التي حكمت الدول في كل أنحاء العالم، وقد يبدو غريبا على الأسماع أن ميكادول اليابان يتصل في النهاية بالجماعات الحاكمة في أوروبا وبفراعنة مصر، ولكني أرى أن هذه هي حقيقة الأمر، ولهذا أوجه نظر القارئ إلى نظرية تسلسل الأسرات الحاكمة التي سوف نتناولها فيما يلي:

وربما كان من المفيد في هذه الحالة أن نبدأ بالمعلومات المعروفة للجميع ونستعرض حالة أوروبا في سنة ١٩١٤ قبل نشوب الحرب الكبرى (الأولى)، كلنا نعرف المقصود بكلمة الأصل الملكي إذ ليست في حاجة إلى تعريف، فعندما كان أمير أو أميرة على شوك الزواج كان لا بد لاختيار الطرف الآخر من أن ينحصر الاختيار في أسرات محدودة، وكانت كل الأسرات الحاكمة في أوروبا متصاهره، فالبيت المالك الإنجليزي كان له نسب مع حكام ألمانيا السابقين آل هوهنزلرن وهؤلاء بدورهم كان لهم أنسباء يجلسون على عروش دول أوروبية كثيرة كبلغاريا واليونان وغيرهما، وبهذا كانت تلك البيوت المالكة متشابكة في أوروبا دون اعتبار للأجناس.

فكنت تجد أن أحد أفراد أسرة هوهنزلرن وهو بروسي لا تعرف أرومته حاكما لشعب سلافي مع انه ربما كان إيطالي الأصل، وفي بلادنا نحن (إنجلترا) حكم ملك تيوتوني الأصل شعوبا من الكلت والتيوتون وجنس البحر المتوسط.

وثمة حالة غريبة أخرى وهي أن إمبراطورية النمسا السابقة المكونة من خليط كبير من شعوب التيوتون والسلاف والمجر والبحر الأبيض كانت تحت إمرة حاكم واحد، وهكذا ترى أن أوروبا كان بها وحدة بين الحكام واختلاف بين الشعوب.

ولكي نعرف الكيفية التي جاءت بها أسرة مالكة إلى بلد ما أو كيف توطدت حدود هذا البلد لا نستطيع أن نستفيد من علم الأجناس إلا

قليلا بل يجب أن يكون مرجعنا الأكبد كتاب للأنساب، وفي دراسة تاريخ الأسرات المالكة الأوروبية لا يمكننا أن نستخلص شيئا من أنواع أجناس القارة ولا بد أن نتحرى في أناة ما بين الأسرات المالكة من روابط عائلية وما قام بينها دائما من منازعات حول العروش كي نصل إلى الحل المنشود، ولقد كانت حياة أية دولة في الماضي والمدى الذي تصل إليه وقفا على استمرار أسرتها المالكة في الحكم، وبذا تكون دراسة نشأة الدولة المقاتلة في أوروبا هي نفسها دراسة نشأة الملكية فيها.

وما دام الأمر هكذا فلنر ما نستطيع معرفته من تاريخ أصول البيوت المالكة؟ وجدير بنا في هذا الصدد أن ندرس تاريخ بلادنا (إنجلترا).

إن الأستاذ شادويك قد ضمن كتابه "أصل الأمة الإنجليزية" Origin of the English Nation سردا واضحا للكيفية التي نمت بها أقدم الدول المحاربة في أوروبا، وهو يؤكد في كتابه هذا أهمية الدم الملكي كعامل أساسي مكن الإنجليز السكسونيين والجوت من تأسيس دولهم، كما يؤكد أن التفرقة التامة كانت قائمة في هذه الدول بين الحكام والعامة، ويقرر أن كل الأنساب الملكية المحتفظ بها في مقاطعات كنت ووسكس واسكس وإنجيليا الشرقية ومرسيا ولندسي وديرا وبرنيسيا تصل في النهاية إلى الآلهة، وبهذا يثبت تميز الحكام عن عامة الشعب، وهم يدعون في أكثر الأحوال أنهم انحدروا عن شخص اسمه أودن Odin وهو الذي يقال أنه جاء إلى بلاد دنمارك من فارس حيث كان من أفراد الأسرة المالكة، وقد

يبدو غريبا أن تقرأ عن إله كانسبان، غير أن من يقرأ كتاب "نشأة السحر والدين" لا يجد في هذا شيئا عجيبا، بل هي على النقيض من ذلك حقيقة بالغة الأهمية بالنسبة للموضوع الذي أعززه.

وغير مجد أن نتحدث عن أصول الملكية في إنجلترا التوتونية إذ لا يوجد دليل على أن أية أسرة مالكة نشأت في البلاد في ذلك العهد، ويبدو أن المهاجرين الذين وفدوا إلى إنجلترا من اسكنديناوة جاءوا إلى هذه البلاد تحت إمرة حكامهم، وعلى هذا نجد إنجلترا مقسمة إلى عدد من الممالك لا على أساس الأجناس بل نتيجة لتقسيم البلاد بين أعضاء الجماعة الحاكمة، كما أن عدد الممالك كان يتوقف على أسباب تتعلق بالأسرات المالكة، ومثل ذلك أن مملكة وسكس أسسها أعضاء من الأسرة المالكة في سكس أو أسكس هاجروا من مملكتهم واستولوا على شقة من البلاد أقاموا فيها دولة جديدة.

ونحن نعرف جيدا الطريقة التي أسس بها التيوتون ممالكهم في إنجلترا، فلقد كان من الخصائص الدائمة في حياة الدول الاسكنديناوية أن ترسل حملات حربية إلى الخارج حت إمرة رجال يجري في عروقهم الدم الملكي كانوا في بعض الحالات يجبرون على هذا العمل هربا من جرائم ارتكبوها في بلادهم، وبما أن هؤلاء كانوا حكاما بحكم المولد والنشأة فمن الطبيعي أنهم كانوا يسعون إلى مزاولة مهنة الحكم وسرعان ما كانوا يؤسسون دولة جديدة إذا ما نجحوا هم وأتباعهم في تحقيق أهدافهم، وبهذه الطريقة كانت

تقوم مملكة يحكمها ملك محارب وتستند إلى أرستقراطية حربية من أتباعه، أما الوطنيون من أهل البلاد فلم يكن لهم أي دور في حياة الدولة بل كانوا في العادة يستمرون على مزاولة الزراعة والمهن الأخرى.

وليس هناك شك في أن التيوتون كان لهم في بلادهم أسرات حاكمة لأن مؤسسي ممالك الجوت والإنجليز والسكسونيين جاءوا أصلا من بلاد الدنمارك الحالية وبلاد السويد والنرويج وشمال أمانيا – ويدل ما لدينا من معلومات عن تلك المنطقة في أقدم عصورها أن الحكومات الملكية كانت قائمة في كل أنحائها، وأن الشعوب التيوتونية فيما عدا السكسونيين القدماء كانوا تحت إمرة أسرات حاكمة والواقع أن التقاليد الاسكنديناوية لا تعرف سوى الملكية شكلا للحكم كما أن المملكة كانت مرتبطة بالأسرة المالكة التي يستند حقها في الحكم إلى نسبها الإلهي. وواضح إذن أن كل ملك لا بد به من أن يكون سليل مؤسسي العرش.

وقد خرجت من منطقة اسكنديناوة وشمال ألمانيا في أوقات مختلفة شعوب حكمت كل أوروبا وفرضت نفسها أسرات حاكمة في كل مكان، ومن أمثلة هذا جماعة القوط الذين انقسموا إلى القوط الغربيين والقوط الشرقيين وكذلك اللومبارد والبرجانديون والنورمان، كل هؤلاء الرحل كان لهم أسراتهم التي ترتبط بها مصائر الأمة – وتاريخ القوط وما آل إليه أمرهم يصورهم تاريخ كل هذه الشعوب فمنذ عهد[١] تاسيتس Tacitus إلى

[١] مؤرخ روماني عاش بين سنة ٥٥ وسنة ١٢٠ ميلادية على وجه التقرب

ثلاثمائة سنة بعده كان تاريخهم سجلا قائما حافلا بالمذابح الوحشية والنهب .. ثم أصبح القوط بعد ذلك بقرن واحد أقوى أمة في أوروبا .. فتربع ملك منهم على عرش القياصرة في إيطاليا، ولم تر البلاد خلال عصور كثيرة ملكا أكثر منه حكمة وحبا للخير أما الملك الثاني فقد حكم إسبانيا وأغنى أجزاء بلاد الغال.

فإذا ما انصرم من الزمن بعد ذلك مائتان وخمسون سنة زالت ممالك القوط من الوجود – أما الأمة نفسها فقد اختفت من مسرح التاريخ غير تاركة وراءها أثرا، ويقول الأستاذ شادويك أن الطريقة الوحيدة التي نستطيع أن نعلل بها ذلك الانتشار الهائل لشعوب لم تكن معروفة هي أن نسلم أنها انتشرت بالأسلوب نفسه الذي اتبعه الفايكنج والنورمان وأبطال الشمال في تكوين ممالك في بقاع متباعدة بعضها عن البعض كل البعد ألا وهو تلك الحملات الحربية التي كان يقودها رجال من دم ملكي، ولم تقم أمثال تلك الممالك على الجنس بل كانت مجرد دول حربية تخضع لأسرة حاكمة فإذا ما قضي على الأسرة ذهبت الدولة معها حتى يبعثها فاتح آخر من جديد أو تقسم بين دول أخرى.

وزوال الدول المحاربة بصورة فجائية هو نتيجة حتمية لقيامها بصورة فجائية، مد يعقبه جزر وجذب إلى الأمام يليه ارتداد إلى الخلف، تلك كانت الظاهرة التي تميزت بها هذه الأحداث، ومع ذلك فقد كان هناك خيط متصل يجري خلال العقدة بأكملها – فحيثما وجدت أسرة حاكمة

في دولة من هذه الدول فإن هذه الأسرة ترجع أصولها إلى أسرة حاكمة أخرى في الماضي البعيد، وبما أن الحملات التي كانت ترسل إلى الخارج كان يقودها دائما رجال من دم ملكي فإن النتيجة المباشرة هي تسلسل الأسرات الحاكمة، والثابت أن الرجال الذين لم يكونوا من دم ملكي كان دورهم في تأسيس أسرات مالكة في أوروبا تافها، ففي حالة أو اثنتين تمكن بعض الأفراد من اغتصاب عرش إنجلترا غير أن الأسرة المالكة الشرعية سرعان ما كانت تعود إلى العرش بعد موت المغتصبين .. ولقد حدث نفس الشيء بعد زوال الأسرة المالكة للقوط الغربيين في إسبانيا – فقد حاول بعض النبلاء أن يكونوا أسرة حاكمة ولكن أحدا منهم لم يصب في محاولته نجاحا.

ومن السهل أن نفهم مسألة قيام الممالك التيوتونية وسقوطها في أوروبا ما دمنا ننظر إليها في ضوء ما كان يحدث بين فروع الأسرة المالكة التي نشأت في اسكنديناوة من أخذ ورد، كل ذلك في منأى عن الأجناس وعن الشعب بوجه عام لأن الدم الملكي دون سائر الأشياء كان هو العنصر الفعال في هذا الشأن.

ولقد كان الكلت سابقين للتوتون وكان وسط أوروبا أول مكان سمعنا أخبارهم فيه – وقد اشتق التيوتون من الكلت الكلمات الخاصة بشئون الملكية والحرب، ومن هذا نستنتج أن الأسرات الحاكمة التيوتونية انحدرت من مثيلاتها الكتلية.

ومن المؤسف أننا لا نملك دليلا مباشرا على هذا، غير أن مسلك الكلت في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد يطابق تمام المطابقة مسلك التيوتون في العصور التالية، فقد انتشروا بسرعة فائقة وأسسوا مستعمرات لهم في بلاد بعيدة كاسيا الصغرى مما يدل على أنهم كانوا يرسلون حملات حربية على غرار ما فعله التيوتون من بعدهم، والحق أن كل الدول آرية اللغة في أوروبا كما في آسيا سلكت هذا المسلك، فالدول الإغريقية كانت تقوم ثم تزول كما كان يحدث للدول التيوتونية، وكانت الملكية في كل هذه الدول محددة المعالم إن لم تكن أكثر تحديدا من الملكية في إنجلترا.

وقد سبق القول أن الكلت يدينون بالفضل في كثير من ثقافتهم للإغريق – وهذه نقطة طالما أصر عليها الدارسون للثقافة الكلتية مثل الأستاذ م. داربوا دي جوبان فيل في كتابه "حضارة الكلت وحضارة الملحمة الهومرية"[٢] M. D' Arbois de joubainville فمن الأمور الشائقة أذن أن نعرف آراء الإغريق عن نشأة أسراتهم الحاكمة، ولا شك أن لهذا أهمية مزدوجة، فنحن في دراستنا للإغريق إنما نتناول بلدا اتصلت فيه حتما الشعوب المحاربة القادمة من الشمال بحضارة البحر المتوسط.

يرجع الإغريق أسراتهم الحاكمة القديمة إلى أصول في بلاد تقع إلى الجنوب منهم وأخصها مصر، فنطالع في القصص الإغريقي أن دانوس مؤسس الأسرة المالكة في أرجوس جاء من مصر وزيادة على ذلك كان

---

[٢] Civilisation des Celtes et celle de lepopee Homerique

المقروض أن دانوس هذا كان ابن ملك مصر وابن شقيق ملك فينيقيا شقيق ملك مصر أي أن الإغريق ربطوا أقدام أسراتهم الحاكمة بالأسرات الحاكمة في مصر وفينيقيا، والمعروف أن هيرودوت كان مقتنعا أن الإغريق أخذوا عن المصريين آلهتهم — كما أن لوسيان في كتابه عن آلهة سوريا يرى نفس الرأي — وغالبا ما يقول أن هيرودوت كان متأثرا إلى حد كبير بالكهنة المصريين إلى حد أنه صدق ما كانوا يدعون، غير أنه في الوقت عينه كان قد زار بلاد بابل وتوفرت له كل الفرص لدراسة المشكلة — وبما أن عبادة الآلهة هي من اختصاص الأسرات الحاكمة في كل أنحاء العالم فإن ادعاء الإغريق المزدوج أنهم أخذوا من مصر أسراتهم الحاكمة كما نقلوا عن المصريين آلهتهم يؤكد الواحد منهما الآخر ويزيد من احتمال صحة هذا الادعاء.

وثمة مثل شائق على احتمال أن حكاما للإغريق جاءوا من منطقة البحر المتوسط وهو أن ملوك مدينة اسبرطة الهرقليين هم سلالة البطل هرقل الذي ينتمي إلى منطقة البحر المتوسط — وفي مقدورنا أن نزيد سندا آخر للقول أن أسرة أرجوس الحاكمة جاءت من مصر — ذلك أن العصر الميسيني الذي دام في بلاد اليونان نفسها من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١١٠٠ ق. م وجد به ما يستدل منه على نفوذ مصري. ويقول الأستاذ سر أرثر ايفانز في كتابه "قصر مينوس" أن الحضارة الميسينية في بلاد اليونان الرئيسية اشتقت من جزيرة كريت وكانت دونها في المستوى الثقافي،

وقد ظهر هذا النمط الثقافي أول ما ظهر في كريت في مستهل العصر المينوي (٢١٠٠ ق. م) وهي ثقافة تشتمل على آثار كثيرة تدل على أنها نقلت عن مصادر مصرية، ومن أهم عناصر الأدلة على هذا الاشتقاق نوع المقابر التي كان حكام العصر الميسيني يدفنون فيها، فقد كانت تلك المقابر نماذج مطابقة للأصول الكريتية والمصرية.

والأكثر من هذا أن المقابر الكريتية وجدت بها نماذج للمومياوات أما في المقابر اليونانية نفسها فقد كانت الجثة تحنط في الشهد فعلا، كل هذا يشير إلى أن حكاما يتصلون اتصالا وثيقا بالأسرة الحاكمة المصرية جاءوا إلى منطقة البحر المتوسط وفي الإمكان أن نذهب إلى أبعد من هذا، فقد أوضح السير آرثر ايفانز في رسالته عن "العبادة الميسينية للشجرة والعمود" "Mycenoean Tree and Pillar Cult" أن هذا النوع من الفن مليء بآراء عن الشمس مشتقة من مصر.

ويبدو من المؤكد أن هذا صحيح لأنه يتفق مع أدلة أخرى ومن المتفق عليه أن ظهور استعمال البرونز في أوروبا كان دون شك نتيجة لتأثير واحد، لأن عناصر الثقافة التي ظهرت في وقت واحد في أماكن متناثرة كان بعضها شديد الشبه ببعضها الآخر إلى درجة يستحيل معها أن تكون نشأة كل منها مستقلة عن نشأة الأخرى، وإلى جانب الأدوات والمدى البرونزية ظهر في أوروبا استعمال الرموز الشمسة التي لم تكن معروفة هناك حتى ذلك الحين – كما استخدم الحكام معدن الذهب في الزينة، وظهر نوع

المقابر ذو القبة المستديرة المماثل تماما لمقابر كريت في العصر المينوي الأوسط ولمقابر اليونان في العصر الميسيني، ولقد ظهر هذا الطراز من المقابر في سردينيا وفي جنوب شرق آسيا وفي فرنسا وميس هوى بمجموعة أوركني Maes Howe in the Orkneys وفي نيو جرينج بارلندا، ويتكون المدفن من غرفة حجرية كخلية النحل يصل إليها بوساطة ممر ذي جدران حجرية جافة – ويغطي كل هذا كوم من التراب أو بقايا الأحجار.

ووجود المقابر الفسيحة في أوروبا يعني أن أعضاء أسرة حاكمة جاءوا إلى هذه المنطقة إذ لا يستطيع أحد غيرهم القيام بهذا العمل، أما استعمال الرموز الشمسية فهو دليل على أن بناة هذه القبور كانوا يعبدون الشمس – والمعروف أن عبادة الشمس في العالم أجمع كانت عبادة متوارثة في أسرة أبناء الشمس التي حكمت فروعها مصر آلاف السنين، فإذا ما وضعنا هذه الحقائق إلى جانب بعضها البعض خلصنا إلى أن أبناء الشمس خرجوا من مصر وأسسوا ممالك في أجزاء مختلفة من أوروبا كما فعلوا عند نزوحهم إلى أمريكا، ومما يجعلنا نسلم بحدوث هذه الحركة أن قصص الشعوب الكلتية شأنها شأن الأساطير الإغريقية ممتلئة بأخبار أبناء الشمس الأفذاذ، وبهذا يكون ادعاء الإغريق أن حكامهم القدامى جاءوا من مصر مستندا إلى الكثير مما تعززه الأدلة – والحق أنه من المستحيل علينا أن نقدم تفسيرا مقنعا لهذه الحقائق غير ذلك.

وحيثما بحثنا موضوع الأسرات الحاكمة برر لنا مبدأ التسلسل،

فاستقصاء أصول الأسرات الحاكمة في أوروبا إنما يتغلغل بنا إلى أبعد فأبعد في أعماق الماضي، حتى ينتهي بنا الطاف إلى مصر، هذا إذا سرنا وراء الحقائق كما تعرض لنا دون التجاء إلى الحدس والتخمين، فالأسرات الحاكمة التيوتونية ترجع كلها إلى أسرات سبقتها والثابت أنهم أخذوا نظامهم العائلي من الكلت – وهؤلاء بدورهم نقلوا الكثير عن الإغريق بما في ذلك حكامهم، أما الإغريق فإنهم يدعون أن أول أسراتهم الحاكمة جاءت أول ما جاءت من مصر.

ورغم ما في هذا الدليل من ثغرات مؤسفة فإن التاريخ الأوروبي لا يستشف منه غير ذلك.

ومع هذا فإن موارد البحث والتحري لم ينضب معينها، وإذا كان البحث التاريخي ينتهي إلى نتيجة ما فإن دراسة وسائل التدليل الأخرى قد تؤدي إلى نفس النتائج، ولهذا يهمني أن أعلق على حقيقة أخرى أو حقيقتين هامتين تعززان هذه النظرية، ففي أيامنا هذه إذا ما أعطى ضابط مكلف حق حمل السيف فإن هذا يعني أنه أصبح على نوع من العلاقة بالملك ينبوع الشرف كله، وبذلك يدخل في عداد حملة السيوف أما الجنود والضباط غير المكلفين فإنهم لا يحملون السيوف.

كان هذا هو الحال خلال التاريخ الأوروبي، فقد كان السيف دائما دليلا على مقام الفرد – وكان حمله في الماضي مقصورا على طبقة النبلاء، وتبدأ قصة السيف في مصر بالحربة المثلثة وقد صنعت من الصوان أولا ثم

من النحاس، وكانت العادة في مصر أن يقتصر استعمال هذه الأسلحة على الطبقة الحاكمة ... وأول أسلحة شاهدتها أوروبا كانت حرابا برونزية ظهرت بمجيء العصر البرونزية في الوقت الذي يحتمل أن يكون أبناء الشمس قد بدئوا فيه جولاتهم في البحر المتوسط، وهذه الحراب البرونزية تشبه تمام الشبه ما صنعه المصريون منها في عصور سابقة، وبمضي الوقت استطالت النصال وأصبحت الحراب سيوفا، وقصر استعمالها على الأمراء والنبلاء، وعندما بدأ استعمال الحديد صنعت منه سيوف على غرار السيوف البرونزية، فمن الواضح إذا أن السلاح الذي كان يحمله نبلاء الكلت كان مشتقا من الحربة المصرية، ثم أخذ التيوتون عن الكلت والرومان سيوفهم ولم يكن يحمله في عهودهم الأولى إلا أصحاب المنبت النبيل من الرجال، ويتبين من هذا وجود تسلسل كامل فيما بين كريت ويومنا هذا من حيث أن حمل السيف كان امتيازا اختص به دائما من كان ذا أصل نبيل، هذا إذا استثنينا العصور الوسطى وطبقة الفرسان، وهذا التسلسل يمكننا من أن نسد الثغرات ونقرر أن النظرية الوحيدة التي تتمشى مع الحقائق هي نظرية تسلسل الأسرات الحاكمة – وهي التي تقرر أن خيطا من العلاقة يصل ما بين الحلقة الأولى والأخيرة في سلسلة الجماعات الحاكمة من حملة السيوف.

والتاريخ المعروف للأسرات الحاكمة الثيونونية يكفل حل مشكلة انتشار الأسرات الحاكمة في أوروبا، فنطالع على صفحات هذا التاريخ

أنباء حملات يقودها رجال من أصل ملكي وتتكون من أتباع من المحاربين يرحلون عن ديارهم إلى البلدان المحيطة بها سعيا وراء ما يجيء به الحظ، فإذا ما أفلحوا في تأسيس مملكة – وغالبا ما تكون تلك المملكة دون أوطانهم في مستواها الثقافي – نظموا رعيتهم الجديدة على أساس حربي ثم انقلبوا في الوقت المناسب على أوطانهم الأصلية يعيثون فيها سلبا ونهبا، والأمر على هذا النحو يسير كل اليسر ويمكن به تعليل كل الحقائق أكثر من أية نظرية أخرى.

قادنا البحث في أوروبا إلى الماضي حتى بلغنا مصر، وهي البلد الذي نستطيع أن نعلل نشأة الملكية فيه، وقبل أن نتناول هذا الموضوع يهمنا أن نعرف أن نظرية تسلسل الأسرات الحاكمة تلقي سندا كبيرا من جهات العالم ففي الطرف الآخر من الإقليم الشاسع الذي سكنته في أوقات مختلفة شعوب تتكلم اللغات الآرية يوجد جنس كبير العدد عظيم الأهمية نستطيع أن نصل من دراسته إلى ما يعزز نظرية تسلسل الأسرات الحاكمة، وأقصد بهذا الجنس شعب الراجبوت "The Rajputs" وهو البقية الباقية من الجماعات الحاكمة القديمة للهند، ويسير تاريخ هؤلاء على نفس الخطوط التي اتبعها تاريخ التوتون، فالدم الملكي بالنسبة لهم هو كل شيء وحق الملك عندهم يستند إلى الانتساب إلى مؤسس الأسرة الحاكمة القديمة للهند، ويسير تاريخ هؤلاء على نفس الخطوط قرونا عديدة، ولقد أسس شعب راجبوتانا من الراجبوت دولا كثيرة على حدود بلادهم وذلك

بهجرة أعضاء أسرة حاكمة مع قلة من أتباعهم تمكنوا من فرض أنفسهم حكاما على قبيلة من الرحل، وبهذه الطريقة أقيمت شبكة كاملة من المجتمعات تربطها روابط الانتماء إلى أسرات حاكمة كما يقرر السر ألفريد ليال Sir Alfred Lyall في كتابه "دراسات آسيوية" Asiatie Studies وعلى هذا النحو جاء حكام شعوب الثقافة الدنية، لا بطريق الانفصال عن صلب المجتمع نفسه من الداخل بل نتيجة لسلطان فرض عليهم من الخارج، ومن الجائز أن يكون الراجبوت هم أعضاء الطبقة الحاكمة الكبرى للهند في العصور السابقة، وهي التي كانت تتكون من فرعين "جنس الشمس وجنس القمر" كانا قائمين وقت كتابة "البورانا" "والمها بهاراتا"[٣]. ويحتوي هذان الكتابان وخاصة البورانا على جداول كثيرة للأنساب، ويؤكد أحد الكتاب الحديثين صحة هذه الجداول لأن الحقائق التي ورد ذكرها بها فيما يختص بأصول المدن تتفق كل الاتفاق مع المعروف عن توزيع الدول في شمال الهند في العصور القديمة مما يؤكد أن هذه الجداول يمكن الاعتماد عليها، وصحيح أنه كان هناك بعض المغتصبين للحكم وأن هؤلاء المغتصبين قد ابتكروا أنسابا لتعزيز حقهم في العرش غير أن هذه الأنساب المزيفة لم تلق تأييدا عاما، بل إن مثل هذه الأعمال إنما تعني أن فكرة الأصل الملكي كانت قائمة في أذهان المغتصبين على أنها دعامة لحق الملك وأن رغبتهم في اعتراف الشعب بهم هي التي أجبرتهم

[٣] قصتان من الشعر الهندي القديم المترجم.

على خلق تلك الأنساب وثمة مثل بالغ الأهمية لتسلسل الأسرات الحاكمة يأتينا من دراسة الجماعة الكبرى من شعوب الأتراك التتار، وهي التي دخلت نطاق التاريخ أول ما دخلت في البلدان المتاخمة للصين وقد بين كثير من الكتاب من بينهم الأستاذ باركر والسير هنري هورث كيف تفرعت المجتمعات من الجذع الأصيل فكونت شعوبا يظن لأول وهلة أنها منفصلة بعضها عن البعض، ويرى الأستاذ باركر أن كل البيوتات الحاكمة من هذه الجماعة الكبرى جاءت في النهاية من أصل واحد، ويقرر أن قبيلة هينج نو Houng – Nu أسلاف جماعة الهون الأوروبية، وهي قبيلة نعرف عن تاريخها أكثر من أية قبيلة أخرى، لم يذكر خلال فترة السنوات الألف من تاريخها المعروف لنا أنها دانت لحكم فرد من غير الورثة المباشرين، ولقد اكتشف في السنوات الأخيرة ما يثبت صحة النتائج التي وصل إليها الأستاذ باركر فقد وجد الأستاذ هرث Hirth أنه في حالة الهون ربما يمكن تتبع أسلاف القائد الأكبر اتيلا إلى القرن الثالث عشر ق. م، ويستطاع تتبعهم بصفة مؤكدة إلى القرن السادس ق. م إذ عثر في مخطوط بصفة مؤكدة إلى القرن السادس ق. م إذ عثر في مخطوط هنغاري قديم على قائمة لأسماء أجداد أتيلا تتفق مع أسماء وردت في قائمة صينية لحكام قبيلة هينج نو اتفاقا لا يدع مجالا للشك في أن القائمتين متطابقتان، ويرجع تاريخ القائمة الصينية إلى القرن السادس ق. م ويقول الأستاذ باركر أن كل الأسرات الحاكمة التاريخية في حالة الصين كانت جزءا من أسرة واحدة دامت آلاف السنين بصفة مستمرة، ومن الجائز إلى جانب ذلك أن هناك

اتصالا بين الأسرات الحاكمة الصينية وأسرات قبيلة هينج نو لأن هؤلاء التتار يدعون أن أسرتهم الحاكمة أسسها حاكم صيني رفيع المقام أي من أصل ملكي ثم عاش بينهم، شأنه في ذلك شأن أعضاء أسرات الراجبوت الذين وحدوا القبائل البربرية في الهند، وربما لا يكون لهذه القصة نصيب من الصحة لأن الصينيين أنفسهم ينكرونها، غير أن هناك حالات كثيرة لأعضاء من الأسرات المالكة الصينية نزحوا عن ديارهم وحكموا شعوبا من البرابرة ثم أخذوا منهم عاداتهم، والحق أن الصينين يدعون هذا فيما يختص بأكثر الممالك المجاورة لهم.

ومن أصدق الأمثلة لتسلسل الأسرات الحاكمة، إن لم تكن أصدقها جميعا في الوقت الحاضر – مثل البولينيزيين، فقد غادرت هذه المجموعة الكبرى من الشعوب بلاد الهند وانتشرت عبر المحيط الهادي حتى جزائر ايستر فوق مساحة شاسعة واستغرقت منهم هذه الرحلة قرونا كثيرة، ورغم التقلبات الكثيرة التي تعرضت لها هذه الأسرة الكبيرة فقد ظلت خيوط سلسلها متصلة بشكل واضح، وليس في مقدورنا أن نتتبع تاريخها بالقدر الذي نستطيعه في حالة الصين لأن ما سجله البولينيزيون لا يصل إلى أبعد من سنة ٦٠٠ بعد الميلاد، غير أن هذا الذي سجلوه من تاريخهم يتميز بالدقة في صدق الرواية بحيث نستطيع أن نعتمد عليه اعتمادا كاملا، وهذه ظاهرة مذهلة تجبر الدارس على الاقتناع بفكرة تسلسل الجماعات الحاكمة.

وترجع تقاليد بولينزيا إلى ساموا وهي النقطة التي جاء منها بالإضافة إلى فيجي وتونجا مستعمرو الجزء الشرقي من المحيط الهادي. (انظر الخريطة رقم ٧) وقبل مجيء هؤلاء إلى ساموا لا يعرف في الواقع شيء عن التاريخ الحقيقي للجماعات الحاكمة البولينيزية غير أن هناك أدلة غير مباشرة تشير إلى أن تلك الجماعات كانت تنحدر بصفة مستمرة عن جماعات حاكمة سابقة من طراز مماثل ثم أبحر رجال من ساموا عبر المحيط واستعمروا تاهيتي وما يجاورها، وهذه بدورها أصبحت مركزا جديدا للتفرق خرجت منه هجرات إلى رار وتونجا ومنها إلى زيلندا الجديدة، كما حدثت حركة أخرى من تاهيني إلى هاواي.

ومن المظاهر الهامة في الحياة البولينيزية أن القوم يعلقون أهمية كبرى على دراسة جداول الأنساب التي تحكي قصة تسلسل أجداد الجماعات الحاكمة في الجزائر، وقد استطاع أعضاء الجمعية البولينيزية وغيرهم من مختلف الدارسين أن يدنوا هذه الجداول على نطاق واسع فتجمعت بذلك مادة ضخمة تمكننا من أن نعرف الكثير عن تاريخ الأسرات الحاكمة في بولينيزيا، وفيما مضى من الزمان كان الإلمام بجداول أنساب أجيال عدة جزءا من تعليم الشبان النبلاء، بل كان جزءا هاما من هذا التعليم، وبهذه الطريقة كان النبيل الشاب من قبيلة الماوري بزيلندا الجديدة يعرف جدول نسبه إلى وقت مجيء أجداده من رار وتونجا في أحد القوارب، مثل في ذلك مثل بعض أسراتنا النبيلة التي يلذ لأفرادها أن يذكروا أن أجدادهم جاءوا في أيام وليم الفاتح إن لم يكن قبل ذلك.

وكان يعرف أسماء أجداده الذين عاشوا في رار وتونجا وفي تاهيتي أيضا، وبالمثل كان نبلاء هاواي يعرفون أجدادهم في تاهيتي، وربما في ساموا.

وهذا القصص التقليدي هو وسيلة دقيقة لضبط تقاليد الأسفار البولينيوية، فإذا كانت أسرات الماوري الحاكمة قد جاءت من أسرات رار وتونجا فمن الممكن أن نتأكد بالرجوع إلى جداول أنساب الأخيرة من أن أجداد الماوري المشهورين كان لهم وجود فعلي في رار وتونجا.

وذلك على غرار المقارنة التي عقدناها بين سجلين لأجداد أتيلا واحد منهما في أوروبا والآخر في الصين وقد دونهما أناس لا شك في أنهم لا يعرف بعضهم عن البعض شيئا، ومن المقارنة يتضح أن المشهورين من أجداد الماوري الرار وتنجيين يطابقون سجلات رار تونجا، كما أننا إذا رجعنا إلى ما هو أبعد من ذلك وجدنا بين أعضاء الأسرات المالكة في تاخيتي من تظهر أسماءهم في الأجزاء الأولى من جداول الماوري.

والوضع نفسه قائم في هاواي حيث لا توجد في جداولها ثغرة يستعصي ملؤها، وبما أن هذا التطابق التام قائم منذ أول زمن تناولته السجلات ففي مقدورنا أن نفرض أنه لو وجدت سجلات لأزمنة أسبق عثرنا على التطابق الدقيق نفسه بين المواطن الأولى في ساموا وتلك التي تبعد عنها غربا في بوناب مثلا، ثم في الهند ثم في مصر قبل ذلك، والحق أنه ليس هناك سبب منطقي يحول دون اعتناق هذا الرأي، بل إن هناك أسبابا وفيرة غير التي ذكرنا تدعو إلى قبوله.

وربما ملء القارئ من إصرارنا على ذكر جماعة من الشعوب بعد الأخرى بحيث تبدو جميعها منحدرة من أسرة مشتركة غير أنه من الأمور الجوهرية أن نستوعب هذه النقطة ونفطن إلى معناها النهائي، وليس في نيتي أن أستنفذ كل الإمكانيات بل سوف أضرب مثلين آخرين ثم أقرر بعض المبادئ العامة التي تبرز كل هذه الحقائق وتجعلها واضحة كل الوضوح.

رغم أن أسرة شعوب البانتو العظيمة في أفريقيا تنتشر في مساحة شاسعة من البلاد فهناك ما يدعونا إلى الاعتقاد أنهم جاءوا في الأصل من جماعة أو أكثر كانت تقطن المرتفعات الشرقية (خريطة ٧) وإليك ما قاله أحد الثقاة في هذا الموضوع وهو المستر د. ف. البن برجر D. F. Elbenberger مؤلف كتاب "الباسوتو The History of the Basuto يقول المؤلف:

"من المؤكد أن كل قبائل البانتو جاءت من مصدر مشترك أما الاختلافات القائمة بينهم اليوم من حيث النوع واللغة فإنما ترجع إلى أسباب مختلفة كاختلاطهم بشعوب أخرى مثل البشمن والهوتنتوت وغيرهما — كما تعود إلى الظروف والبيئة غير أن كل قبائل البانتو تتفق أول ما تتفق في أساليبها وعاداتها ونوع حكوماتها، وتستعمل نفس الأسلحة أو أسلحة متماثلة وتتشابه كذلك في الكثير من خرافاتها كعبادة الأجداد (صفحة ٢٠).

وقد هاجر البانتو من الشمال إلى الجنوب، ولا شك أن نظام

الجماعات الحاكمة في الشمال أكثر بروزا منه في الجنوب فلا أمل إذن أن نكتشف أصل هذا النظام بين شهب البانتو.

بل إن هذا النظام يضمحل كلما مر الزمن وكلما انتشرت الحركة صوب الجنوب.

وآخر مثل اضربه هو جداول أنساب نوح، ويقال في هذا الشأن أن أبناء نوح أو جدوا أجناسا مختلفة، وهذه الأجناس بدورها أقامت مدنا ونشأت عنها أجناس أخرى، وقد يرى الدارس الحديث شيئا من الغرابة في أن هذه الشعوب تنتمي إلى أصل مشترك نظرا لاختلاف اللغات والبنية بين كل هذه الشعوب، مما أدى إلى ظهور أكثر من تفسير آخر لهذه القصة المتوارثة، فيقول جنكل Gunkel في كتابه "تعليق على السفر الأول من العهد القديم "Commentary on Genesis" عند تحدثه عن هذا الجدول من الأنساب:

"ماذا نقول عن هذه القائمة من الأمم؟ إن أول صورة تنطبع في ذهن القارئ غير المتحيز لا بد أن تنطوي على غرابة فالأمر يشبه قولنا أن أبناء الشمس جرمانس هم ألمانيا وإنجلترا واسكنديناوة، وإن ألمانيا خلفت سكسونيا وسوابيا وفرنسا وبافاريا، وإن سكسونيا خلفت هانوفر وبروزويك وهامبرج (صفحة ٨٥).

ولكن ألا يشبه هذا تماما ما يحدث لو أن مؤرخا في المستقبل وقع في يده وصف مفكك للحقيقة القائلة إن أسرات أوروبا

المالكة انحدرت من أسرة مشتركة؟ إن أول موطن نعرفه للشعوب التيوتونية هو اسكنديناوه، ولهذا أستطيع أن نقول أن اسكندليناوة خلفت جتلند وألمانيا وسكسونيا وهكذا وإن سكسونيا خلفت سكس واسكس ووسكس.

وقد نقول أيضا أن القوط انحدروا من قوط بن سكان Scan. وإن ولدي قوط هما قوط الشرقي وقوط الغربي وإن أبناء قوط الغربي هم فرنسا وإسبانيا وأفريقيا وهكذا.

وعلى هذا النحو نستطيع أن نحدد انتشار أسرات اسكنديناوة الحاكمة بذكر الدول المختلفة التي أسستها الجماعات المرتحلة والأكثر من هذا أن الدول سوف يطلق عليها اسم الجماعات الحاكمة، وهذا يعني أن جدول أبناء نوح له شبيه مطابق بين شعوب أوروبا، وهذا التماثل كفيل بالقضاء على الصعوبة الأولى التي تقوم في وجه المعقبين على القصة، ألا وهي صعوبة الأجناس، لأن الأسرات الحاكمة التيوتونية حكمت شعوبا مختلفة كل الاختلاف من التيوتون والبحر المتوسط والسلاف والمجر وكانت كلها تتكلم لغات مختلفة – وعلى ذلك فليست هناك صعوبة في وجه قبول القصة على أنها تمثل صورة غامضة لأحداث تاريخية، هذا إذا أخذنا الحركة على أنها حركة حكومات أرستقراطية وليست حركة شعوب.

ويبدو أن نصوص العهد القديم تدل على أننا نتناول رجلا من أصل ملكي – ومثل ذلك ما قاله يهوي لإبراهيم "سوف أجعل منك أمة عظيمة

.. سوف أقيم أمما منك وأخرج من صلبك ملوكا (العهد القديم ١٢ – ٢، ١٧ – ٦). وقد ورد عن زوجه سارة "سوف تكون أما لأمم – وسوف يكون من ذريتها ملوك لشعب" (العهد القديم ١٧ – ٦). أما إسماعيل ابن هاجر فهو والد أسرات حاكمة – تقول التوراة "هؤلاء هم أبناء إسماعيل وهذي أسماؤهم أثنا عشر أميرا بمدائنهم وقلاعهم – كل حسب أمته" (العهد القديم ٢٥ – ١٦).

وكان عيسو جدا لشعب أدمة، وواضح أنه كان مؤسس جماعتهم الحاكمة لا مؤسس الشعب نفسه لأن كل ذريته قد ذكرت أسماؤهم على أنهم كانوا ملوكا (العهد القديم ٣٦).

فإذا قيل إن إبرام[٤] كان والد أمم كثيرة فيبدو أن ذلك يعني في الواقع أن ذريته حكمت شعوبا مختلفة – وعندما وعد بأن خلفه سوف يكون لهم أرض تمتد من النهر المصري إلى الفرات بما فيها من مختلف الشعوب فواضح أن ذلك يعني أن خلفه سوف يحكمون هذه الشعوب ويملكونها (العهد القديم ١٥ – ١٨ – ٢١). كما تدل الطريقة التي كان يستقبل بها الملوك إبرام على أنه كان عضو أسرة مالكة.

والآن قد حان الوقت لكي نتطرق من هذه الحالات المنفصلة إلى تكوين نظرية عامة، فإذا كان ما ورد في هذا الفصل صحيحا، فمن الواضح أن المشكلة فيما يتعلق بالتيوتون والكلت وكل الأسرات الحاكمة

---

[٤] "إبرام" هو الاسم القدير لإبراهيم المترجم

من الجماعة الآرية يمكن أن تنحصر في مسألة واحدة هي أن أسرة واحدة في الأصل تشعبت إلى الخارج على النحو الذي ذكرناه فأنتجت ذرية هائلة من الأسرات الحاكمة، وهذه بدورها أوجدت شبكة من الدول لا تربط بعضها ببعض روابط الجنس بل صلات الحكام.

وعندما نتناول أمثلة تاريخية كما في حالة الشعوب الناطقة بالآرية أو شعوب البانتو أو جماعة التتار الأتراك أو البولينيزيين فنحن إنما نعرض لعشوب انبعثت من مراكز معينة هي الأصل وفي تلك المراكز توجد آثار حضارة سابقة يمكن أن نقول بوجه عام أنها من نوع واحد في أنحاء الأرض، وهي الحضارة البائدة التي عرضنا لها في الفصل السابق والتي تتميز ببناء الآثار الحجرية واستعمال الأدوات الحجرية المصقولة والري وغير ذلك، أما الأسرة الحاكمة في تلك الحضارة البائدة فقد رأينا أنها كانت تتكون من قسمين، أحدهما يشمل أبناء الشمس وهم آلهة متجسدة ويشمل الثاني بنبلاء يملكون الأرض ويتصلون بالعالم السفلي، وفي أيديهم الإدارة المدنية للبلاد وقيادة الحرب، وكانت هذه الجماعة الحاكمة القديمة تتميز بظاهرة خاصة فيما يتعلق بطريقة خلافة الحكم، فوارث العرش لم يكن الولد الأكبر للملك بل شقيق الملك أولا، ثم ابن شقيقته الكبرى بعد موت شقيقه – أي أن خلافة العرش كانت من ناحية الأم.

فإذا كانت الجماعات الحاكمة التي عرضنا لها قد انبعثت من هذا النوع من المجتمع السابق فلا بد من أن نجد بينها من الآثار ما يدل على

انتقالها من نظام تبعية الأم إلى نظام تبعية الأب فيما يختص بوراثة العرش، وليس الدليل على ذلك ببعيد، إذ يقرر الأستاذ شادويك في كتابه "عصر البطولة" (ص ٣٤٦) أن هذا الانتقال قد حدث فعلا.

يقول الأستاذ لا شك أن نظام تبعية الأب في علاقات القرابة كان هو السائد بوجه عام في كل مكان إبان "عصر البطولة" غير أن آثارا للنظام النقيض لا تزال قائمة وهي تكفي للدلالة على أن التغير لم يحدث في زمن أسبق بكثير .. ثم يقول أيضا عند التحدث عن بلاد الغال "إن أقدم التقاليد الغالية المدونة تبين أن حق الملك بين البكتيين كان ينتقل إلى أبناء الأخت (ص ٤٢٨) وهذه ظاهرة عامة، ففي كل بلد من بلدان أوروبا تقريبا يقال إن حق الأم كان هو النظام السائد في العصور السابقة.

وإنا لنجد في كل الحالات الأرستقراطيات المحاربة من الرحل أن التغير من نظام قائم على حق الأم إلى نظام قائم عل حق الأب قد حدث عقب الهجرات بوقت قصير – ويؤيد هذا عند تناوله حالة القبائل العربية تلتي خرجت من بلاد اليمن.

وهو يقول إن الانتساب للأم كان قائما عند بدء الحركة، غير أن هذه الشعوب اتبعت نظام الانتساب إلى الأب في غضون جولاتهم – ثم يستطرد الأستاذ فيقول "إن الغلة النهائية لنظام الانتساب إلى الذكور قد تمت عقب الهجرات اليمنية بأجيال قليلة جدا – وربما حدث هذا بصورة سريعة" (ص ٢٧٣) وبالمثل يوجد دليل في العهد القديم على حدوث

انتقال من حق الأم إلى حق الأب، لأن بعض جداول الأنساب كانت تتبع الأم وبعضها يتبع الأب.

وقد أخبرني صديقي الدكتور ألفونس منجانا Dr. Alphonse Mingana بمكتبة جون رايلاند في مانشستر أن أنساب الأتراك والتتار ترجع إلى النساء مما يدل على أن النظام حق الأم كان قائما بينهم فيما مضى، وهذه الحالة شبيهة بحالة اللومبارديين فهم يرجعون نسبهم إلى ملكة في اسكنديناوة.

ومن أحسن الأمثلة على الانتقال من نظام تبعية الأم إلى نظام تبعية الأب هو مثل الوبينيويين حيث أننا نملك أدلة واضحة على أن وراثة الحكم من ناحية الأم كانت قائمة بينهم فيما مضى ثم حدث تغير إلى النظام الآخر في عصور تالية، وكذلك تسير قبائل البانتو وفق نظام تبعية الأم في الأماكن القريبة من أوطانهم الأصلية – وفي مقدورنا أن نبين أيضا أن انتقالا مماثلا حدث في أمريكا الشمالية من تبعية الأم إلى تبعية الأب.

وعلى هذا يكون نظام حق الأم قد سبق نظام حق الأب بين الجماعات الحاكمة في كل أنحاء العالم، ولسبب ما أو لآخر غيرت الأسرات المالكة نظام الوراثة وخلافة الحكم حتى يتاح لأبناء الملوك تولي الملك بعد آبائهم، ولقد كان حق الأم هو الأسلوب الغالب في أقدم الحضارات حسبما تقودنا الأدلة – ولهذا فإن الأسرات الحاكمة من المحاربين وهي التي خرجت من مراكز نشاطها الأصلية ترجع نسبها إلى الحضارة الأولى القائمة

على تبعية الأم واليت انتشرت فيما مضى في كافة أنحاء العالم، وبما أن كلا من هذه الجماعات العظيمة من الأسرات قد نشأ من أسرات منفردة كما قدمنا، ففي هذا الوضع تكون المشكلة قد تضاءلت كثيرا، وأصبح الأمر لا يعدو أن يكون تفرغا هائلا من أصول صغيرة، وهذا ما حدث فعلا في حالة الجماعات الحاكمة في العالم، وبدلا من أن يؤدي بنا البحث إلى أزمنة بدائية ماضية تتميز بثقافة دنية فإنه يقودنا إلى الحضارة العليا العتيقة، وعلى هذا تكون الصورة الماثلة أمامنا هي صورة جماعة حاكمة أصيلة متميزة بنظام حق الأم ومنتشرة في كل أنحاء الدنيا، وبمضي الزمن ينشأ عن هذه الجماعات جماعات حاكمة أخرى دونها ثقافة تحترف الرعي وتسير أنظمتها وفق تبعية الأب، ومن هذه الجماعات التالية نشأت أغلب الأسرات الحاكمة الحالية في العالم، وفي بعض الأحيان كما في حالة أسرة الميكادو اليابانية لا تزال الجماعة الحاكمة الأولى قائمة، ومن المؤكد أن حق الأم كان القاعدة بينهم فيما مضى.

وفي مقدورنا أن نقيم أكثر من جسر يصل ما بين الجماعتين من الأسرات الحاكمة، جماعة حق الأم وجماعة حق الأب.

ومن أكثر هذه الصلات تشويقا استعمال الأعلام، ففي أقدم عصور مصر كانت الأقسام الإقليمية تميز نفسها بعلامات معينة، وعندما انتشرت هذه الحضارة خارج البلاد المصرية، انتشر معها استخدام الأعلام، وهكذا أصبح استعمال مثل هذه الشعارات من عادات الجماعات الحاكمة في كل

المنطقة الممتدة من الهند إلى أمريكا، وأنا لنقرأ في كتاب "ماهابهاراتا" الهندي عن اجتماعات كبيرة للحكام – تحمل كل جماعة فيها علما نقش عليه رسم خنزير أو أسد أو نسر أو غير ذلك – وتوجد هذه العادة نفسها في ولايات البوجي بمجموعة سلبيس الجنوبية وبين قبائل البانتو الأفريقية وفي شمال أمريكا، وكانت قائمة فيما مضى بين الإسرائيليين والعرب، كما اتخذها الراجبوت ونبلاء اليابان وكثير من الجماعات الحاكمة الأخرى، وكانت عادة اتخاذ شعارات وراثية على أشدها بين حكماء التيوتون القدامى، ولكن يظهر أنها اضمحلت في أوروبا في العصور التالية، وفي الممالك الأسكنديناوية القديمة كان الملك، وهو كاهن عظيم، يدعي أنه سليل الآلهة فريا Freya المتصلة بالخنزير، ولذا كان يلبس على ذراعه درعا نقشت عليه صورة خنزير، ويتحدث تاسيتس عن شعب الاستياي Aestii قائلا: "أنهم يعبدون والدة الآلهة ويلبسون ملابس رسمت عليها أشكال للخنزير البري كعلامة مميزة لعبادتهم، حتى يضمنوا دفاعا عن أنفسهم وحماية لها في كل شيء، وبذلك يصبح العابد آمنا على نفسه حتى بين أعدائه".

واتخاذ التيوتون للخنزير شعارا هو من الأمور الشائعة، لأن شعوب الكلت كانت تستعمل الشعار نفسه، وبما أن استخدام شعار الخنزير بين قدامى ملوك التيوتون كان يعني الأنساب إلى الآلهة الوالدة فيبدو أن حكام التيوتون وحكام الكلت كانوا ينتمون إلى أسرة واحدة، وقد سبق لنا ذكر ذلك.

وهناك سبب آخر يدعو إلى التسليم بتسلسل الجماعات الحاكمة منذ أن قام نظام الجماعة الحاكمة إلى العصور الحديثة في كل أنحاء الأرض، ذلك أن عبادة الآلهة في كل أجزاء الدنيا هي في الأصل عبادة للأجداد اعتنقها أعضاء الجماعات الحاكمة، إذ ليس هناك أي سبب يدعو إلى الاعتقاد أن الناس تخيلوا آلهة أولا ثم عبدوها بعد ذلك، ففكرة الإله نمت مع الحضارة نفسها، ولم تكن في البدء إلا فكرة تكونت من ماديات ألفها الإنسان – ولقد كان هناك ارتباطا وثيق بين أقدم الجماعات الحاكمة وفكرة الإله، وبمضي الزمن أصبح الناس في مصر يعتبرون ملوكهم آلهة متجسدة، وعلى هذا أصبح أبناء الشمس الذين جابوا أنحاء الدنيا وأقاموا دولة الحضارة البائدة أبناء لإله الشمس ونسلا للآلهة لا ذرية من ذراري البشر.

وما دام الحكام في دول الحضارات الأولى في كل أنحاء الأرض كانوا "آلهة" فقد استتبع ذلك أن خلفاءهم كانوا يدعون أنهم آلهة أو من نسل الآلهة، وقد حدث هذا فعلا.

ففي حالة ملوك إنجلترا من الإنجليز السكسونيين كان القول أنهم سلالة أودن، الذي كان ملكا وإله حرب في نفس الوقت، وهو في هذا يشبه كل الشبه مؤسس البيوتات الحاكمة في أجزاء أخرى من العالم، ويمكن مقارنته بالإله أورو أو رونجو إله الحرب العظيم في شرق المحيط الهادي وهو جد البيوتات الحاكمة في تاهيتي وهو نفسه من نسل الآلهة، وعلى ذلك

فهو لا يفترق عن ملوك الحضارة البائدة، والقصة نفسها تنطبق على إله آخر أو ملك آخر في المنطقة عينها وهو المسمى هوتز يلوبو كتلي Huitzilopochtli. وفي كل أرجاء الهند تدعى الجماعات الحاكمة نفس الادعاء ويؤكدون دائما أن جدهم الأول كان إلها، والحق أنه كان كذلك، لأنه كان عضوا من أسرة أبناء الشمس، ولما كان أبوه إلها فقد أصبح هو من طبيعة إلهية أكثر من عامة الناس.

وعلى هذا يكون ادعاء الأسرات الحاكمة في كل أنحاء الأرض أنهم من سلالة الآلهة دليلا آخر على وجود وحدة جوهرية بينهم، والمعروف أن عامة الشعب قلما يأبهون بشعائر عبادة الآلهة بل يتركون كل ذلك لكهنة يتوارثون مناصبهم وينتمي أشهرهم للحكام، لأن النظام الديني هو من شأن الطبقة الحاكمة – فإذا ما انبعثت حركة ثقافية أخذت الجماعة الحاكمة معها شعائرها الدينية، أما العامة المحكومة فإنها تعتنق هذه العبادة دون أن تهتم كثيرا بالأمر – فلابد إذ أن أية جماعة حاكمة تدين بعبادات آلهة قد اشتقت من جماعة حاكمة أخرى، إذ ليس هناك سبب يدعو إلى التسليم بأن الجماعات الحاكمة في كل أجزاء الأرض قد اقتلعت لنفسها أنظمة دينية كل منها في معزل عن الأخرى ثم ادعت أنها من نسل الآلهة.

أما الجد الإله فهو شخص نستطيع أن نأتلف مع فكرته بدراسة الحضارة البائدة – فكلما جد بنا البحث في عصور التاريخ الماضية فإننا لا نصل إلى شيء تافه كنشأة الملكية بل إلى تألية الملوك – فأول ملوك

الحضارة البائدة كانوا آلهة متجسدة .. كانوا رجالا في ذروة القوة والمكانة لم ير العالم لهم مثيلا منذ ذلك الوقت – فإذا ما ادعى ملوك كأولئك الذين حكموا الإنجليز والسكسونيين أنهم من نسل ملك كان إلها، فإنهم إنما يدعون أنهم نسل عضو من الأسرات الحاكمة في مجتمعات الحضارة البائدة – أي أنهم يدعون القرابة في نهاية الأمر لملوك مصر، وقد رأينا أن الحق في جانبهم من حيث ادعائهم هذا، كما هو في جانب أي ادعاء آخر يذهب إلى الانتساب إلى ملك محارب من نسل الآلهة، فقد ردد ذلك العالم كله لأن الملوك المحاربين جاءوا بهذه الطريقة في كل مكان من الدنيا. وليس هذا الأمر بغريب، بل الغريب ألا يقوم مثل هذا الادعاء.

وهكذا تؤدي كافة طرق البحث إلى هدف واحد وتصبح نظرية التسلسل هي النظرية الوحيدة التي يمكن استخلاصها من الحقائق، إذ ليس في مقدورنا أن نوجد اتساقا في هذه الفوضى الظاهرة من الحقائق إلا إذا انتهينا إلى القول إن هذه الأحداث التي شاهدناها في حالات كثيرة تنطبق على العالم أجمع، والحق أن الحقائق لا تحملنا على اعتقاد غير هذا.

الفصل التاسع

النظام الطبقي

إن المجتمعات التي درسناها في الفصل السابق يمكن أن يطلق عليها اسم الدول الطبقية، وإنجلترا نمط يمثل هذه الدول، فهي تشتمل نظريا على طبقتين متميزتين ويزداد تميزهما كلما رجعنا إلى الماضي، ذلك أن المجتمع ينقسم إلى طبقتين، أولئك الذين لهم حق استعمال الشعارات أي النبلاء بالوراثة ثم طبقة العامة، ومع أنه حدث في حالات كثيرة أن ارتفعت بعض الأسرات النبيلة من صفوف العامة، غير أن نظام الجماعة قد ظل قائما منذ أقدم أزمنة عرفناها، ولقد دل البحث على أن نظام الدولة الطبقية هذا لم ينشأ تلقائيا في جهات مختلفة من العالم بل كان نتيجة عملية ذات صبغة واحدة وهي انتشار الجماعات الحاكمة، وعلينا الآن أن نوجه اهتمامنا إلى دراسة عامة لهذه العملية.

إن جامعي الطعام، وهم أكثر المجتمعات بدائية لا يعرفون النظام الطبقي، بل يتكونون من جماعات يرتبط أعضاؤها بروابط القرابة، وهم يعيشون إلى جوار جماعات أخرى من الأسر، ومع أن أماكن الصيد الخاصة بكل مجموعة تتاخم أماكن صيد أخرى إلا أنهم لا يختلط بعضهم مع بعض هذا هو الشكل الأساسي للمجتمع البشري، والمشكلة التي تواجهنا الآن هي أن نفهم كيف جاءت السيطرة، وكيف أن جماعة من الأسرات بلغت مركز السيادة على جماعات الأسر الأخرى، وليس في مقدورنا من دراسة

الحقائق الواردة في الفصل السابق أن نفسر هذه الظاهرة على اعتبار أنها نشأت في العالم كله من انفصال بعض الأسرات عن كتلة المجتمع بسبب تفوقها، فنحن لا نصل في الماضي إلى أزمنة بدأ فيها الحكام يبرزون من صفوف المجتمع ويدعمون سلطانهم شيئا فشيئا — بل على النقيض من ذلك نجد أقدم الأسرات الحاكمة متميزة كل التمييز عن بقية المجتمع، وكانوا في الكثير من الحالات آلهة متجسدة.

وبما أن جماع العلائم تشير إلى أن مصر كانت الموطن الأول للحضارة، فعلينا أن نتجه إلى هذا البلد أولا للبحث عما يدل على نشأة الملكية، فما هي الأحوال التي كانت قائمة في العصور القديمة في مصر مما دعا جمهرة الشعب إلى أن يقبلوا أن تحكمهم أسرة معينة؟ وما السبب في حدوث مثل هذه الثورة الاجتماعية؟

كان اليوت سمث أول من مهد الطريق لحل هذه المشكلة، فقد أوضح أن أول الملوك كانوا على علاقة وثيقة بالمظاهر الاحتفالية الخاصة بمورد الطعام. ويصدق هذا في كل أنحاء الدنيا من مصر إلى سومر والهند والمكسيك وبيرو وغيرها .. وكان الري عصب حياة المصريين، واستلزم هذا ضرورة التحكم في مورد كبير للمياه عن طريق جهاز معقد من القنوات، ومن رأى اليوت سمث أن نشأة الملكية ارتبطت بالمحافظة على نظام الري هذا.

وكانت عمليات الري في مصر القديمة تتوقف على فيضان النيل، وكان من الضروري أن تعد قنوات الري وخزانات المياه قبل وقت ارتفاع

النهر، ولذا كان من أهم الأمور بالنسبة للمصريين أن تكون لديهم طريقة لحساب الزمن، وقد استطاع المصريون في زمن مبكر أن ينشئوا تقويما لهذا الغرض وبذلك أسدوا للبشرية خدمة جليلة، ومن المحتمل أن يكون قيان الملكية مرتبطا بإنشاء هذا التقويم وهو من الأعمال التي تستلزم قدوة عظيمة.

ولقد جرى في مصر من الأحداث ما يوحي بأن هذا هو تفسير الحقائق، فأبناء الشمس الذين تولوا السلطة في بدء الأسرة الخامسة كانوا من هليوبوليس وهو المكان الذي ابتكر فيه التقويم الشمسي أو تقويم "نجم الكلب"[1] Sothic Calender وبمرور الوقت حل هذا التقويم محل التقويم القمري الذي كان أكثر صعوبة، وكذلك اخترع حكام هليوبوليس أول مقياس للنيل وبذلك قدموا لمصر خدمات هامة، ويبدو أن وصول أسرة من موطن اختراع التقويم الشمسي إلى العرش كان أكثر من مجرد توافق للحوادث.

بل إن ذلك يوحي بأن الجماعة التي حكمت مصر من قبل قد تم لها ذلك باختراع التقويم القمري، ونحن نعرف أن الأسرة التي حكمت مصر قبل أن يحكمها أبناء الشمس في الأسرة الخامسة كانت على اتصال بالقمر – ونعرف فوق ذلك أنها كانت على ارتباط وثيق بالري، وأن الكهنة كانوا يشرفون على الأرصاد الخاصة بالتقويم.

---

[1] **Sothis** أو **Serius** معناها نجم الكلب، المترجم

فلنتخيل أذن قدر الخدمة التي أداها للمصريين ذلك الرجل الذي اكتشف أن رصد حركات القمر تمكنهم من أن يكون لهم نذير بمجيء فيضان النيل الذي تتوقف بحدوثه كل العمليات، أي أنه كان من المحتم عليهم أن يعدوا القنوات والأحواض وغيرها استعداد للفيضان العظيم، فإذا ما أتيح لهم حساب السنة أصبح في مقدورهم أن يتحكموا في مصيرهم تحكما كبيرا فيتأهبوا لأعمال الموسم، فمن المعقول والحالة هذه أن نفرض أن الرجل الذي توصل إلى هذا الكشف العظيم لقى سندا من المجتمع نظير الخدمات التي أداها له بعمل هذه الأرصاد الفلكية الخاصة بالتقويم، وأن تأسيس أول جماعة حاكمة كان نتيجة مباشرة لإنشاء التقويم وهو لا شك عمل من أعظم الأعمال الفكرية التي قام بها الإنسان.

ولقد كانت الطبقات الحاكمة في الحضارات القديمة بالعالم أجمع على صلة مباشرة بالتقويم، ففي بابل كان فلكي الملك يبعث إليه تقريرا يوميا عن موقع الأجرام السماوية، وكذلك كان الصينيون ينسبون التقويم إلى فوهي Fu – hi أول إمبراطور لهم، وهو الذي كان يقوم أيضا بتقديم الأضاحي إلى الآلهة، وقد وجدت هذه الصلة الوثيقة نفسها بين الأسرات الحاكمة القديمة والتقويم في بلاد المكسيك وغيرها.

ومهما كان الرأي فيما يختص بهذه الفكرة عن نشأة الأسرات الحاكمة فإن المقطوع بصحته أن أقدم الحكام كانوا يهتمون كل الاهتمام بحياة المجتمع، وأنهم كانوا يضطلعون بالمهام التي كانت رعاياهم ترى أنها

ذات أهمية مباشرة للمجتمع كله، فكان من اختصاصهم كل ما يتعلق بالمظاهر الاحتفالية التي تضمن نمو المحاصيل وخصوبة الحيوانات وغيرها – وكان همهم الأول مركزا بادئ ذي بدء حول هذه الأمور.

وبمرور الزمن بدأت الجماعة الحاكمة تكون من نفسها طبقة معينة متميزة عن بقية المجتمع، وبذلك نشأ حق مكتسب بدأ يقوى مركزه ويجمع السلطة في يده شأنه في ذلك شأن أي حق مكتسب من هذا النوع، وسرعان ما برز النظام الطبقي، وما وافى عهد الأسرة الخامسة في مصر حتى كان الحكام قد ميزوا أنفسهم عن عامة الشعب إلى الحد الذي مكنهم من أن يدعوا أنهم من نسل الآلهة، فأصبحوا أبناء الشمس يحنطون بعد الموت بينما كان رعاياهم يدفنون بالطريقة العادية فيما عدا بعض النبلاء المقربين – وأصبح المعروف أن الملوك يذهبون بعد موتهم إلى السماء في حين أن أفراد الشعب يذهبون إلى العالم السفلي، وبمثل هذه الأشياء وغيرها ميز الحكام أنفسهم عن سائر المجتمع.

ومن الجلي أنه عندما حدثت حركة الخروج من مصر هاجر أعضاء من الطبقتين، لأننا بدراسة مجتمعات الحضارة البائدة في جهات مختلفة نجد بها صورا من النظام المصري الذي كان سائدا في عصر بناة الأهرام تتفاوت في صدقها كثرة أو قلة.

فنرى أبناء الشمس حكاما، ثم نجد طبقة من النبلاء، وتحت هؤلاء جميعا نرى عامة الشعب وهم في الحضيض من الناحية الثقافية بالنسبة إلى

من فوقهم، وإنك لترى هذا الوضع قائما في سلسلة طويلة من المواطن تمتد من الهند إلى أمريكا .. ولما كان الفارق عظيما جدا بين طبقتي هذه المجتمعات أي بين الحكام والعامة فإنه من غير المعقول أن تنشأ دولة طبقية كما في بوناب أو في ساموا القديمة نتيجة لعالم آخر غير أن تكون قد نقلت إليها نقلا، ومثل ذلك أن أسرة أبناء الشمس في كل الدنيا لا بد أنهم كانوا على قرابة ببعضهم البعض، لأن من غير المعقول، بالنسبة لي على الأقل، أن يستطيع عامة الشعب الذهاب من مكان مثل بوناب إلى ساموا وهناك ينصبون أنفسهم أبناء الشمس، لأن مثل هذا العمل يتطلب منهم الكثير، فهم في هذا الوضع من العالم السفلي كما كان يفعل أجدادهم، أي إلى مكان لا تصلهم به صلة، وعليهم أيضا أن يحاولوا ممارسة التحنيط وينشئوا الكثير من الشعائر الدينية المتعلقة بعبادة الشمس مما كانوا يجهلونه كل الجهل – وليس في مقدورنا أن نصدق أن عامة الشعب فعلوا كل هذه الأشياء – والواقع أن كل ما نعرفه عن هذه الظاهرة يدل على أن النظام الطبقي قد نقله مجتمع إلى مجتمع آخر في كل أنحاء الدنيا، وأنه لم ينشأ تلقائيا في أية حالة من الحالات إلا في مصر نفسها، لأنها مركز هذا النظام.

وبما أن المجتمعات المنتجة للطعام في العالم أجمع قد قامت فعلا ودون استثناء على النظام الطبقي فإننا إذا نظرنا إلى "دولة ما" كأنها حقيقة واقعة فإننا بذلك نخدع أنفسنا، لأن أية دولة طبقية معينة ما هي إلا ذلك التعبير

المؤقت للنظام الطبقي الكامن وراءها، وأقصد بذلك أن التضاريس الواقعية لبلد ما وكيان الدولة في هذا البلد هما نتيجة قوى تعمل داخل الجماعة الحاكمة، وليس من طبيعة البلد نفسه أو من طبيعة سكانه، وقد وضحنا في فصل سابق أن مواطن شعب الحضارة البائدة أقيمت في الأماكن التي كانوا يجدون فيها ما كانوا يبحثون عنه كالذهب واللؤلؤ وأصداف اللؤلؤ وغيرها، ولقد سكن المغتربون تلك الجهات وانضموا إلى الوطنيين من جامعي الطعام ليكونوا دولة طبقية تحكمها أسرة مكونة من الأعضاء النبلاء في جماعة الرحل، وكان العنصران الأساسيان في الموقف هما النظام الطبقي والمواد الرغوب فيها – وهذان العنصران هما اللذان أنتجا دول المكسيك وكوستاريكا وبيرو وغيرها، وما كانت تلك الدول في حد ذاتها إلا تعبيرا عن شيء آخر، ولم تشكل في واقع الأمر كيانا حقيقيا.

ومن المؤكد أنه في حالة أقدم الدول الطبقية كمصر وسومر لم يكن النظام الطبقي سوى ظاهرة ثانوية وأنه بانتشار هذا النظام في العالم نقل كيان الدولة برمته بحيث انتقل أعضاء من كل الطبقات – ولذا فمن الممكن أن نسمى تلك الدول دولا قومية تؤدي فيها الجماعة الحاكمة تلك المهام الضرورية للصالح العام، وهذا يصدق على دول الحضارة البائدة، ولكن عندما خرج الجائلون من هذه المجتمعات وأسسوا دولا طبقية، تمخضت الأحوال عن وضع مختلف كل الاختلاف، فقد انتقلت هذه الشراذم المتجولة من مكان إلى مكان تفرض نفسها طبقة حاكمة حيثما

أمكنها ذلك، ولم يؤدوا شيئا من المهام القومية بل كانوا مجرد حكام من الغزاة، فإذا ما تناولنا بالبحث دولا هذا شأنها فمن الواضح أنه من المستحيل علينا أن نحالو تكوين مفهوم سليم لها، وها هي ذي دراسة التاريخ الأوربي خلال القرون تكشف عن تدفق مستمر للدول وتغير دائم للحدود وانتقال كتل من الشعوب من حكم إلى حكم آخر، وكانت نتيجة هذا أن شعوبا من أجناس مختلفة دانت في وقت ما لحكم ملك واحد بينما خضعت شعوب من نفس الأجناس لسلطان ملوك آخرين، وفي كل دولة من هذه الدول توجد طبقتان متميزتان تختلف كل منهما عن الأخرى اختلافا كليا من حيث التقاليد الاجتماعية وعلى ذلك يختلف موقف كل عن موقف الأخرى تجاه الكثير من المشاكل كتلك التي تتناول العلاقات بين الدول.

فإذا نحن تحدثنا عن دول أسست بهذه الطريقة فلا بد من أن نلتزم الحذر الشديد في تحديد ما نقصد، ومن الجلي أننا لا نستطيع أن نصل إلى تكوين فكرة متسقة إلا إذا تجاهلنا وجود طبقتين متميزتين في هذه الدول وحصرنا الانتباه في الجماعة الحاكمة، غير أننا إذا فعلنا هذا فلا بد من أن نتجاهل وجود كتلة المجتمع، ومن المؤكد أنه في ظروف معينة يستطيع مجتمع ذو نظام طبقي أن يظهر بمظهر الوحدة، إلا أن هذه الأمثلة المتناثرة لا يمكن أن تخفي حقيقة قائمة وهي أننا نبتعد عن جادة الصواب إذا تكلمنا عن دولة من هذا النوع على أنها شخصية قائمة بذاتها، والدول الطبقية في

العالم يعود الفضل فيما لها من شخصية إلى ظروف طارئة معينة لا إلى اختلاف الأجناس فيما بينها أو إلى عوامل مناخية أو جغرافية – وليست تلك الدول في نهاية الأمر إلا مجرد نتائج لأعمال أسرات مالكة ومنازعات بين الجماعات الحاكمة على حكم الشعوب من الوطنيين، أي أن النظام الطبقي هو الحقيقة الكامنة وراء تكوين الدول، هذه هي حقيقة الأمر في العالم كله، وإذا نحن درسنا خريطة أوروبا في أي زمن من الأزمنة، وليكن ذلك في القرن الرابع عشر، ثم عاودنا دراستها في القرن الخامس عشر، أنا إذا فعلنا ذلك وجدنا الخريطة قد تغيرت – فبينما نشاهد دولا قد وسعت حدودها إذا بدول أخرى قد زالت من الوجود – غير أن النظام الطبقي نراه لا يزال قائدا – وكان قبل ذلك قائما منذ أن عرفناه شيئا عن هذه المجتمعات – وطبيعي أن مثل هذه الدول جاء عليها وقت أصبحت فيه دولا قومية نتيجة لوجود كتلة من التقاليد المشتركة – غير أن هذا لا يخفى طبيعة العامل الرئيسي الفعال.

وخلاصة القول أن أية دولة طبقية معينة أن هي إلا التعبير المؤقت، قلة أو كثرة، عن النظام الطبقي، هي نتيجة سيطرة جماعة حاكمة على سكان من الوطنيين، سيطرة تختلف باختلاف الظروف، فمن الضروري إذا عند التحدث على أية دولة أن نتوخى شدة الحذر في أن يكون مفهوم ذلك صحيحا وليس نتيجة لخلط الجزء بالكل، ومما يؤسف له أن هناك اتجاها شائعا نحو تكوين مفهوم للدولة الطبقية على أنها تشكل نوعا من

الشخصية، إن هذا الاتجاه لينطوي على خطر بالغ لأنه يطمس الحقيقة الأصيلة الكامنة وراء كل الدول الطبقية، ألا وهي نظام الطبقات.

الفصل العاشر

نشأة الحرب وتطورها

يهمني أن أبين في هذا الفصل أن القتال، بمعنى سلوك العنف المنظم بين المجتمعات، ليس من الظاهرات الأساسية للجماعة البشرية، وأني أقرر أن القتال قد ظهر بظهور الدولة الطبقية نتيجة لتطور أنظمة اجتماعية معينة وأخصها النظام الطبقي – وليس في مقدوري إلا رسم صورة لبعض الظاهرات التاريخية العامة لهذا الحدث، أما دراسته مستوعبة فمجالها فرصة مقبلة ..

ماذا نعرف عن سلوك العنف في الإنسان؟ من الفروض الشائعة أكثر مما يجب أن الناس جلبوا على سلوك العنف، بمعنى أنه لا يسعهم سوى إظهار هذا العنف إلى حد كبير أو قليل في اتصالاتهم اليومية إلا إذا ردعهم عن ذلك رادع، ولذا يرى الكثيرون أنه من السخف أن نتصور مجتمعا ندر فيه العنف في صورة من صوره، ويميلون إلى الأخذ بفكرة أن الحضارة روضت الإنسان الهمجي وأنها فرضت على ميول العنف فيه قيودا، دون أن يتحروا مبلغ الصدق في هذا الرأي.

أننا بهذا الظن نرتكب خطأ من أشد الأخطاء جسامة، وإذا لم نزل هذا الخطأ من مجريات الفكر، ضعف الأمل في حل أخطر مشكلة تواجهنا رجالا ونساء أصحاب حضارة، وهي القضاء على العنف في كل العلاقات الإنسانية، لا في العلاقات بين الدلو فقط، والحق أن العلاقات بين الدول

الأوروبية قد اتسمت بالعنف خلال قرون كثيرة، ومن هذا اعتقد الناس أن الحرب شيء لا مفر منه إلا إذا ابتكر من الوسائل ما يحد من نزاعات الناس العدائية.

والآن فلنفرض أن الحضارة بدلا من أن تروض الإنسان الهمجي قد جعلت الإنسان همجيا، وصنعت منه مخلوقا تعلم أساليب من العنف قلما بدرت من أجداده، فلنفرض أن الحضارة في تطورها من أكثر مراحلها بدائية قد علمت الإنسان القسوة كما علمته سائر الأشياء، إن تولا كهذا كفيل بأن يقلب الفكرة رأسا على عقب ويعكس المفاهيم القائمة عن معنى ما نسميه "حضارة" فإذا أريد أن يلقي هذا القول أذنا صاغية وجب أن يسند إلى الكثير من الحقائق – ومع هذا فإني أسلم بصحته وبأن كل ما نعرف من التاريخ يعززه.

ومن العسير أن نفرق بين الأسباب والنتائج في دراسة السلوك الإنساني وخاصة إذا تقدمنا في هذه الدراسة من زاوية دول غرب أوروبا، وتاريخ حروبها طويل متعدد الأشكال.

خذ مثلا طريقة تعبير الأطفال عن الغضب، هل حقيقي أن الطفل إذا غلب على أمره استشاط غضبا وبدرت منه محاولات عنيفة لفعل ما يريد؟ ألا يصح أن يكون ذلك العنف من جانبه رد فعل لذكرى خبرة سابقة حين لطمته أمه وهي في حالة غضب، أو حين شاهدها تفعل ذلك مع أخيه الأكبر أو أخته الكبرى؟ إن الأطفال مقلدون إلى درجة قل أن

يستطيع فهمها إلا من راقب حياتهم اليومية مراقبة دقيقة وتنبه بنوع خاص إلى الطريقة التي يكونون بها دنيا أفكارهم وسلوكهم، وطبيعي أن الأطفال الذين لم يبلغوا مستوى العقل الكامل – ولم تنضج عقولهم نضجا تاما لا يخضعون لقيود في تصرفاتهم ... غير أن هذا القول لا يصدق على البالغين، ونحن في دراستنا لسلوك العنف يجب أن نتوخى الحرص كل الحرص في تحديد الأسباب والنتائج.

وليس أمامنا في هذا الصدد من سبيل إلا الرجوع إلى الحقائق، والجماعة البشرية فسيحة المدى تتيح لنا اختيار ما نريد من أمثلة، وفي مقدورنا أن نتحكم في المحاجة تحكما تاما نظرا لما لدينا من معلومات عن تتابع الأنماط المختلفة من الثقافة .. وإذا قمنا بالتحري أولا وبحثنا شئون جامعي القوت وصلنا إلى نتيجة هامة، فبدلا من أن يقضي هؤلاء الناس أيامهم في الشجار والقتال نراهم على بكرة أبيهم يعيشون في سلام إذا تركوا دون إزعاج، فهم قلما يجنحون إلى العنف في علاقاتهم الشخصية، كما أنهم لا يقتلون فيما بينهم جماعات، ولقد أجمع الرجال والنساء الذين عاشوا بين هذه الشعوب، وخبروهم جيدا على الشهادة لهم بالأمانة والإخلاص لرباط الزواج والمعاملة الرحيمة للأطفال واحترام الكبار ودماثة السلوك في كل علاقاتهم، هذا الإجماع يعتبر ظاهرة من الظاهرات الفذة في علم الأجناس.

وإذا ما واجهتنا حقائق مستخلصة من كل ركن من أركان الأرض

ومن كل المجتمعات المشتغلة بجمع القوت سابقة الذكر (انظر الفصل الثاني) فإنه يبدو أن المسألة هي شيمة الجنس البشري إذا عاش عيشة بسيطة كما يفعل جامعو القوت – فإذا تقبلنا هذا وجب أن تكون النتيجة أن الإنسان قد تعلم المقاتلة بطريقة ما أو بغيرها عندما ارتقت ثقافته.

ويبدو أن جامعي القوت في أوروبا فيما قبل التاريخ أي أهل العصر الحجري القديم لم يأبهوا بالقتال ولم يصنعوا أسلحة من الحجر، وطبيعي أنهم ربما صنعوا أسلحة من الخشب، إلا أنه من غير المحتمل أن هؤلاء الناس وقد برعوا في الصناعة الحجرية كان يستعصي عليهم صنع أسلحة يستخدمونها في القتال لو أنهم كانوا في حاجة إليها، ولا يستثنى من هذا إلا ما وجد في العصر السوليوتيري من أدوات ربما كان بعضها رءوس حراب، والأرجح أنها كانت من نوع المدى والمحاكات كتلك التي وجدت في مصر، وتتجلى عادات المسالمة بين جامعي القوت في العصر المجدليني، لأن أغلب الأدوات التي وجدت فيه خطافات من العظم وشطفات من الصوان تستخدم في شئون الفن والصناعة، فإذا ذكرنا أنه عندما بدأ القتال في أوروبا في العصر البرونزي بصورة حقيقية تطورت الأسلحة واحتلت مكانا هاما في الصناعة بعد ذلك، إذا ذكرنا كل ذلك تجلى لنا المعنى الذي ينطوي عليه اختفاء الأسلحة في العصور السابقة.

ولم يكن العصر الحجري القديم هو الذي خلا وحده من أشياء محدودة تدل على وجود أسلحة بل إن مصر أيضا في أقدم عصور ما قبل

التاريخ كانت موطنا لشعب مسالم، وقد أخبرني مستر سدني سمث أن شواهد كثيرة وجدت في سومر تدل على أنه كان بها أسلحة في العصر السابق لعهد الملك سارجون، وبذا تكون هذه البلاد شاذة عن القاعدة، غير أن أول مواطن في سوسا وأناو تمدنا بما يشهد على أن أهلها كانوا من المسالمين.

وإذا عرضنا للعصور التاريخية في الشرق القديم ظهر لنا أن الإنسان بدأ يتعلم القتال شيئا فشيئا، وأقدم أخبار الحرب في مصر هي الأخبار الخاصة بتأسيس المملكة المتحدة، ذلك الحدث الذي نجمت عنه عداوة بين الوجه القبلي والوجه البحري، ولا بد أن المصريين في تلك الأيام الغابرة كانوا قوما مسالمين نسبيا، وكان القتال بينهم مبعثرا هنا وهناك، لا تمارسه جيوش قائمة بل كان اعتماد الحكام فيه على قوات احتياطية، ولم يبدأ القتال بصورة جدية، ويعين الملوك قوات تخوض معاركهم إلا في أزمنة تالية عندما اضطروا إلى الاصطدام بطبقة قوية من النبلاء كانوا يهدفون إلى الحصول على سلطان مستقل.

وقصة الحرب هي قصة العنف المتزايد في سلوك الجماعات الحاكمة، ذلك العنف الذي بدأت تغذية أسباب مختلفة بمجرد أن أصبح عنفا منظما، فهناك نظام الملكية الشخصية الذي اقترن اقترانا وثيقا في بدء وجوده بالحكام، وهناك مسألة الاستحواذ على السلطة نفسها والرغبة في المزيد منها، كل هذا لا نشك في أنه لعب دورا هاما في إذكاء نار هذا النوع

من السلوك، ومن المؤكد أن هذين العاملين كانا من العوامل القوية في حالة الأرستقراطيات المحاربة التي ظهرت في العصور التالية، والخوف من المنافسين كان أيضا من العوامل الفعالة في هذه الظاهرة، كما أن الجيش نفسه ما أن أصبح له وجود حتى بات له تأثير عميق في كل من كان على اتصال وثيق به.

وهكذا تضافرت أسباب مختلفة جعلت الإنسان يعلم نفسه العنف، وغن أخطر مشكلة تواجهنا هي أن نمحو هذا الأسلوب من التفكير ونقضي على المشاعر التي تسمم العلاقات الإنسانية، ولكي نؤدي هذه المهمة الهائلة علينا أن نعود إلى البدء ونتتبع عملية التعليم خطوة بعد خطوة.

ليس هناك شك في أن الجنس البشري يتفاقم لديه سلوك العنف، أما الحضارة البائدة فيما عدا حالات قليلة شاذة فقد كانت هادئة نسبيا، ففي مصر وفي عيلام القديمة وبولينيزيا الأولى وفي المايا الأمريكية القديمة، في كل هذه الجهات ليس هناك إلا القليل من الآثار التي تدل على وجود قتال خطير الشأن، بل إن تقاليد كل هذه الأماكن تحكي أخبار أيام كلها سلام وسعادة، ولم تظهر علائم القتال الحقيقي إلا في أزمنة تالية بعد طرد الهكسوس من مصر، وعقب تأسيس الإمبراطورية الأشورية وأثر الفترة الأولى من حضارة المايا.

وتصف تقاليد البولينيزيين أياما كان السلام يرفرف فيها على ربوع

المحيط الهادي ويقطع الزعماء فيها آلاف الأميال للمشاركة في احتفالات غيرهم، ثم تصف أيضا أياما بدأ فيها القتال بصورة جدية وتبع فيها الحكام في عقر دارهم خشية زملائهم، كذلك كان الملوك القدامى للتويون وبلاد السويد يعيشون في سلام، ولم يبدأ القتال بينهم إلا ببدء الحركات التالية، وتدل كل الأخبار أيضا على أن كريت كانت تعيش في هدوء حتى أقبل الدوريون المحاربون فقضوا على حضارتها الرائعة، وهكذا تسمع القصة نفسها في كل ربوع الدنيا، قصة العنف المتفاقم، إن القصص التي تحكي عن عصر ذهبي سابق من السلام والسعادة وأحسن أمثلتها ما ورد في كتاب هزيود Hesiod "أعمال وأيام" Works and daysهي قصص لها أساس وطيد من الحقيقة، ويجب أن ننظر إلى هذه القصص من زاوية خبرتنا التاريخية في غرب أوروبا بل يجب أن نحاول تذكر الأحوال التي كانت سائدة عندما كتب هزيود وغيره ما كتبوا.

وإذا كان حقيقيا أن العنف المنظم هو نوع من السلوك غذته أنظمة معينة فمن الواجب أن نعرف كيف بدأ هذا السلوك.

وأول مثل لسلوك عنيف متعمد نستطيع أن نشير إليه هو ما كانت تحتمه الشعائر الدينية من قتل الملك، وهي عادة ربما جرت في مصر القديمة وسومر وظلت نافذة حتى عهد قريب في منطقة أعالي النيل وفي أماكن أخرى، فقد كان المعتقد في تلك الأيام الغابرة أن خصوبة البلد ورفاهيتها تتوقفان على حيوية الملك، فإذا تقدم به العمر ووهن منه العظم

كان مصيره القتل، ولم تعتمر هذه العادة طويلا بل سرعان ما وجد لها مخرج، فبدلا من قتل الملك نفسه كانت تقتل ضحية أخرى، وقد جرت هذه الحوادث في أزمنة سحيقة القدم، وما زالت حقائقها يكتنفها الغموض، غير أن هذا الذي نذكر هو أقرب شيء للحقيقة على قدر ما نستطيع أن نستخلص من تمحيص الوفير من الشواهد، ومن الشائق أن نلاحظ أنه باستبدال أحد رعايا الملك بالملك كما جاء في القصة المصرية "هلاك الجنس البشري" اعتور الملك – ممثلا في "{ع" إله الشمس – تغير في الخلق ينحو به نحو الدهاء، وأصبح جو القصة عنيفا، كذلك عندما اتصلت ألهه بابل بالسماء في عصور متأخرة أصبحت نزاعة إلى القتال، أما قبل ذلك فقد كانت وديعة مسالمة.

وعندما انتشرت الحضارة البائدة في العالم أخذت معها عادة التضحية بالبشر، ولم تكن الضحية ملكا بل كانت عبدا أو أسير حرب، وعلى قدر ما تدل عليه الشواهد كان أغلب ما ينشب من قتال بين هذه المجتمعات القديمة من الهند إلى أمريكا خاصا بالحصول على ضحايا من البشر يقدمون ذبيحة في مناسبات مختلفة كما في حالة الزراعة أو عبادة الشمس أو بناء منازل أو قوارب جديدة أو في جنازات الزعماء.

وإذا قارنا شعوب الوطنيين الذين تأثروا بالحضارة البائدة بمجتمعات الحضارة البائدة نفسها عرفنا أن سلوك العنف المنظم شيء لا بد له من أن يعيش في بيئة معينة، ويقضي عليه إذا خرج عن هذه البيئة.

ومن الأشياء التي تبدو شاذة متناقصة أن يقال أن المجتمعات المشتغلة بجمع الطعام والتي اتصل بها أصحاب الحضارة البائدة لم يتخذوا أساليب العنف في السلوك مثل التضحية بالبشر وأكل لحوم الإنسان والقتال المنظم إلا بعد أن اكتسبوا الكثير من ثقافة الحضارة البائدة، غير أن الحقيقة هي هذه لا مراء فيها.

ويمكن فهم هذا في سهولة بدراسة حالة المكسيك وأمريكا الشمالية، فقد بلغت التضحية بالبشر حدا شنيعا في عهد أزاتقة المكسيك الذين اكتسبوا الكثير من ثقافة الحضارة البائدة بعد إخضاعهم لبلاد المكسيك، وبالإضافة إلى ذلك كانوا يمارسون عادة أكل لحوم البشر بحيث تأكل الضحية أسرة الرجل الذي تمكن من أسره، ولم تنتشر هذه العادة في بلاد بعيدة عن المكسيك، بل اقتصرت مزاولتها بانتظام على قبائل معينة في منطقة خليج المكسيك، كذلك لم تعرف عادة التضحية بالبشر في الولايات المتحدة إلا بين قبائل الأركواز وقبائل سكيدي بوني The Irquois and the Skidi pawnee وهم أقرب ما يمكن في ثقافتهم إلى أهل الجنوب.

والمعروف أن شعوب الولايات المتحدة نقلوا ثقافتهم عن المكسيك، ومعنى هذا أن أصحاب الثقافة الدنية لم يكونوا جد راغبين في التطبع بعادات القسوة الكريهة، وفي حالة معينة هي حالة قبائل ناتشز في لويزيانا يقال أن بعض أفراد الأسرة الحاكمة هاجروا من البلاد لمعارضتهم لعادة التضحية بالبشر.

ويشبه هذا قصة يوي Ui جدة الأسرة الحاكمة في ساموا، وهي التي أغرت إله الشمس في وطنها على التخلي عن عادة التضحية بالبشر ثم غادرت البلاد.

ومن الأشياء التي يمكن ملاحظتها في أرخبيل الهند الشرقي أن عادات المقاتلة تخف حدتها بانخفاض المستوى الثقافي، وشعوب هذه المنطقة فيما عدا أولئك الذين وقعوا في القرون الأخيرة تحت تأثير شعوب أرقى في حضارتها فإنهم يمارسون عادة صيد الرؤوس، لأنهم يحتاجون إلى الرؤوس البشرية لأغراض احتفالية معينة هي نفسها تلك الأغراض التي من أجلها كان أهل الحضارة البائدة يريدون الذبائح البشرية، وفي حالة القبائل القاطنة في المناطق الداخلية من بورنيو شاهد أن أكثر حضارة كانوا فيما مضى يمارسون عادة التضحية البشرية لأغراض مختلفة منها جنازات زعمائهم.

بينما أصبح الاتجاه في كل أنحاء الجزيرة إلى التخلي عن التضحية بالعبيد وأن تستبدل بها عادة صيد الرؤوس وهي أقل قسوة، فإذا احتاجت قبيلة إلى رأس لأغراض زراعية أو جنائزية جهزت حملة تذهب إلى قرية أخرى قريبة أو بعيدة، وعندئذ يكمن المحاربون لاصطياد رؤوس أول القادمين، فإذا نجحوا في مهمتهم ابتعدوا عن المكان فورا دون قتال، وقد يكتشف أمرهم أحيانا فينشب القتال، ولكنه لا يكون قتالا عنيفا، وإذا خسر المهاجمون واحد أو أثنين من زملائهم أو إذا حصلوا من أعدائهم

على بعض الرؤوس تفرقوا وعادوا إلى مواطنهم، أما القتال المكشوف كما عهدناه في العصور الحديثة فلا وجدو له بينهم.

وليس من الممكن أن نفسر ظاهرة القتال في بورنيو على أساس أنه ميل للاعتداء فطروا عليه، ففي بعض الأحيان تنتظر القبيلة سنة أو سنتين قبل الحصول على رؤوس، وعندما يضعون خططهم في هذا الشأن فإنهم ربما يتجهون إلى قرية سبق لها اصطياد رؤوس منهم، وفي هذه الحالة قلما يكون الأمر مسألة عاطفة، ومن المؤكد أنه انتقام، ولكنه ليس من النوع الذي يؤدي إلى سلوك عنيف.

أما أصل هذه العادة فمن الأمور التي لا يخالجنا فيها شك، فإن الوطنيين قد أخذوا الحضارة عن قوم غرباء عنهم علموهم الزراعة وكانوا يحتمون ضرورة التضحية البشرية في شكل من أشكالها عند تشييع زعمائهم ولكي تنمو محاصيلهم وفي غير هذا من الأغراض، وعلى ذلك أصبح هذا التصرف عادة من عاداتهم، وأصبحوا يعتقدون أنه من الطبيعي تماما أن يحصلوا على رؤوس لزراعتهم، حتى أنه عندما أوقفت عادة صيد الرؤوس في ساراواك كان من الضروري أن يخزنوا رؤوسا في مستودع مركزي لتستخدمها القبيلة عندما تريد.

وحالة صيادي الرؤوس في بورنيو لها أهمية في دراسة نشأة العنف المنظم في أنحاء مختلفة من العالم لأن كثيرا من قبائل صائدي الرؤوس كانت قبائل من جامعي الطعام المسالمين منذ أجيال قليلة، وكل ما يدور بينهم من

قتال إنما ينحصر في حملات لصيد الرؤوس، أي أنه نتيجة لاكتسابهم أنظمة معينة مشتقة في النهاية من عادات اختصت بها الطبقات الحاكمة في الحضارة البائدة.

وقد اقترنت التضحية البشرية دائما بالطبقات الحاكمة أما من أجل جنائزهم أو لأن الشعائر الدينية التي كانوا يؤدونها فيما يتعلق بالزراعة كانت تتطلب ذلك، فإذا ما انتقلت هذه العادة مع انتقال الزراعة إلى شعوب أقل حضارة بدأت تنقرض أو بدأت تحل مكانها التضحية بالحيوانات أو بتقديم الفواكه والأزهار، ولم تزدهر التضحية البشرية وأكل لحوم الإنسان إلا بين الجماعات الحاكمة التي تتصل اتصالا وثيقا بالحضارة البائدة نفسها، وهي أرقى حضارة قديمة في أي جزء من أجزاء الأرض، وهذا مثل آخر للمبدأ العام الذي يقرر أن أي عنصر من عناصر الثقافة إنما يعيش في بيئته الأصلية ويتجه نحو الزوال إذا نقل منها، وشعوب الحضارة البائدة، أو قل طبقاتهم الحاكمة أقنعوا أنفسهم أن فعل هذه الأشياء الشنيعة كان فرضا عليهم، وأنهم إذا لم يفعلوا ذلك أنهار كل كيانهم، وهم يشبهون في ذلك ما كان يجري في بلادنا فيما مضى عندما كانت الفكرة أن السارق يجب أن يشنق حتى تظل الدولة قائمة، أمتا الذين لم يبلغوا هذه الدرجة من الضلال والانحراف ولم يفهموا هذا الأسلوب من التفكير فإنهم لم يقدموا ذبائح بشرية أو أنهم إذا أرادوا ضرورة ذلك حوروا الوضع وأخذوا رؤوسا أو ذهبوا إلى أبعد من ذلك

وقدموا ذبائح من الحيوان بدلا من الإنسان، وتعتبر دراسة التضحية البشرية من الأمثلة المقنعة على تأثير الأنظمة في السلوك الإنساني، و فهذه عادة لا نتردد في أن نصم بها العطشى للدماء من الهمج وما هي في الحقيقة إلا نتيجة لسلسلة من التفكير قامت في أذهان مجتمعات متحضرة، فأقنع الناس أنفسهم بأن قتل النفس البشرية على بشاعته ضرورة يحتمها في رأيهم صالح الإنسان.

وثمة مثل آخر أن سلوك العنف يؤثر تأثيرا واسع المدى في إثارة مشاعر أناس لم يكن لهم دخل في العراك الأصلي – وهذا المثل الذي نضربه هو ظاهرة هامة في الحضارة البائدة في كل أنحاء الأرض، ذلك أن الكيان السياسي والاجتماعي لمجتمعات الحضارة البائدة كان قائما على نظام الازدواج أو النظام الثنائي بمعنى أن كل مجتمع كان ينقسم إلى قسمين متميزين، ولقد وجدنا في العالم كله تقريبا أن العداوة كانت قائمة بين شطري المجتمع، ولا شك أن هذه العداوة قد انتشرت في العالم ونقلها مجتمع عن مجتمع آخر.

وكان لهذا النظام آثار ضخمة، ففي بولونيويا وربما في الهند أيضا كان هذا النظام قوة مدمرة إبان الحرب الكبيرة التي ورد ذكرها في كتاب الماهابهاراتا، فقد تقاتلت الجماعتان الحاكمتان فيما بينهما وقضتا على الحضارة القديمة، ونجم عن ذلك هجرات الأرستقراطيات المحاربة التي حدثت في أعقاب هذه الحرب، وحتى في أمريكا تحتوي كتابات بوبول فوه

وهي الكتابات التقليدية لقبائل الكيش في جواتيمالا The Popol Vuh Kiche Guatimala على آثار كافية لمثل هذه العداوة المستعرة بين الجماعات الحاكمة، وهي في مثلنا هذا عداوة بين ملوك كيش وملوك قبائل اكسيباليا Xibalba ومن الأمور العجيبة أن نتصور أن قتالا بدأ فرضا في مصر قد انتقل إلى العالم كله حتى أصبح في يومنا هذا قتالا يدور بين مجتمعات غينيا الجديدة دون أن يعرف المقاتلون سبب القتال، ويصف الأستاذ سلجمان Prof. Seligman كيف أن قبائل ميكيو Mekeo في غينيا الجديدة البريطانية تنقسم إلى قسمين، وأن القتال يحدث دائما بين المجتمعات التي تنتمي إلى القسمين المتعارضين، ولكنه لا يحدث أبدا بين مجتمعات القسم الواحد.

ولهذا المثل دلالة خاصة حيث أنه يبين أن نوعا من السلوك كان المفروض فيه أن ينبعث من أسباب طارئة وإذا به في الحقيقة سلوك تحدده التقاليد تحديدا حاسما، فإذا وجدنا أن الناس يتقاتلون من جراء عاطفة أدخلت عليهم، تفتحت أمامنا آفاق جديدة في ميدان العلاقات بين المجتمعات وتأكدت لدينا بصورة أكثر وضوحا الضرورة الحتمية للقيام ببحث شامل في نشأة الحرب وتأريخها.

وللعداوة الكائنة في النظام الثنائي ناحية هامة أخرى، إذ لم تكن هذه العداوة من عوامل التفرقة إلا عندما كان للمجتمعات طبقات حاكمة محددة، أما في الحالات الأخرى فإنها انحصرت في نطاق الكراهية المتبادلة

وفي ميدان المنافسة في لعبة الكرة التي تمارسها المجتمعات ذات التشكيل الثنائي على نطاق واسع.

ومع أن مصر في أقدم عصورها لم يكن لها جيش قائم، فقد كان فيها نوع من التنظيم الحربي – وعلى ذلك يوجد في كل مجتمعات الحضارة البائدة زعماء للجيوش، كانوا ينتخبون من جانب الجماعات الحاكمة التي ينعقد لها النصر أخيرا في أماكن مثل بولينيزيا – وفي مقدورنا أن نبين في حالة واحدة على الأقل أن الجهاز الحربي كان له تأثير عميق في سلوك المجتمع.

فقبائل الهنود في الولايات المتحدة يمكن تقسيمها إلى طائفتين متميزتين هما جامعو الطعام ومنتجو الطعام، أما جامعو الطعام فهم مسالمون كل المسالمة – غير أن منتجي الطعام من الوجهة الأخرى كان بعض القتال يدور بينهم قبل مجيء الأوروبيين – ويبدو أن كل هذه القبائل الأخيرة كانوا قد اكتسبوا من المكسيك نوعا من التنظيم الحربي بحيث أن كل طفل من الذكور كان يربي بطريقة تجعل منه محاربا، وكان التدريب الحربي جزءا من تعليمه حتى إذا ما صار يافعا أصبح على أهبة كاملة لإظهار هذا النوع من السلوك إذا دعت الضرورة، وهاتان الطائفتان من القبائل، المسالمة والمحاربة هما من بيئات متشابهة كما أنهما ينتميان إلى جنس واحد، فليس هناك محل للتذرع بالمؤثرات المناخية أو غيرها لتفسير ذلك الاختلاف بينهم، كما أننا لا نملك ذرة من دليل يوحي بأن القبائل

المقاتلة قد ابتكروا من تلقاء أنفسهم ذلك النظام الحربي الذي يتشابهون فيه جميعا، أما التفسير الوحيد لهذه الحقائق فهو أن وجود النظام الحربي هو الذي شجع قيام نوع من سلوك العنف كجزء من العلاقات الدراجة بين القبائل.

ويشبه هذا المثل كل الشبه تلك الأمثلة التي اقتبسناها فيما سبق من مؤلفات الأستاذ شادويك، وهي الخاصة بالشعوب التي كانت تعيش على حدود الإمبراطورية الرومانية، وتعلم أفرادها شئون الحرب على طريق الخدمة في الجيش الروماني وفي مقدورنا أن نذكر حالات أخرى كحالة شاكا Chaka الذي تعلم التنظيم الحربي من الأوروبيين ثم طبقه على قبائل الزولو، وهكذا ترى أن الجهاز الحربي عامل قوي في تحويل البشر إلى قوم محاربين.

ويبدو أن الناس قد وصلوا إلى تعلم العنف من طرق عدة لا من طريق واحد، كما أن هذا التعليم كان له أكثر من نتيجة واحدة، فبغض النظر عن أنه علم الناس الحرب فقد أدى أيضا إلى الحط من مركز المرأة وإلى العنف في معاملة الأطفال، ففي المجتمعات التي تجمع الطعام وبين شعوب الحضارة الدنيا يحظى النساء بمساواة الرجال كما كان الحال في الحضارة البائدة – أما الحط من مركز المرأة فإنه يعود إلى شعوب كالأتراك – والأطفال كذلك هم موضع التدليل والحنان الزائد بين جامعي الطعام وشعوب الثقافة الدنية، ولا نجد أثرا لفكرة الخشونة كطريقة ملائمة في

معاملة الأطفال إلا فيما صوره كتاب العهد القديم من جو العنف أو في مدينة اسبرطة أو بين الشعوب المحاربة، وهكذا ترى الفعل ورد الفعل يسيران في مجتمع تعلم العنف، ولا تكون النتيجة النهائية إلا الإمعان والتمادي في هذا النوع من السلوك، فإذا ما عومل الطفل في قسوة تصرف في عنف وأصبح ذلك سجية فيه لا يراه إلا طبيعيا، تلك هي الحلقة المفرغة التي ندور فيها.

وإذا سلمنا بمبدأ تسلسل الأسرات الحاكمة، وبأنه يصدق على الحضارة كلها فكيف يمكن أن نفسر ذلك البون الشاسع في السلوك بين حكام أقدم الحضارات وحكام الشعوب المقاتلة الذين ظهروا على مسرح الحوادث بعد ذلك بكثير، إن الفرق بينهم كبير، ولا بد من وسيلة لتعليل ذلك.

كان الملك في أقدم الحضارات محاطا بشتى القيود التي تحد من قدرته على تنفيذ ما يراه ولا تجعله مطلق الإرادة، فقد كان عادة الكاهن الأعلى للدولة لا حكامها الدنيوي، وكانت سلطته المدنية تحت إشراف مجلس يشبه إلى حد ما مجلس اللوردات عندنا – وكان هذا المجلس هو الذي يتخذ القرارات الهامة للدولة، وهذه هي الكيفية التي كانت تحكم بها دول اسكنديناوة القديمة، فقد كان الملك في مركز أشبه بمركز ميكادو اليابان، أي أنه كان رئيسا مظهري لا يفعل أكثر من تأدية المظاهر الاحتفالية نيابة عن المجتمع بأسره، ولم يكن من اختصاصه أن يدخل في شئون الحرب، وإذا

طرحنا جانبا مسألة تزايد الرغبة في القتال وهي التي ظهرت في سلوك الجماعات الحاكمة في هذه الحضارات القديمة بتأثير بعض الأنظمة كنظام الملكية الشخصية، إذا تغاضينا عن ذلك ففي مقدورنا أن نرى كيف أن الأحوال التي اكتنفت حركات أسفار الأمراء سعيا وراء تأسيس الممالك جعلت من اليسير عليهم أن يغيروا مسلكهم نحو رعاياهم، فالفرق بين ملك مثل ميكادو اليابان يحكم دولة بمساعدة دستور مشتق في نهاية الأمر من مصر وملوك كأولئك الذين حكموا أول ممالك للإنجليز والسكسونيين في إنجلترا هو فرق شاسع، فإن الملك الإنجليزي السكسوني قد فرض نفسه حاكما على قوم غرباء عنه، ولم يكن عليه التزامات من أي نوع نحوهم ..

وما دام في مقدوره أن يسيطر على نبلائه وهم ذرية أتباعه، وما دام في استطاعته أن يأمن شر المنافسين له من حكام الدول الأخرى، أصبح مركزه ثابتا مستقرا، وصار مطلق التصرف داخل حدود مملكته، ولو أنه من الطبيعي أنه كان معرضا لأية مقاومة يبديها رعاياه إذا ما اشتط في طلباته.

ويجدر بي في هذه المناسبة أن أقتبس الكلمات الرصينة التي قالها الأستاذ شادويك حيث أجاد في وصف مسلك هؤلاء الملوك في مؤلفه عن "عصر البطولة"، يقول الأستاذ:

إن عصر البطولة بين الإغريق والتيوتون تطالعنا فيه صورة مجتمع خلا من القيود إلى حد كبير، فأصحاب المناصب العليا أصبحوا لا يخضعون لقانون قبلي، وباضمحلال هذا القانون ترك الفرد طليقا من الالتزامات نحو

أقاربه ونحو المجتمع .. فكان لا يقيم وزنا لصلات القربى إلى حد أنه كان يستطيع قتل أحد أقاربه، ولا يعترف بسلطان إلا سلطان السيد الذي التحق بخدمته — وكان في مسلكه نحو آلهته طليقا نفس الانطلاق، وكانت هذه المظاهر على أشدها بين الأمراء .. فكان أثمن شيء لديهم هو القدرة على إشباع رغباتهم إلى الحد الأقصى، سواء في ولائمهم وكافة أنواع ملاذهم أو في سخائهم غير المحدود نحو أصدقائهم أو في انتقامهم الوحشي من أعدائهم، إن بطل الأوديسة عندما وأتته الفرصة لم يقف عند حد انتقامه من الأمراء ورعاة الماعز والخادمات، إن قصته تماثل تماما قصة ألبيون Albion الذي جلب عليه مسلكه الوحشي قصصا سريعا، ويجب ألا ننسى أن ألبيون هذا رغم وحشيته كان ذا سخاء نظم عنه الشعر من إيطاليا إلى إنجلترا.

إن ملك الإسرائيليين نحو المدينيين المغلوبين على أمرهم يشبه تمام الشبه هذا الذي سبق وصفه، ولنذكر أيضا تلك المذبحة التي قتل فيها جنكيز خان خمسمائة ألف من سكان مرو، حتى تنطبع في أذهاننا صورة لعقلية هؤلاء الناس، إن مركزهم قد نفث فيهم وحشية لا نستطيع تخيلها، لأنهم كانوا وأمثالهم في كل أنحاء الدنيا مسيطرين على الجهاز الحربي — إن ملوك إنجلترا من الإنجليز السكسونيين وهم من نسل أودن كانوا ملوكا محاربين كما يقول عنهم الأستاذ شادويك ولم يكن للزارع من سكان البلاد يد في القتال أو إشراف على الشئون الخارجية بل كان القتال مهنة

الأشراف، كان اللعبة الكبرى في يد نبلاء فرنسا القدامى.

وإذا كان التحليل الوارد في الفصول الثلاثة السابقة صحيحا فإن معنى ذلك أن هناك اتجاهين يعملان عملهما في الحضارة.

فهناك أولا الاتجاه الإنشائي الذي دفع الناس إلى اكتشاف الشيء وراء الآخر، إلى النهوض بالفنون والحرف، وإلى مد المواصلات بين أنحاء الأرض والمحافظة عليها، إلى احتلال بلدان جديدة يجدون فيها ما يريدون من أشياء، إلى تأليف الكتب وكتابة الشعر والتمثيليات، إلى رسم الصور ووضع الألحان الموسيقية وإلى عمل آلاف الأشياء التي تجعل للحضارة قيمتها.

وفي نفس الوقت هناك أخطاء كامنة في العلاقات التي نشأت بين الناس خلال تطور الحضارة، أخطاء نجمت عنها ضروب من التنافر الاجتماعي، وإن مهمة المستقبل العظمى هي القضاء على هذا التنافر كلما أمكن ذلك، وقد يكون من المستحيل أن نشيد مجتمعا يعيش فيه كل فرد حياة هادئة سعيدة مبتكرة غير أننا لا نزال في حاجة إلى إثبات هذه الاستحالة، إن دراسة الجماعة البشرية دراسة علمية لم تكد تبدأ بعد، أننا مازلنا إلى حد كبير ألعوبة في أيدي الهواة الأدعياء، وما برح النظريون في الميدان أصحاب صولة، وليس في مقدورنا أن نخطو نحو التقدم الحقيقي إلا إذا حاولنا أن نفهم كل الفهم كيف ارتقت الحضارة، فلا نسلم بصحة شيء مهما كان شأنه حتى ما في صدورنا وعقولنا من معتقدات، وإذا كان

ما أوردناه في هذا الفصل الختامي صادقا، وإذا ما صح عزم الناس على أن يعيشوا في سلام وأن ينسجموا في اختلاطهم بغيرهم، أصبح من ألزم واجباتنا أن نبحث في ثنايا الماضي عن أسباب النفور الذي يؤدي بنا إلى الفرقة، حتى نستطيع أن نغير الأنظمة الاجتماعية التي تلحق بنا الضرر وتقضي على المشاعر التي تخيم على جو العلاقة الإنسانية وتحول بيننا وبين تحقيق طبيعة أنفسنا الحقة وطبيعة زملائنا في الإنسانية، وبهذا نشيد لأنفسنا مجتما فاضلا.



الفهرس